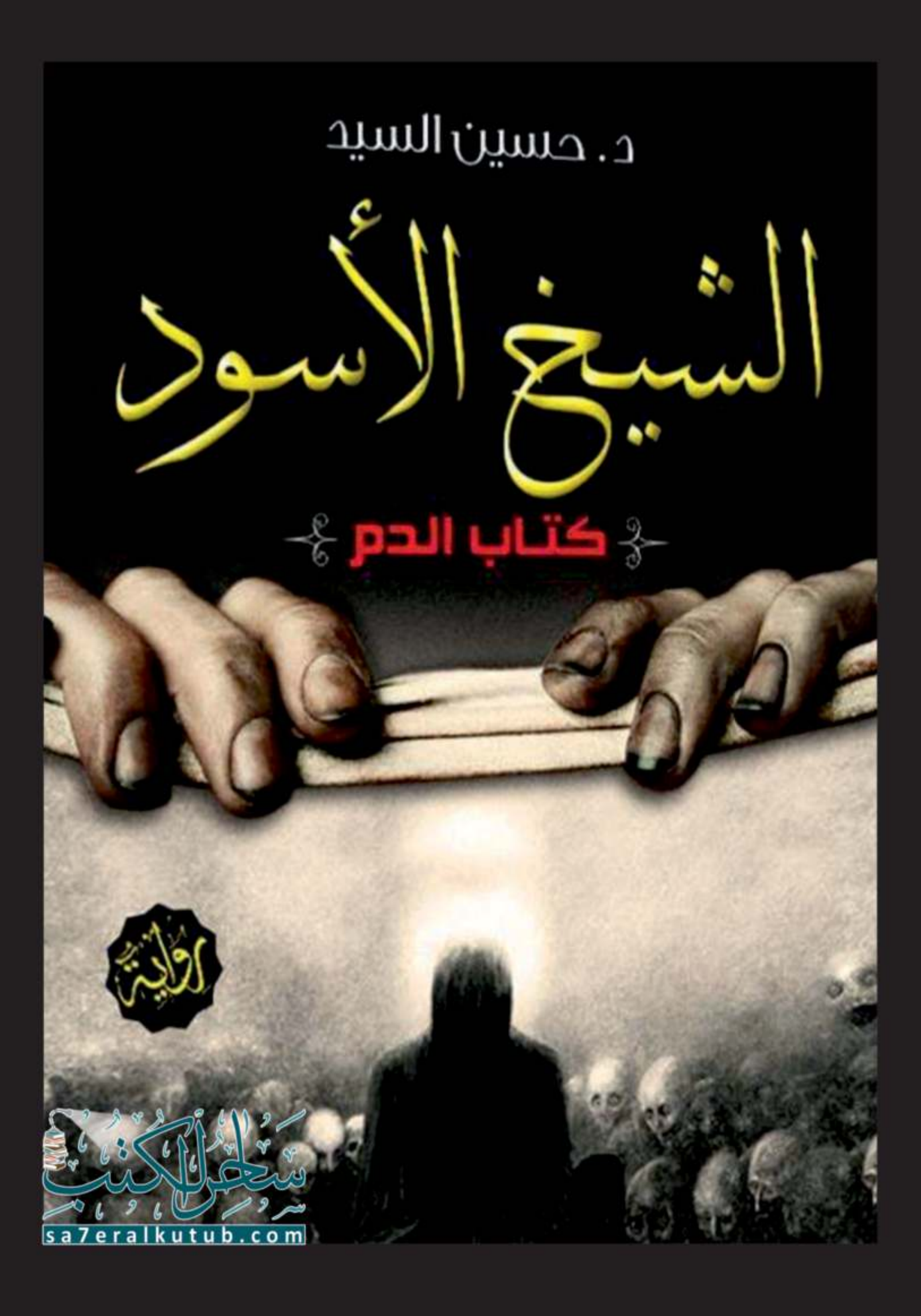

د. حسين السيد
الشيخ الأسود
كتاب الدم
رواية
سحر الكتب
sa7eralkutub.com

الشيخ الأسود

رواية

د.حسين السيد

الفصل الأول

البعث

1

اللحظات القليلة الأولى له خارج المصحة جلبت لعقله الحيرة والتيه. شعر أن هذا العالم الذي يراه الآن غير العالم الذي يعرفه. بدا كل شيء غريبا وكأنما يقتحم عالما يراه للمرة الأولي. كانت قاهرة أخرى غير التي فارقها منذ سنوات سبع. بدت وكأنما قامت قيامتها وسكانها في فزع وصخب، وكل منهم يعدو بلا هوادة في كل صوب، كي ينجو بروحه من الهول القادم. راح يحملق بحيرة في الوجوه المكفهرة الكئيبة، والعيون الكالحة الكادحة، والأبدان المترهلة الغارقة في عرقها وهمومها. لا ضحكة واحدة تزين وجها ما، ولا أمل يبرق في عين من العيون. كانوا موتي يتحركون، أو هم أحياء في ثوب الموت هائمون، وقد فنيت أرواحهم وبقيت أبدانهم.

كانت سبع سنوات من الحياة كالموتى قضاها في مصحة العباسية للأمراض العقلية، ثمنا لجريمة لا يصدقه أحد أنه لم يقترفها. وعلاجاً من مرض نفسي لا يعانيه. كان الأمر كله عبثا. لكنه عبث كالجحيم. عبث هشم نفسه ومزق روحه، وهاهو الآن يغادر المصحة شاعرا بسقم حقيقى وقد دخلها صحيحا كالجرس.

كانت هيئته رثة ، بقميصه اللبني كالح اللون، وقد اتسع على جسده الضئيل النحيل، الذي فقد الكثير من شحمه ولحمه. كانت لحيته كثة بلا تهذيب، واستطال شعر رأسه وتبعثر بلا انتظام. وبمعجزة ما ظل بنطلونه الجينز الفضفاض للغاية، بمكانه حول وسطه ولم يسقط. كان لا يختلف كثيرا في هيئته تلك عن المجاذيب.

تحاشاه كل من حوله وأعرضوا عنه كأنه مصاب بالجرب. كانوا ينظرون إليه بعيون مملوءة بالنفور والحذر، وهم يتأففون منه سرا وجهرا. حتما يراه البعض مخبولا و ربما يحسبه البعض لصا؟. في الواقع لم تزعجه تلك النظرات ولم تنل من نفسه، كان

يدرك أن العالم بأكمله لا يقلقه أو يعنيه. إنه غريب في أرض غريبة لا يعرفها، فلماذا يعبأ بقاطنيها؟..

مضى الوقت بطيئا. وفي النهاية ومع صلاة العصر وصل إلى ميدان المطرية فاتجه إلى شارعه الذي يقطنه في منطقة التعاون. كان كل شيء حوله قد تبدل وتغير، تهدمت البيوت القديمة، واستقامت مكانها أبراج سامقة تناطح السحب في ارتفاعها، وبرزت في كل ناحية عشرات المحلات ذوات الواجهات الزجاجية البراقة واللوحات الإعلانية الغريبة المشرقة. حتى المقهى البلدي الذي كان في مدخل شارعه، تحول من مقهى (الإمام) إلى كافيه (جوود مورننج). واستبدلت مقاعده الخشبية البالية بأخرى بلاستيكية ذات ألون زاهية براقة، وبدلا من القميص المشجر والبنطلون القماشي الفضفاض الباهت لونه، الذي كان يرتديه عزوز صبى المقهى من قبل، صار هناك شبابا أصغر منه عمرا، يرتدون زيا موحدا من قميص لبنى وبنطلونا كحلي ضيق. صار المقهى كافيها وأضحى القهوجي جرسونا!.

انحرف إلي الشارع الجانبي المؤدى إلي العقار الذي يقطنه. كان عجيبا أن يمر بالكثيرين دون أن يتعرف أغلبهم، لكنه وما إن اقترب من بيته القديم ، حتى رأى وجهاً مألوفاً. كان الحاج رضا. جاره الذي يعيش في شقة أسفل شقته. كان العمر قد تقدم بالرجل وازداد الجسد القصير بدانة، وقد تدلت بطنه أمام جسده وتكورت وانتفخت بصورة لا تكون إلا لمرض ما. اضطرب قلبه وهو يلحظ الوجه الذي إزداد شحوبا واصفرارا. والظهر الذي انحنى وَهناً . ورأى في كف العجوز عكازا خشبيا يتوكأ عليه ويستند. تجمد عماد لبرهة في مكانه وهو يرمق بإشفاق ما آل إليه الرجل من مرض وعجز. ثم وجد نفسه يسير نحوه وهو يفكر أنه لابد كان عائدا من المسجد بعد صلاة العصر. إعترض طريق العجوز فتوقف الرجل هو الأخر ورفع ببطء عنقه نحوه وقد ضاقت عيناه المنتفختان متفحصة إياه بحيرة لبعض الوقت، قبل أن يتعرفه في النهاية. تهلل وجه الحاج رضا وأشرق واحتضنه بشوق حقيقي وهو يربت على ظهره، ثم أبعد بعدها رأسه عن عماد ليتأمله بمقلتين إلتهمتهما المياه البيضاء والشيخوخة والمرض. لاحظ سوء حاله، فارتعشت يده، وارتجفت جفونه وهو يهز رأسه بأسف،

ودموع خفيفة تنبثق من بين أجفانه، قبل أن يضرب بعصاه الأرض، ويدمدم بحسرة :

- حمدا لله أنني رأيتك ثانية قبل أن أموت يا عماد. لكنك تغيرت كثيرا .. لا أصدق أنني أراك هكذا. صرت تبدو كشبح يا فتى. لكنك قد عدت وسوف يعود كل شيء كما كان.

واصلا التحرك وعماد يهز رأسه بلا معنى، إن آخر ما يقلق باله الآن هو صحته أو الهزال الذي يغلفه أو الطعام الذي لم يعد يشتهيه، وكان آخر ما يتوقعه أن تعود الأمور لسابق عهدها. إن ما كسر لن يجبر ثانية ومن مات لن يحيا مرة آخرى وما ضاع من عمره قد ولى للأبد، فكيف تعود الحياة كما كانت؟.

دعاه الحاج رضا لمشاركته في تناول الغذاء فرفض عماد بتهذيب ولم يستجب لإلحاح العجوز في تناول الطعام. سارا بعدها واجمين. كانت هناك عشرات العيون التي تعرفت عماد. حملت بعض النظرات شفقة حقيقية دفعت أصحابها لتحيته بحرارة. وجاءت النظرات الأخرى في المقابل مليئة بالاتهام والنفور، فكانت تحية أصحابها له باردة جافة، بينما تجاهله الكثيرون بعد أن رمقوه بنظرات لو اكتسبت كيانا ماديا لتحولت لحراب وسهام ومزقته.لكن كل هذا لم يعبأ به أو يهتم بما يراه. فلا الأحضان الحارة أسعدته، ولا النظرات المستنكرة المحتقرة أزعجته.

كان حبيس آلامه، وكان بحاجة لأن يعاود البحث في أروقة ذاته عن نفسه. كان عليه ان يستعيد عماد ثانية، فلماذا يهتم إذا بنظرات يعرف مبرراتها ودوافعها. إنه أمام أغلبهم مذنب لا يستحق الرحمة والشفقة.

إنه في عيونهم الفتى الذي قتل أمه..

2

وصل إلى مسكنه فوجده قد ارتفع طابقا جديدا. رأى الحاج رضا دهشته، فلوح بكفه في سخط واضح، وقال متحسرا:

-حاربنا كثيرا كي لا يشيدوا هذا الطابق. شكونا الحي وأبلغنا الشرطة. لكن لا شيء من هذا غير الأمر . في النهاية لم نقو على شرهم وفسادهم، فانتصر الطمع.

صعد بعدها للطابق الثالث ثم توقف محبوس الأنفاس أمام باب شقته. حدق في الباب فشاهد الكثير من الذكريات التي مازالت محفورة على بابه وواجهته. الخربشات الطفولية على الخشب والتي نحتت بخط طفولي(مرحبا بالزائرين). المسدس المرسوم على إطار البيت بالألوان الفلومستر. الجزء الخشبي المفقود من الإطار الذي انتزعه يوما في خرق فكان عقابه على يد أبيه.

إنتبه لنفسه وتذكر أنه لا يحمل مفتاح الباب، فكيف يدخل شقته؟. راح عقله يفتش عن الحل. هل يكسر الباب أم يبحث عمن من ينتزع الكالون من الباب ويغيره؟.

لكن جارته أم محسن أتت بالحل حين ظهرت بغتة من شقتها .. تعرفته فاحتضنته وراحت تبكي قبل أن تخبره أنها تحمل مفتاحا احتياطيا لباب شقته. طلبه بلهفة فاحضرته من أجله .. تذكر أخته ابتسام فراى أن يسأل أم محسن عنها.

-كيف حال ابتسام. أمازالت تزور المكان ؟.

شغر بغصة في حلقه فاراد أن ينهي الحديث ويدخل شقته. لكن أم محسن دعته للطعام فأعتذر . عرضت عليه أن يمكث في دارها حتى تنظف شقته لكنه رفض. كان يرغب في أن يخلو لنفسه فدلف شقته وأغلق الباب خلفه. ظلت أم محسن في مكانها خلف الباب للحظات متعجبة من حاله ،قبل أن تستدير وتعود لشقتها وهي تهز كتفيها بإشفاق

بالداخل غرقت الشقة في ظلامها المشئوم ورائحتها الغريبة التي لم يعتدها من قبل. كانت مزيجا من الرطوبة والهواء المكتوم والذكريات المشئومة.

أشعل المصباح الكهربائي فبدد الضوء الأصفر الظلام. تسمر بمكانه ورمق البيت بعينين خاويتين. بدت الشقه أمامه غريبة هي الأخرى وكأنه لا يعرفها. شعر أنه يرتادها للمرة الأولى رغم أنه قد عاش عمره كله من قبل بها . كانت الصالة مترية يكسوها

الغبار. والجدران مسكونة بأعشاش العنكبوت. وعن يمينه قبعت حجرة نوم أمه مظلمة ساكنة كالقبر وباباها مازال مواربا.

تعلقت عيناه بها وعقله يجتر بأسى ماجرى فيها من أهوال. راوده أحساس عجيب أن أمه مازالت بداخلها بل وربما تخرج من بابها بعد قليل لترحب بعودته. انزلقت عيناه نحو الجدار الملاصق للباب فشاهد العلامات الدامية للحريق المفزع. رأى أثار كف يد محترق قبضت على الجدار يوما دون أن تعبأ بالألم. ارتجف قلبه وهو يتذكر ، فأغمض عينيه بقوة ثم فتحها ببطء. هنا رأى أمه واقفة أمام الباب ترمقه بعيون زجاجية ميتة ووجه مكفهر. أضطرب قلبه فأغمض عينيه بسرعة ثانية، وهو يتذكر كلمات الدكتورة سحر التي طالما رددتها على أذنه بالمصحة مرارا :

- الموتى لا يعودون للحياة، و أمك قد غادرت هذا العالم للأبد. وشبحها الذي تراه ما هو إلا أوهام يختلقها عقلك. وهم عليك أن تحاربه ولا تخضع له.

هنا فعل ما طالبته به ودربته عليه مرارا. وبصوت مرتعش راح يعد.. واحد. اثنان . ثلاثة.. وعقله يصرخ بإلحاح محاولا انتزاعه مما يراه:

-كل هذا وهم .. وهم لعين قذر.

وصل بلسانه للعدد عشرة ففتح عينيه بحذر، فوجد أن شبح أمه قد اختفى. وعاد مكانها فارغا ، تنهد بارتياح وقد أفلح الأمر ، لكن هل يفلح في كل مرة؟.

نزع نفسه من جموده وتحرك ببطء نحو حجرته. دفع باباها المغلق بتردد، وأشعل النور. كانت في أسوأ حال. الدولاب كان مفتوحا، وقد تناثرت محتوياته من ملابس وغيرها أسفله. وسائد الفراش كانت مبعثرة على الأرض وقد برزت حشوتها القطنية. وتدلت الأباجورة أسفل الكمود، ومازال سلكها معلقا بالقابس الكهربائي.

هل فعل رجال الشرطة كل هذا في بحثهم الفاشل عن دليل ما غير موجود أصلا؟!.

لم يخالجه الضيق لتلك الفوضى التي تضرب المكان. ولم يبتئس لحال البيت. شعر أن مشاعره محايدة تماما. لا أسف هناك لما حدث من قبل ولا فرحة بالعودة . كل ما كان يحسه في تلك اللحظة هو الخواء. فقط الخواء.

تحرك نحو الحمام ليفرغ مثانته. وفتح صنبور الحوض وراح يحرك بأصابعه الماء في كل اتجاه بالحوض ليزيح التراب العالق به. ثم بأصابعه المبتلة راح ينظف سطح المرآة التي تعلو الحوض. بعد لحظات صنعت يده دائرة نظيفة في منتصف المرآة راح خلالها يتأمل وجهه ..

كان يرى شخصاً آخراً لا يعرفه. غارت العينان في محجريهما وانطفأ بريقهما فصارتا كعيني شيخ عجوز باهته كئيبة، وقد أحاطتهما هالات سوداء كثيفة. كما برزت عظام وجنتيه وأُمتص خديه.واستطالت لحيته كثة كثيفةمبعثرة. وتقلصت شفتاه عن أسنان أصفر سطحها واسودت حوافها، وسقطت خصلات ناعمة من شعره على جبهته وقد أصاب الشيب أكثره.

حمل وجهه وجه رجل في الستين من عمره لا شاب في بداية الثلاثينات من عمره. بدا في تلك اللحظة كمجنون.

لم يكن ما يراه إمامه الآن هو عماد الذي عرفه من أعوام. بل عماد آخر شاخت نفسه وخلجاته فصار عجوزا لم يتخط الثلاثين من عمره. خفض رأسه ناحية الصنبور ليغلقه وقد بدا الماء يملا الحوض وحين رفعها ثانية رأى أمه في المرآة تقف خلفه وتبتسم ابتسامتها المخيفة التي لازمتها حين تبدلت. انتفض جسده وخفق قلبه، وأغلق عينيه على الفور وهو يعد مرة أخرى الأرقام من واحد حتى عشرة . ثم فتح عينيه ببطء بعدها ليكتشف أنها قد اختفت. ظل قلبه ينتفض بلا انتظام لبعض الوقت فغادر الحمام من فوره وعاد لحجرته. أعاد مرتبته القطنية لمكانها ونفض عنها التراب الذي علق بها ثم ألقى بجسده عليها. أغمض عينيه وراح يتنفس ببطء كي تنتظم أنفاسه ويهدأ قلبه كما علموه من قبل في المستشفى. راح يبحث عن جنود النوم في عقله. وكانوا في انتظاره فأتوه متعجلين. وبعد دقائق غلبه النعاس.

3

عادت الهمسات لعقله ثانية، وككل مرة كانت خافتة، وملحة، ومبهمة، ومخيفة. حملت أصوات متداخلة لايعرف أصحابها، لكنه رغم هذا تعرف صوت أمه من بينها. ثم تعالى صوت أمه وتحول من همسات إلى صراخ. وهي تردد:

"LIBERATI DOMINUS DE BELLO, ET IGNIS"

كانت تصرخ في أذنه بتلك الكلمات الغريبة بلا توقف حتى كاد عقله أن ينفجر. راح يجاهد روحه كي يستيقظ وهو يجبر جفنيه على مغادرة عناقهما الحميم، حتى نجح في النهاية، وحين أفاق سكت الصراخ على الفور. فتح عينيه فاصطدمتا بظلام الحجرة. هب من فراشه، وهو يلهث ويجاهد لالتقاط أنفاسه، وصدره يصعد ويهبط بلا انتظام، دون أن يكف عقله عن التفكير..

لماذا عاودته الهمسات مرة أخرى بعد شهور من الإختفاء، ظن خلالها أنه قد برأ من تلك الوساوس التي تؤرقه وتهز اتزانه النفسى، بل وتشككه في قواه العقلية؟. لماذا عادت في نفس اليوم الذي خرج فيه من المستشفى !. أيعنى هذا أنه يواجه انتكاسة مرضية جديدة ؟!!.

وبدأ وريد جبينه الأيمن في التقلص. وراح يطلق نبضات تزداد حدتها مع الوقت. فعلم ما سيأتى بعد قليل. صداع نصفى رهيب يمزق عقله ويفتك بخلاياه. تعلم ألا ينتظر حتى يصير ذلك الصداع اللعين وحشا لا يقهر. وتعلم أن يعاجله ويطعنه بالمسكنات قبل أن يشتد بأسه.

نهض من الفراش وجلس على طرفه في الظلام وراح يستدعى من ثنايا ذاكرته ما اخبرته به الدكتورة سحر عن تلك الهمسات. أغمض عينيه وهو يتذكر ملامحها الهادئة ونظارتها الأنيقة وابتسامتها الواثقة المرحة. كان قد سألها يوما وقد أنهكته تلك النوبات التي تكررت فيها الهمسات ولازمته الهلاوس خلالها حتى كادت أن تذهب عقله . لماذا يحدث هذا معه ؟ وهل هو مجنون؟.

هنا أجابته بابتسامتها الخالدة التي لاتعرف الفناء:

-بالطبع لست مجنونا ولا تختلق ما يحدث لك، لكن عليك كذلك ان تدرك أنه لا وجود لتلك الوسوسات الشيطانية. إن إجابة كل تساؤلاتك بسيطة للغاية . أنت تعاني من مرض نفسي ولهذا يحدث لك هذا، لكن وكي تشفى عليك أن تدرك طبيعة مرضك، وأن تعي أعراضه. أنت مريض بالفصام، والفصام هو مرض الضلالات والهلاوس. ستشاهد رؤى لايراها غيرك. ستسمع أصوات وهمسات ووساوس تتردد داخل رأسك وحدك. لكن هذا لا يحدث لك وحدك. المصحة كما ترى مليئة بمن هم مثلك، وكلهم لديهم ضلالاتهم الخاصة. البعض يصدقها والبعض يرفضها ويقاومها، ولو شئت أن تتخلص منها فعليك ان تقاوم تلك الضلالات يا عماد. دع عقلك يرفضها ويطردها. لا تصدق وجودها مهما بدت لك حقيقية. إعلم إنها لا تعدو ألعاب يخلتقها لا وعيك والمناطق المظلمة في عقلك.

لكن الهمسات لم تبد له أبدا أوهاما أو ضلالات كما تقول. كانت دوما حقيقية. حقيقية ككل شيء في هذا العالم القاسي. حقيقية مثل الشمس والقمر والنجوم والألم. إن كلماتها محيرة ولا يستطيع عقله أن يهضمها. هل يعمل عقل المرء ضده وهل يرغب في أن يسقطه أسيراً لأوهامه ومرضه. لم يستطع أن يعى أبدا كيف يمكن أن يحدث هذا. أخبرهاباعتراضه، فحدثته عن شيء غريب، وقالت له:

-هل تعلم انك محظوظ أنك لا تحيا بمرضك هذا في العصور الوسطى. لن تتخيل كم كنت ستعاني لو عشت في تلك الاوقات الكئيبة. هل تعلم أنهم كانوا يعدون المرض النفسي دليلا على ضعف الإيمان، وعملا من حبائل الشيطان والأرواح الشريرة وقوى الظلام التي تبغى إلتهام أرواح المؤمنين. لقد آمنوا أن الهمسات التي يشكوها المرضى هي أصوات كائنات الظلام ووسوستهم. كانوا يعالجونهم بالرقى والعقاقير البدائية التي لا تجدي بلا شك، أو يلجأون للمراسم الكنسية لطرد الشياطين بواسطة الكهنة والقساوسة. لو كان المريض محظوظا حينها لبرئ حينها، وإلا فهناك الحبس والتعذيب البدني لإخراج تلك الكائنات الشريرة من رأسه وجسده. بالطبع مات الكثيرون من

تلك الوسائل البشعة. لكن الأكثر قسوة كان مصير أولئك الذين يفشلون في علاجهم فيتهموهم بممارسة السحر والشعوذة ويحرقوهم أحياء أو يغرقوهم.

اقشعر جسده من هول ما يسمعه. من حسن طالعه بالفعل أنه يحيا في القرن الواحد والعشرين ولم يختبر تلك الأساليب العنيفة. لكنه رغم كل ما تقوله لا يصدق أن ما يحدث له مجرد أوهام. في النهاية هو يدرك أنه ليس مريضا كما يدعى الأطباء. هناك بالفعل شر خفي يحاول اقتناصه والنيل منه. وهذا ما يؤمن به طوال الوقت.

لكن العجيب أن جلسات علاجهم وأقراصهم قد نجحت في تخفيف حدة تلك النوبات التي تهاجم عقله حتى أنتهت تلك الهمسات تماما منذ شهور طويلة. وربما كانت مفارقة تلك الهمسات لعقله سببا في اعتقادهم أنه قد شفى مما به. ولهذا أخرجوه من المصحه.

تذكر الأقراص التي زودوه بها الأطباء في المستشفى قبل أن يخرج. والتي طالبوه أن يتناولها لو عاودته تلك الأعراض ثانية. رفع حقيبته التي تحوي الأقراص وفتش داخلها عنها. ثم انتقى من بينها شريطا كتب على ظهره بالإنجليزية "اريبرازول" 30 مجم . أنتزع منه قرصا ووضعه بفمه ثم ابتلعه بلا ماء متجاهلا مرارته.

تفقد بعدها غرفته. لا يدري لماذا لا يشعر بالألفة بها كما تخيل أن يحدث من قبل.لا يفهم كيف تكون مشاعره سلبية تماما لمكان عاش به طوال عمره ويحوى كل شبر منه ذكريات كثيرة عاشها .

تحولت عينيه إلى المرآة المثبتة على الجدار بالبلاستر البني اللون. تأمل البوسترات الكثيرة التي لصقها بنفسه على الحائط من قبل. كان هناك عمرو دياب في بوستر يظهر عضلاته وهو يحدق بتحد في صورة لكاظم الساهر يرفع فيها رأسه للسماء بنظرة حالمة. بينما استكان بجواره بوستر قديم لعبدالحليم حافظ وهو يرجع براسه للخلف وشعره ينسدل على جبهته وكفه مرفوعة للأعلى. ومسطور عليه أبيات من أغنيته قارئة الفنجان . وأسفلهما استقرت الأميرة ديانا هادئة رقيقة. جميلة تتابع ما يجرى بين المطربين من تنافس بابتسامتها الساحرة ..

تحرك نحو المرآة ونظر إلى وجهه فيها. لم يعرف نفسه. فابتعد عنها. وغادر الغرفة متجها للصالة. كانت حجرة أمه في مواجهته كما كانت دائما. وكانت علامات أصابعها الدامية على الحائط بجوار الباب كما هي تذكره بإصرار بما حدث. صرف بصره عنها. ونظر إلى الغبار الذي غمر أثاث الصالة كلها وحوائطها. كانت الشقة في حاجة للتنظيف الفوري . فكر في هذا وهو يوازن بعقله. هل يقوم بالأمر بنفسه. أم يبحث عمن يفعلها لقاء أجر ما.

استدار ليذهب للحمام فالتقت عيناه ثانية بالعلامات الدامية لأمه المطبوعة على الجدار. هذه المرة كانت تتوهج مشتعلة. ارتجف بدنه هلعا وأغمض عينه على الفور وقد رأى انه قد عاد لأوهامه. بوعد دقيقة أو أكثر فتح عينيه ثانية. هنا لم تعد العلامات متوهجة كما كانت. لكن قلبه ظل ينتفض إثارة. ظلت عيناه معقلة بالأثر الدامي وراح يفكر. أمازال عقله يعبث به ويمارس معه ألاعيبه. أم أن هناك شيء ما يدور بالبيت لايدرى كنهه؟..

4

خرج من الحمام على دقات الباب وصوت مألوف يناديه من خلفه بألحاح صاخب. تذكر صاحبه وهو يتجه نحو الباب ليفتحه. كان صديقه ممدوح. رفيق الطفولة والصبا والجامعة. فتح الباب فدفعه ممدوح على الفور للخلف. قبل أن يلقى بنفسه عليه وهو يضمه بشوق لا رياء فيه. لم يكن هناك من فرصة ليرى كيف صار بعد تلك الأعوام وإن لم يفته انه مازال محتفظا ببدانته. ظل ممدوح يحتضنه بعنف ولسانه لايكف عن الحديث :

-لا اصدق نفسي. لقد عدت حقا يارجل . أخبروني بهذا الآن فلم أستطع الانتظار وهرعت إليك على الفور. يا إلهي !. لا أصدق أنني أراك ثانية بعد كل هذا الوقت.

استمر العناق لدقيقة أخرى. قبل أن يطلق ممدوح سراحه ليتأمله بشوق. وواصل عماد تأمله هو الأخر. إزداد جسد ممدوح بدانة وتكونت كتل اخرى من الشحم في كل مكان ببدنه. كما اختفى نحره الآن تماما بفعل لغد ثخين تكون في تلك السنوات

الاخيرة حتما. بينما انحسر الشعر عن مقدمة رأسه حتى المنتصف تقريبا مخلفا القليل من الشعيرات السوداء. ظل عماد ينظر إليه صامتا. لكن ممدوح لم يفعل وعيناه تتفقده متسعة ومندهشة:

-يا إلهي، ما الذي أراه ..ماذا بك يا رجل. تبدو نحيفا كالبرص. أين ذهب اللحم والشحم؟، أنا لا أرى غير العظام والجلد. هل أنت بخير ؟. لا تخبرني أنك مريض.

ابتسم عماد وغمغم بشيء من السخرية :

-قد أكون مرضا لكن ماذا عنك؟. ألا تنظر لنفسك في المرآة. لقد صرت كالخرتيت . أرى أنك لا تألو جهدا لتكون هكذا. ما الذي تأكله لتصير هكذا؟..

لم يبتسم ممدوح لدعابته كما كان يفعل دائما من قبل. وهو يتعجب من الشيب الذي غزا رأسه. لقد تغير صديقه كثيرا وتبدل. لكن أكثر ماتغير فيه كان موت تلك الحيوية التي ميزت عينيه من قبل. صارت عيناه متبلدتان جامدتان . بدا له عماد كرجل عجوز.هنا هز رأسه بعنف، و قد رأى في عينى عماد أنه يقرأ ما يدور بذهنه فشعر بالخجل وقال بارتباك:

-ما رأيك لو هبطنا لنجلس على القهوة قليلا ،أم ترغب في تناول العشاء عند (النتن) في الحسين قبلها. انت في حاجة لكيلو او اثنين من الكباب والكفته لترمم نحافتك هذه. بعدها نعود سويا لمقلب الزبالة هذا لننظفه. أعتقد أننا سوف نقضى الليل كله في تنظيف هذه الشقة.

لم يكد يتم عبارته حتى فوجئ بصوت من الخلف يقول له:

-اهتم أنت بعماد، ودع الشقة لي ولسوسن ابنتي. امنحونا ساعات ثلاث فقط وحين تعودون سترون شيئا مختلفاً.

كانت أم محسن، ومن خلفها برزت فتاة تخطت المراهقة بالكاد. كانت حلوة التقاطيع ذات قوام بديع وقد ارتدت بيجامة ضيقة للغاية أبرزت قوامها المرسوم بدقة

وصدرها الناهد. بدت في عينيها نظرة فضول ساحقة وهي ترمق عماد متفحصة إياه، كأنما ترى مخلوقا من كون آخر ، وقد فتر ثغرها عن ابتسامة عجيبة لم يفهما عماد ..

تنهد ممدوح بارتياح لاقتراح أم محسن ،وقال وهو يختلس النظر إلى قوام سوسن البديع:

-لا داعي للتعب يا أم محسن. يمكنني أن أساعد عماد في تنظيفها .

لكنها كانت مصرة فدفعتهم بيديها للخارج وهي تقول بشيء من المداعبة :

-كفا عن الثرثرة التي بلا طائل وغادرا المنزل الآن. أمامنا عمل شاق هنا . لكن لا تعودا قبل ثلاث ساعات.

تطلع اليها عماد بإمتنان وإنتقلت عيناه إلى سوسن فبادلته نظرة جريئة دون أن تخفض عينيها، ففعل هو بحرج ،ثم خرج مع ممدوح الذي وضع كفه فوق كتفه وقال بتأثر :

-امرأة طيبة أم محسن هذه!.. كما أن إبنتها حلوة. ألم تلحظ هذا ؟!

كان قد لاحظ حلاوتها، كما لاحظ جرأتها الشديدة ونظراتها الحادة. لكنه لم يرغب في مجاراة ممدوح في الحديث عنها، فقال :

-لقد كبرت سوسن. حين تركتها كانت لاتزال طفلة تلعب في الشارع.

تحركا نحو القهوة ، واتخذا طاولة بالخارج، وجلسا عليها، وعلى الفور جاءهما النادل. طلب عماد قهوة سادة وطلب ممدوح الشاي، والتفت عماد إلى ممدوح وقال بهدوء:

- لم تأت أبدا لتزورني في المستشفى كل هذه الأعوام ،اعتقدت أنك تشارك الجميع في اتهامهم إياي بقتل أمي .

احتقن وجه ممدوح خجلا، بدا وكان السؤال قد فاجأه . وبشي من الارتباك أجاب:

-لم أرغب في أن أراك هكذا. أنت تعلم أن هذا فوق طاقتى. كان هذا ليشعرني بالعجز والضعف. كنت لأبكي لو رأيتك هكذا.

-رغم هذا كان عليك تأتي. ألم تدرك أنني قد أكون بحاجة لمثل تلك الزيارة!

وصرف عماد عينيه نحو الأفق وصمت للحظة قبل أن يكمل قائلا:

-كنت دوما في حاجة لمن يزورني ويحدثني. كنت بحاجة لمن يخبرني أنني لست مجنونا. هل تفهم معنى أن تعيش كل تلك الأعوام لا تحدث غير المرضى عقليا. أن تقضي كل تلك الأعوام دون أن يزورك أو يسأل عنك احد. كنت لأفقد عقلي بلاشك لو مكثت في المستشفى لوقت أطول.

لم يجد ممدوح ما يجيبه به، فأطرق بوجهه لأسفل ولاذ كل منهما بصمته، رمق عماد الشارع بخواء. بينما نهش الخجل روح ممدوح من معاتبة صديقه. لم يكن الأمر مفاجئا فقد توقعه كثيرا، جهز عشرات الإجابات والحجج لكنه وأمام عيني صديقه نسي كل ما رتب له من قبل. طال الصمت وشعر ممدوح أن عليه أن يقطعه وأن يقول شيئا ما فقال بخفوت:

-أتمنى لو تسامحني ياعماد. أقسم أنني لم أتخيل أن أراك في مستشفى المجانين. أرجوا أن تصدقني في هذا. الأمر لم يكن أبدا أنني اتهمك كالآخرين بقتل أمك ،ولم يكن كذلك كسلا منى وعدم اكتراث بزيارتك. لكنى كنت دوما أتذكر ماحدث وأشعر بالحنق من نفسي لأنني لم أكن ذا جدوى حقيقة في معاناتك المشئومة. لا أعد هذا عذرا ،لكنني مازلت آمل في تفهمك.

لم يعقب عماد وظل صامتا وهو ينظر إلى الافق المظلم بشرود ،حتى اتى النادل بالقهوة له، فراح يرتشفها ببطء. تصاعد في نفسه إحساسه بالغربة والوحشة، وعاوده شعور ممض بأنه لم يعد ينتمى لهذا العالم . حتى ممدوح صديقه الوحيد ها هو يجلس بجواره صامتا وقد إنتهى الكلام بينهما كأنما لم يعد هناك مايقال. وقطع ممدوح حبال أفكاره وهو يقول:

-هل علمت بالثورة ؟

هز رأسه ببطء وأجاب دون أن يلتفت إليه:

-كنا نتابع اخبارها أحيانا من الجرائد أو التليفزيون. لكن لا تتخيل أنى كنت أكترث بها.

- لقد مات هنا الكثيرون في أيامها الاولى وفى الاحداث التي تلتها. البعض قتلوا في المظاهرات والبعض الآخر أمام الاقسام ومراكز الشرطة. في شارعنا هذا كان أسامه عبدالعزيز أول من مات. هل تتذكره ؟.

تذكره على الفور فهز رأسه ببطء وهو يرشف قهوته ولم يعقب. لم تختلج في نفسه أى شفقة أو ألم نحو أسامه. شعر أن مصيبته التي عاشها ومازال فيها قد أذهلته وصرفته عن مصائب العالم أكمله. ليحترق العالم كله أو ليبقى، فلم يكن الامر ليحرك في نفسه ساكنا. هل تقتل مأسينا مشاعرنا وتعاطفنا مع مصائب الآخرين ،وهل تئد معاناتنا إنسانيتنا وتعاطفنا مع آلام الآخرين ؟. إن هذا ما حدث معه. ولا يدرى هل هذا يحدث معه فقط أم إنها من طباع البشر ؟..

راح يتابع بشرود ما يحكيه ممدوح بحماس عن الثورة. حدثه كثيرا وكل ما فهمه أنه لا أحد يعي ماذا حدث بالضبط. هل كانت ثورة أم مؤامرة ؟. وكأن تلك الاحداث الجسام والدماء التي أريقت قد زادت من عبثية الحياة في البلد ولم تجلو أمرها.

هنا رأى شئ ما في الظلمة بجوار أحد الجدران. كان هناك إمرأة ما تقف في الظل وإن عرف من هي ببديهته. شعر بالفزع وهو يساءل نفسه إن كان قد عاد ثانية لهذيانه ..

لقد كان شبح أمه ثانية!! ..

لاحظ ممدوح نظرته الجامدة نحو تلك البقعة فتطلع اليها فلم يرى بها شيئا فقال بحيرة:

-لماذا تنظر بعينك إلى ذلك البيت هكذا؟

ظل شبح أمه في مكانه في الظل ساكنا فغمغم:

-هل ترى أحدا يقف في ظلام ذلك البيت؟. هل ترى تلك المرأة؟.

ضيق ممدوح من عينيه ليرى تلك المرأة المزعومة فلم يرى شيئا. البقعة التي يرمقها عماد مظلمة لا أحد بها، فرمق عماد بارتياب وقال:

-أنا لا أرى امرأة ولا حتى رجلا. هل ترى أنت أحدا لا أراه؟.

إذا هي الأوهام ثانية. فكر عماد وهو يغمض عينيه وأجاب ممدوح بسرعة كي لايثير شكوكه وتوتره :

-كلا. إنني لا أرى شيئا. إنها الظلال حتما. لم يعد نظري كالسابق.

وجم ممدوح وراح يراقب الارتجافه الخفيفة التي إعترت جسد عماد وشعر بانه ليس على مايرام. وراح يتسائل إن كان مكوث عماد الطويل في مستشفى الأمراض العقليه قد أثر على قواه العقلية. كان يعلم حقيقة ماحدث بين عماد وأمه. وكان يشعر بمدي الظلم الذي تعرض له عماد. كما كان موقنا أن عقل عماد كان سليما وليس مجنونا أبدا حين قتلت أمه. لكن ما أدراه أن التعامل مع المجانين لم يغيره. أيكون هذا تفسير غرابة أطواره التي يشهدها الآن. لم يشعر بالراحة فراح يرمق وجه عماد من حين لآخر.

بينما تجاهله عماد وأغمض عينيه، وعاد لممارسة تدريبه القديم. راح يعد حتى الرقم عشرة ببطء قبل أن يفتح عينيه ليختفي شبح أمه من أمامه ويعود المكان لفراغه وسكونه. هنا عاد ليتحدث مع ممدوح في أشياء لامعنى لها ومواضيع متداخله لارابط بينها ، كي يصرف عقله عن التفكير في ما يحدث له .

5

عاد لمنزله وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحا. كانت باب شقته مفتوحٌ فدلفها بحذر، لينبهر بنظافتها. وكانت سوسن بانتظاره بالشقة بمفردها. عيناها البندقيتان تتحدثان بأشياء كثيرة، وقوامها الساحر الملفوف ببجامة ضيقة قصيرة تلهب خيالات لاتنتهى. وبسمتها المستخفة تشى بمعركة دامية ستتأجج في أعماقه لتنتهي بهزيمة مؤكدة. المشكلة أن مستقبلاته الحسية والنفسية لمثل تلك الأشياء كانت مفقودة.

الفتاة جهزت جنودها وأعدت أسلحتها لمعركة مضمونة النصر لكنها تواجه عدوا مهزوما في أعماقه من البداية. كان كل ما يشعر به هو العجب مما تفعله.

الوقت المتأخر وملابسها الجريئة وأمها الغائبة ورغبتها الصامتة الصارخة أمور أرهبته. توقف بجوار الباب تاركا إياه مفتوحا على مصراعيه. لاحظ حركتها العصبية وهى تنظر إليه. فدهش وهو يتخيلها تلك الفتاة الصغيرة النحيفة التي لم تكن قد جاوزت العاشرة حين رآها أخر مرة. لقد ماتت الطفلة الخجول التي كان يمرح معها ويحملها فوق ذراعيه ويلاعبها، وولدت الأنثى التي تعبث الرغبة والمراهقة والهرمونات بجسدها بلاهوادة. وابتسم ابتسامة باهتة لا معنى لها، وقال لها محاولا أن يبدو أمامها طبيعيا لا مباليا بما تفعله:

-يبدو أننى قد أخطأت الشقة. لم تكن شقتي بمثل هذه النظافة والجمال حين غادرتها قبل ساعات. هل استعملت السحر في تنظيفها ؟

تجاهلت الرد على كلماته، وقالت ببطء دون أن تبتسم لدعابته:

-أنتظرك منذ ساعتين على الأقل. لكنك تأخر. وهاهي قداماي تؤلماني. أيروقك هذا؟

رمقها بحيرة. فما شأنها بعودته أو حتى غيابه؟. لم يشأ أن يصدها أو يبدو فظا معها، فقال وهو يجلس على الكنبة المقابلة لمقعدها الذي تجلس عليه :

-لم أكن أعلم أنك بانتظاري.إعتقدت أنكما ستنظفان الشقة ثم تغادران.

-لقد انتهينا منها منذ ساعات، وأوت أمي للفراش بعدها منهكة. لا تتخيل كم كانت متسخة. كانت كالحظائر. بالمناسبة، لقد جمعت أمي ملابسك كلها لتنظفها وتغسلها. فلا تقلق لو لم تعثر عليها. سنعيدها اليك غدا فور أن تجف.

صمتت بعدها دون أن تبعد عيناها عن عينيه قبل أن تقترب منه وتقول هامسة:

-أنتظرك لأرى إن كنت تريد شيءً ما؟.

مرة أخرى تدهشه جرأتها. كانت ترمق عيونه بعينها الواسعتان دون إن تخفضهما حياء كما ينبغي أن تفعل، فأبعد عينيه عنها وقال بشيء من البرود:

-أعتقد أنه بامكاني الاهتمام بشأني. ولو احتجت شيئا سأخبرك.

لم تهتم برده البارد وقالت:

-هل تعلم أنك قد تغيرت كثيرا عن المرةالأخيرة التي رأيتك فيها.لقد فقدت الكثير من وزنك، لكنك رغم هذا مازلت وسيما.

-كلنا يتغير يا سوسن. الزمن لا ينسى أحداً. كلنا يكبر

نهضت من مقعدها وفتر ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسنانها النضيدة البيضاء وهو تتوقف أمامه، وهتفت:

-وكيف تراني الآن ؟

لم يكن يدرى ما يقوله لها. ولا يعرف الإجابة الصحيحة التي تنتظر أن تسمعها منه الآن، فقال مجاملا :

-لقد صرت آنسة حلوةً وجميلةً بالطبع.

عادت لتجلس ثانية على مقعده بجواره هذه المرة، ومالت نحوه وهمست:

-أهذا يعنى أنني أعجبتك ؟

كان هذا أكثر مما يتخيله ويحتمله. فكر في وسيلة ما لإخراجها من بيته والتخلص من إلحاحها. كان الخجل وحده ما يمنعه من طردها خارج المنزل . فأبعد عينيه عن عينها المحدقتين فيه بإصرار ، وقال بضيق:

-ألا تعتقدين أنه ليس من اللائق أن نكون سويا في البيت في هذا الوقت المتأخر. أرى أن نؤجل حديثنا هذا للغد.

لم يبد على خلجاتها أنها قد تأثرت بدعوته المهذبة لها بمغادرة بيته، وظلت جالسة بمكانها تحدق فيه، ثم قالت مبددة الصمت الذي أظلهما للحظات، وهى تعبث بشعرها وتضم شفتيها القرمزيتان بصورة تعمدت أن تبدو مثيرة :

-لكنك لم تجب سؤالي بعد. هل رقت لكَ؟.

بدأ صبره ينفد وبدأت يده في الارتعاش توترا من عبثها وقال ببعض الحدة:

-لقد أخبرتك أنك صرت حلوة.

بدا أن جوابه لم يروقها أو يرضيها، بينما أشاح وجهه عنها ونظر إلى سقف البيت، منتظرا أن تدرك رغبته في ألا يستمر هذا الوضع طويلا. لكنها تحدثت ثانية دون أن يبدو عليها رغبة في مغادرة شقته:

-مازلت أذكر حبك ل "منى". لكنها رغم هذا لم تنتظر.

انتفض على الفور وقد اتسعت عيناه حين ذكرت "منى" أمامه. فأكملت بلهجة غريبة:

-أعلم أنها جميلة. لكنها لم تعد لك .. هل تعلم أنها قد تزوجت منذ خمسة أعوام وأن لديها طفلة الآن.

ود لو يصفعها ويطردها من المنزل وقد تمادت في تطفلها وجرأتها.. لماذا ترغب في اقتحام قدس اقداسه وتدنيسه بوقاحتها؟. شعر أن هذا هو وقت الحزم فقال بحدة وقد ارتفع صوته:

-أعتقد أنه لا شأن لك بهذا يا سوسن. كما أعتقد أن الوقت قد حان لأن تغادري منزلي. لا أحب أن يرانا أحد ما معا في وقت كهذا. من فضلك عودي لمنزلك الآن.

بادلت نظرته الغاضبة الحادة بنظرة متحدية لا مبالية، قبل أن تتنهد وتشير نحو لحيته الكثة وتقول:

-بالمناسبة احلقها من أجلي لتصير أكثر وسامة.

رمقها بسخط. ونهض متجهانحو الباب ، وهو يشير بيده نحو الخارج قائلا:

-أعتقد أن خير ما تفعليه الآن أن تغادري منزلي. مرة أخرى أشكرك على ما قمت به، ولا تنسي أن تشكري أمك من أجلي.

رمقته مبتسمة، قبل أن تنهض وتسير ببطء متمايلة وهي تتجه إليه. وما أن حاذته حتى توقفت في الفراغ الصغير الذي يفصل جسده عن الباب، فشم رائحة ندية عطره تشبه رائحة الياسمين تنبعث من جسدها، وهمست وهي تميل عليه:

-أعلم أنني قد أعجبتك. لقد رأيت هذا في عينيك رغم جفاءك وغلظتك. فضحتك عيناك أيها الوسيم.

لم يجبها وابتلع ريقه بصعوبة توترا، وحاول أن يبدو صوته متماسكا، وهو يقول لها:

-تصبحين على خير يا سوسن.

لكن صوته خرج مرتجفا ووشى باضطرابه، فابتسمت بظفر، وتألقت عيناها، وتنهدت مرسلة لأنفه أنفاسا معبقة برائحة أنوثتها الملتهبة، قبل أن تتحرك بدلال مغادرة الشقة. لم ينتظر حتى تدخل شقتها، وأغلق الباب خلفها في عنف ثم وقف خلفه يلهث. تملكه الضيق وقد أدرك أي أيام صعبة هو مقبل عليها من تلك الفتاة. ما يثير حيرته أنه لا يفهم ما الذي أعجبها فيه، وقد صار حطام إنسان. إنه في ضعف عمرها تقريبا فكيف تفكر فيه وأمامها من هم أكثر منه حياة وشبابا.

توجه الي المرآة الموجودة بحجرته ونظر فيها إلي وجهه النحيف، رمق بأسى لحيته الكثة وتوقف لبرهة أمام نظراته المتبلدة.. إنه حطام بشرى بحق. ما الذي فيه كي يروق لفتاة حلوة وصغيرة مثل سوسن.. من الطبيعي أن تنظر لشاب في مثل عمرها أو أكبر قليلا، لا أن تلاحق رجلا عمره ضعف عمرها ولا يوجد به ما يجذب أي فتاة عاقلة. حتما هي حمقاء أو مختلة لتفعل. أغمض عينيه بقوة وهز رأسه بحيرة للحظات قبل أن يفتحهما ثانية. وعلى سطح المرآة المصقولة رأى شبح أمه ينتصب بجواره تماما مبتسما. تواثب قلبه على الفور هلعا حين سمعها تقول:

-ألا ترى أنك تروقها أيها الأحمق؟. الحمقاء تحب مجنونا. أليس هذا رائعا.

أغمض عينيه على الفور وقلبه يخفق وراح يعد بعصبية من واحد حتى عشرة، وحين أنتهى عاد ليفتح عينيه. لم تكن هناك كما يحدث كل مرة .. لكنه ظل يرتجف بشدة لبعض الوقت. هل كان هذا شبح أمه حقا أم أنها الأوهام؟!.

تحرك نحو فراشه الذي عاد نظيفا، فألقى جسده عليه بإعياء دون أن يفكر في تغيير ملابسه، وعاد يفكر في حبيبته التي غادرها رغما عنه فغادرته إلى غيره للأبد. تذكر منى ونبض قلبه بقوه وذكرياتهما المشتركة التي حُفرت في أعماقه تعاوده ثانية لتلهب مشاعره..

سألته سوسن إن كان مازال يذكرها؟. وهل تراه قد نسيها يوما ليذكرها. إن سوسن ما هي إلا طفلة حمقاء تقودها مراهقتها وحمقها. إنها فتاة غريرة تجهل الحب ولا تعرف لوعته.. لو أدركت يوما ما هو الحب لما سألته سؤالها هذا..

أخبرته سوسن عن الطفلة التي أنجبتها "منى". ترى كيف تبدو تلك الفتاة، وهل تبدو كأمها أم أنها تشبه أباها الذي لا يعرفه.. راح عقله يتساءل من تراه ذلك المحظوظ الذي حظي ب"منى". نعم، إنه محظوظ بلا ريب، فلولا ما حدث له ما كان هناك أحداً يخطفها منه.. لكنه قدره وقدرها أن يفترقا ويمضي كل في طريقه.

كيف حالها الآن. وكيف تحيا مع رجل غيره. وهل مازالت تذكره؟.

فكر طويلا دون أن يظفر بالإجابات حتى غلبه النوم.

6

حمل اليوم التالي له مفاجأة لم يتخلها. لقد رآها ثانية.

رأى "منى" مرة أخرى.

كان قد خرج بعد الظهر ليحضرشيئا ما يأكله ..تحرك في راحة في الشارع الخاوي من المارة في تلك الساعة من اليوم هربا من هجير الظهيرة وقيظها. كان هذا يناسبه، وقد رغب في اتقاء لقاءات لا يرغب فيها مع جيرانه. مازال لا يجسر على النظر إلى أي من

عيونهم المتهمة، والتي لا ترى فيه إلا قاتلا عاقا لأمه. ومازال بحاجة للمزيد من الوقت كي يتأقلم على الحياة ثانية خارج المصحة.

تحرك بخطوات هادئة نحو محل البقالة في أول الشارع. لم يجد عم فتحي صاحبه هناك. كان هناك فتىً نحيفا في مقتبل عمره ذا نظرات لزجة لم يحبها. سأله أن يجلب من أجله الجبنً وبعض علب التونة والخبز، تحرك الفتى بتكاسل ليحضر له ما طلبه بينما التفت عماد نحو الشارع يتأمله بشرود.

كانت هناك بعض السيارات التي تجتاز الشارع الفارغ في سرعة غير معتادة والقليل من المارة المتحركين ببطء وإنهاك تحت شمس لا ترحم، ومن بعيد المارة رأى امرأة تتحرك نحوه.كانت تمسك بيدها طفلة لا تتعد الثالثة وقد سارت بجوارها مطرقة رأسها لأسفل، مستسلمة لكف أمها.

تعرفها منذ الوهلة الأولى، فدق قلبه وارتجف.. مازالت مشيتها المنتظمة المستقيمة كأنما تهرول كما هي، ومازالت تسير وعينها لاتفارق الطريق والرصيف أمامها، كأنما تهرب بعيونها من العالم كله..

لم يدر ما يفعله وهي تقترب حثيثا منه. ستكون بجواره بعد دقيقة على الأكثر، ومازال الفتى بالداخل يزن الجبن. فكر في أن يبتعد عن محل البقالة حتى تمر ويعود ثانية. لكن ماذا عن فتى البقالة هذا؟..ما الذي سيدور بخلده عنه حينها؟. سينعته بالجنون حتما، وربما قص ما حدث للجميع. لم يشأ أن يعقد وضعه في المكان أكثر مما هو معقد، فمكث في مكانه، وأدار ظهره للشارع حيث بلغته منى. وصله صوتها الرقيق الذي طالما أذاب قلبه وهى تحدث الطفلة وتسألها عما تريده. وسمع الصغيرة تطالبها بصوت رفيع حلو

"عصير مانجو، وشيبسى كبير، ومصاصة"..

ود لو يلتفت ليرى ابنتها. كانت لتكون ابنته هو لو لم يعانده القدر. لكن البائع الأحمق أفسد محاولته للتخفي، حين ناداه ليعطيه ما طلبه. فكر في أن يتجاهل ندائه، عسى

أن ينصرف عنه إلى "منى" وابنتها ليعطيهما ما يطلباه، ثم يعود إليه لكن الفتى لم يفعل، بل ناداه ثانية بصوت خشن يحمل الكثير من الفظاظة:

-يا أستاذ!. لماذا لا ترد؟!. ألا تسمعني؟!. لقد أعددت ما طلبته. تفضل أشيائك.

لم يكن من مفر من أن يلتفت ويرد عليه. ووجد عينيه في اللحظة التالية ترتعشان بين عينيها. هنا ارتسمت على محياها تعبيرات لا تنتمي للبشر. مزيج من الدهشة والحيرة والشوق والألم والعتاب والسرور . كل هذا بدا على وجها في حين واحد. وارتجف كفها بشدة حتى أن الطفلة البيضاء الحلوة رفعت رأسها نحوها لترى ما بها، وصاحت بحيرة :

-ماما !. ماما !.

لمعت عيناها وجرت فيهما الدموع لتنحدر منهما دمعتين حارتين ظلتا حبيستين أجفانها لأعوام طوال، بانتظار لقاءهما مرة أخرى لتتحررا. فتحت فمها لتقول شيء ما قبل أن تغلقه بسرعة ،كأنما تاهت منها الكلمات. رأى في عينيها نداءا خفيا لأن يحتضنها، أو يختطفها لتدفن في صدره مرارات سنين خلفها في نفسها الزمن. رأى كل هذا وقلبه يرتجف وفي أحشائه بركان هادر من المشاعر والأشواق يزأر ويثور. تجمد الوقت وطالت اللحظة الصامتة، وتبادلت عيونهما حديثا خفيا بث فيه كل منهما للآخر لواعج نفسه طويلا .. وحين أفاق من ذهوله كان فتى البقالة يهتف فيه بصوت أقرب إلى الصراخ :

-ماذا بك يا أستاذ؟. ألم تسمع كل هذه النداءات؟. هل تتعاطى شيئا ما ياهذا؟.

التفت إليه بلا مبالاة وتناول حاجياته المكدسة في كيس بلاستيكي وسأله ببرود:

-كم حسابك؟

-سبع وأربعون جنيها .

عاد لينظر إلى "منى" التي أطرقت رأسها نحو الأرض ثانية ومازالت ترتجف فقال دون أن يرفع عيناه عنها:

-أنظر ماذا تريد الأستاذة وطفلتها وأضفه لحسابي .

هنا كلمته للمرة الأولى. وخرجت كلماتها من حنجرتها شاحبة مرتجفة كوجهها :

-حمدا لله على سلامتك. كيف حالك ياعماد.

- أهذه ابنتك؟.

أومأت برأسها موافقة فانحنى نحو الطفلة التي رمقته بفضول. حاول أن يقبلها فرفعت رأسها لأمها بحيرة كأنما تسألها هل تسمع له بقبلة؟. لكنه قبلها رغما. كان البائع قد عاد يراقبهما بنظراته اللزجة بعد أن أحضر ما طلبته الطفلة. شعر بالإحراج فأعطاه حسابه، قبل أن يتحرك مبتعدا عن المحل برفقة منى وابنتها. وقال بصوت خافت:

-كيف حالك يا منى؟

تنهدت وهي تكتم آهة حارقة تتأجج في أعماقها، وأجابت بصوت خافت:

-الحمد لله.

-ابنتك جميلة ..إنها تشبهك كثيرا .

-أشكرك

-ما اسمها

صمتت للحظة وواصلت سيرها مطرقة دون أن تهتم بعيونه التي لاترتفعان عنها، قبل أن تقول بصوت خافت مقتضب:

-"سما"

اعترته الدهشة فجأة فتوقف في مكانه، بينما بدا عليها التوتر وقد رغبت في إنهاء حديثهما فجأة، فجذبت الفتاة بقوة لتدفعها للسير أسرع، وهي تهرول مبتعدة دون أن تودعه. ظل بمكانه في منتصف الشارع وعيناه معلقتان بها. وعادت لذاكرته تلك المرة

التي كانا فيها سويا في القلعة.. جلست يومها على سور القلعة.. ووقف قبالتها يرمقها بإعجاب دون أن يتكلم.

راحت ترمقه بسعادة وابتسامتها -التي يريحه أن يراها على ثغرها دوما- تضيء وجهها. تجمد العالم بأكمله من حولهما في تلك اللحظة. بدا وكأن أرواحهما قد فارقت هذا العالم المادي وراحت ترقص وتغنى في عوالم من جنان وحب. لم يعد الصخب الدائر حولهما مسموعا وغابت الموجودات عن عيونهما وتاهت عقولهما في نشيدها الساحر عن العشق وجنونه وأحواله.. ثم جذبته ثانية لعالمها وتكلمت :

-فيما تفكر؟.

-أفكر في أنجب منك ثلاث زهرات يكن جميعا مثلك.

-ولماذا ثلاثة فقط.. ليكونوا عشرا.. ثلاث زهرات مثلى وسبع أقمار كأبيهم .

-أنت تبالغين. وهل تقدرين على إنجاب عشرة؟.

هزت رأسها ببطء نافية المبالغة عن نفسها ومالت نحوه هامسة بصوت مثير:

-إذا ليكونوا ثلاثة عشر مادمت لا تصدق ..ثلاث زهرات، وأقمار عشر .. أمازلت تراني أبالغ؟..لو قلتها ثانية، سيصيرون خمسة عشر في المرة القادمة.. إنني لا أمزح، ولاتنس أنك ستكون مطالبا باطعامهم وتعليمهم.

وضحكت بفرح طفولي ورقة، فصرخ دون أن يعبأ بمن إلتفتوا إليه وقد جذبهم صوته المرتفع :

-ليكونوا مائة إذا. لكن عديني بالزهرات الثلاث في البداية ثم أنجبى ما شئت.

-إذا سوف أفعل. لكن ماذا ستسميهن؟. هل تفكر باسم ما؟..

أغمض عينيه مفكرا وقال مبتسماً:

الكبرى سكون سما. والوسطى جنا، والأخيرة هي حلا. ما رأيك ؟

ازدهرت ابتسامتها وأغمضت عينيها باشتياق، و رددت هامسة:

-سما. حلا. جنا. ليكونوا كذلك. لقد اتفقنا.

ودوى من خلفه نفير سيارة يعترض طريقها، فانتبه وتحرك مبتعدا عن الطريق. لقد كانت الأولى لها هي "سما" كما خططا معا من قبل. أمازالت تذكره وتحبه حتى تسمى طفلتها الأولى، بالاسم الذي اختاره لها من قبل. حدثه قلبه أنها مازالت تهيم به وتذكره. لو لم تكن كذلك، فلماذا هربت فجأة منه بعد أن أخبرته اسم الطفلة.

وصل للبيت الذي يقطن فيه وصعد الدرج ليجد سوسن على باب شقتها بانتظاره فتنهد بضيق وغمغم في سره "ليس ثانية !". ابتسم له وهي تلوك علكة، وقد ارتدت هذه المرة بنطلونا أخضرا ضيقا، وبلوزة زهرية قصيرة ضيقة أبرزت صدرها. بلغ باب شقته فتحركت نحوه فبادرها بجفاء:

-كيف حالك يا سوسن، وكيف حال أمك؟

-بخير كما ترى. أعددت الطعام من أجلك ورأيت أن أنتظرك. دقيقه واحدة وسأجلبه لك من الداخل.

-لا داعي لهذا لقد جلبت الطعام معي..أشكرك

لكنها لم تلتفت لاعتراضه واختفت في شقتها قبل أن تعود حاملة صينية عليها أطباق مغطاة. فتح باب شقته باستسلام فسبقته للداخل ووضعت الطعام على طاولة بالصالة يستعملها كمائدة، بينما ظل هو واقفا أمام الباب منتظرا أن تغادر منزله فعادت إليه وقالت بدلال:

-ما رأيك لو نأكل سويا ..هذا سينعش شهيتك.

-أتمنى لو كنت أستطيع. لكنني لا أشعر بالجوع الآن. ربما نتناول الطعام سويا في المرة القادمة.

تنهدت بضيق قبل أن تتحرك نحو الباب وغمغمت بصوت خافت:

-كما تحب. لقد كان مجرد اقتراح.

ثم غادرت المنزل فتنهد بارتياح وجلس على مقعد مجاور للطاولة التي عليها الطعام وعاد يفكر في "منى" ثانية. مضى وقت طويل وهو يجتر ذكرياته معها قبل أن ينتبه إلى شيء ما يحدث من حوله بالشقة. كانت حجرة أمه مفتوحة الباب ومضاءة. لم يكن قد دخلها منذ عاد للشقة ولم يكن ليفعل. إذا من فتح بابها وأضاء مصباحها. تحرك نحوها ليطفأ نورها ويغلق الباب وهو يغالب توتره. دلفها بتردد متحاشيا النظر إليها ومد ذراعه نحو الحائط المجاور للباب باحثا عن مفتاح الكهرباء. ثم ضغط عليه فساد الظلام وهم بإغلاق الباب حين رأى الشيء المتوهج على الحائط خلف فراش أمه ..

كانت هناك كتابات تتوهج بلهيب جهنمى..

"سوف أعود"

وأسفلها إشتعل ذلك الرمز الذي بدا به كل شيء ..

الثعبان الناري الملتف حول نفسه والذي تتوسطه جمجمة تشتعل عيناها وعلى جانبي رأسها قرنان قصيران .

أظلمت الدنيا في عينيه، وعجزت قدماه عن حمله فسقط أرضا.. لكنه لم يفقد وعيه فتحامل على الباب لينهض ويبتعد . ثم أغلق الباب خلفه، دون أن ينظر للحجرة مرة آخرى. وتناهت لأذنه تلك الضحكة المخيفة التي ترددت خلف الباب المغلق ..

،راح يلهث، وهو يندفع إلى حجرته باحثا عن دواءه ثانية ليرد به تلك الأوهام .. ويردد بلا انقطاع وجنون

"أوهام لعينة. إنها كذلك. كل هذا ضلالات وهلوسة."

وابتلع الأقراص بارتباك دون ماء، ثم انهار بجوار الفراش مغمضا عينيه في انتظار الدوار الخفيف الذي تحدثه العقاقير .

غابت منى وماتت سوسن من عقله وعادت الأحداث المشئومة لتطفو على سطح عقله ثانية. ودون أن يشعر بنفسه راح ينتحب

7

أفاق في المساء و منى تداعب أحلامه. راح يتذكر الطفلة الصغيرة بحيرتها ونظراتها البريئة وقد شعر أنها تنتمي إليه. كانت لتكون طفلته لو لم يعانده القدر. اعتصره الألم فتحرك نحو النافذة ونظر للأفق المظلم في شرود وسأل نفسه. ما الذي اقترفه في حياته كي يفقد كل شيء. أمه التي قتلت، وأخته التي هجرته، وحبيبته التي تزوجت غيره. والسنوات السبع التي قضاها حبيس الصحة النفسية، ومستقبله الذي ضاع. أي عدالة تلك في ما يحدث له؟ وكيف يمكن للأيام أن تعوضه عن خسارته تلك. تعالى احساسه بالضياع. وضاقت انفاسه، فاتصل بممدوح وأخبره أن يقابله في القهوة.

وفي القهوة راى عماد هذه المرة الحاج "فرغلي" صاحب المقهى فحياه الرجل بحرارة واحتضنه وقبله، وهنأه على خروجه من المستشفى. مضت لحظات من الكلمات المرحبة الحارة قبل أن تفتر حدة الترحاب ويرحل الرجل. رغب عماد في معرفة المزيد عن "مني" فأخبر ممدوح بما جرى بينها في منتصف اليوم. هنا ذعر ممدوح فجأة وأخرج لي الشيشة من فمه، وبدا الانزعاج على وجهه، ثم صاح فيه :

-أي حمق هذا الذي فعلته يا رجل. يبدو أنك فقدت عقلك بالفعل في تلك المصحة اللعينة. أنت مجنون بلاشك.

لم يفهم عماد لماذا غضب هكذا وأي جنون في ما فعله، فقال بتعجب:

-وماذا فعلت لأصير بالجنون ؟

-لقد تحدثت معها في الشارع أمام الناس جميعا. هذا يكفى وزيادة لتكون مجنونا.

-وماذا في هذا ؟.. طالما وقفنا سويا من قبل ولم يعقب أحد .

-كان هذا قبل أن تتزوج. لكنها الآن قد تزوجت. وليت زوجها كان شخصا عاديا. إنه محمد عصام.

شعر عماد أن الاسم مألوفا له. وأنه يعرف صاحبه. اجتهد في تذكره للحظات قبل أن تسعفه ذاكرته فتّعرفه. هنا اتسعت عيناه باستنكار حقيقي ووجد نفسه يهتف دون أن يشعر بصوته المرتفع :

-محمد عصام هو زوج منى. مستحيل!. محمد عصام؟!. ذلك المخنث. إنه أتفه شاب عرفته في حياتي !. هل هو من تزوجته "مني" .. لا ريب أنك تمزح .

لدهشته رأى كيف اتسعت عينا ممدوح ذعرا، وراح يتلفت برأسه بسرعة وقلق ليرى إن كان أحد ما قد انتبه لما يقولانه أم لا ..قبل أن يميل نحوه ويهمس بحنق:

-اخفض صوتك أيها الأحمق. سوف تجلب لنا المتاعب بصوتك هذا. لقد تغير محمد عصام ولم يعد ذلك المخنث التافه الذي كانه. لقد صار أحد أكبر تجار المخدرات في المنطقة وله أتباع وأعوان وشركاء. إنه آخر من ترغب في عداءه الآن.

تجددت الدهشة في نفس عماد، وهو لا يتخيل أن يتحول محمد عصام الذي لم يعرفه إلا هشا ناعما كالفتيات، إلى تاجر مخدرات وزعيم عصابة إجرامية. كان هذا أكبر من قدرته على التصديق. مازال يذكر كيف كاد أن يفتك به يوما حين شاهده وهو يعاكس منى ويضايقها. توالت حينها صفعاته على وجه محمد وراح يقذفه يمينا ويسارا ويتناقله بين أقدامه كالكرة دون أن يقدر حينها على الدفاع عن نفسه. يومها راح محمد عصام يصرخ مستغيثا وهو يكرر قسمه أنه لن يفعلها ثانية. والآن يخبره ممدوح أنه احترف الإجرام، بل وتزوج "منى" التي كانت تمتعض من نعومته ولزوجته فيما مضى. ما الذي جرى في العالم في غيابه، وهل جن الجميع ليحدث كل هذا؟ . لم يبق غير أن تأتى الشمس من مغربها ليكتمل التحول. وبالرغم من ذعر ممدوح الحقيقي الذي ينبئه أن ما يقصه حقيقة لا إختلاق فيها إلا أن عقله أبى التصديق، وسأل ممدوح بصوت مخنوق :

- أخبرني بكل شيء. كيف تحول محمد عصام للإجرام، وكيف تزوج "منى" وكيف وافقت هي بالزواج منه. ما تقصه يدفعني للجنون.

أعاد ممدوح الشيشة لفمه والتقط منها أنفاسا طويلة، متجاهلا عماد الذي يرمقه بانتظار أن يتكلم، وعقله يفتش عن الكلمات المناسبة حتى عثر عليها، حينها عاد للحديث:

-لقد تزوجها بعد شهور من القبض عليك وذهابك للمصحة. تقدم لخطبتها فرفضته، بل وطردته حينها من منزل أبيها. لكنه كان لحوحا فكرر محاولته فُرفض، ثم عاد مرة ثالثة ورفض مرة أخرى. لم يكن وحده منّ تقدم لخطبتها، كان هناك آخرون بالطبع، لكنها رفضت الجميع بإصرار حتى بدا أنها لن تقبل أحد أبدا ..

بالطبع كان الكل هاهنا يعلم حكايتكما. تفهم هذا البعض واستنكره البعض الآخر. لكن أهلها لم يدعوها. ضغطوا عليها وبوسيلة ما أجبروها على الموافقة على "محمد" حين تقدم المرة الرابعة، وقد وعد أهلها بالمهر الكبير والمؤخر الضخم، وأغدق عليهم بأمواله التي ورثها عن أبيه. لا أحد يعلم كيف وافقت "منى" عليه هذه المرة، لكننا فوجئنا بزواجهما بعد خطبة قصيرة لم تتعد الشهر ..

لم يصدق ما يسمعه.أي شيطان هذا يدفعها للزواج من هذا اللعين. غاب عن عالعالم للحظات ثم عاد ثانية لينتبه إلى كلمات ممدوح الذي مازال يتحدث :

-لم يكن محمد سعيدا في زواجه من "منى" كما يبدو. كلنا سمع بهذا وأكثرنا توقع أمر كهذا، هنا راح حاله يتغير . احترف شرب الخمر والحشيش والأقراص المخدرة وتمادى في غيه فمارس القمار وراح يتعقب فتيات الليل، ليفقد في شهور معدودة كل ما كان يملكه.حدث كل هذا والمسكينة صابرة عليه كما يبدو. راح يسئ معاملتها رغم أنها قد أنجبت منه طفلتها. سلبها حينها كل ذهبها وأموالها بل وباع بعض أثاث المنزل أيضا من أجل القمار الذي ذهب كما يبدو بعقله قبل أن يذهب بأمواله.

كانت "منى" تحتج بالطبع أحيانا على تصرفاته، حينها كان يضربها حتى تفقد وعيها. كلنا شهد هذا. بل وصل الأمر به إلى طردها يوما من المنزل بعد منتصف الليل بعد أن ضربها بملابس النوم. أعتقد أنه كان مخمورا أو مغيبا تحت تأثير العقاقير المخدرة التي أدمنها، حين فعل هذا.

واعتمل في نفس عماد الغضب وثار كيانه كالبركان، وهو يتخيل كل ما حدث لمنى. هاله أن يعتدي عليها ذلك الجبان بالضرب، بل ويطردها في منتصف الليل عارية بملابس نومها، لتنهشها العيون ويشمت فيها الشامتون ..فهتف بغضب وهو يضرب المنضدة الخشبية بقبضته في حنق:

-ذلك الوغد الحقير ..لو حضرت هذا لقتلته بيدي..

أوما ممدوح برأسه موافقا وأكمل بعد نفس أخر من الدخان:

-أوافقك تماما انه وغد حقير. لن تجد من يعترض على وصفك له هكذا. لكن أن تقتله بيدك الآن فهذا أمر مشكوك فيه. المهم أن "منى" طلبت الطلاق بعدها لكنه لم يوافق ونجح بحيلة ما في اعادتها لبيته. ثم قامت الثورة وأنعدم الأمن كما أخبرتك. حينها تناهى لأسماعنا أنه بدأ في الإتجار بالمخدرات على نطاق محدود في البداية، قبل أن يشتهر أمره وتتسع تجارته ويلتف حوله أعوان وأتباع غالبيتهم من المراهقين. هنا صار رجلا آخرا. شخص لا قلب له ولايهاب شيئا حتى أنه فتك بالكثيرين. هل تذكر صلاح الجن؟.. ذلك الفتى الأشقر الذي كان يمتلك ورشة للسيارت في أول الشارع . لقد هجر ذلك الأحمق عمله وانضم إلى محمد عصام وعصابته، ويبدو أنهم اختلفوا لأمر ما من أعمالهم المشبوهة، وفوجئنا ذات صباح بجثة صلاح عارية مذبوحة، وقد علقت من أرجلها فوق أحد الجدران بالقرب من بيته.

-وكان محمد عصام من فعل هذا به؟

- الكل يعلم أن محمد هو من فعلها، لكن لا أحد كان يجسر على اتهامه. الكل يهابه ولا أحد يبغى عداوته. لقد اختلف منذ شهور مع أحد السكان الجدد بالمنطقة وكان

يدعى رزق.. كان شجارا تافها في الواقع. ركن رزق هذا سيارته محل سيارة محمد عصام. فما كان من الأخير الا أن أمر أحد صبيته بتمزيق إطارات السيارة لرزق . اشتعل الأخير غضبا وقرر الانتقام .وفي ظلام الليل فعل بسيارة محمد ما فُعل بسيارته. في اليوم التالي أختطف أعوان محمد ابن زرق الصغير من حضانته، وطالبوا أبيه بفدية ضخمة، اضطر رزق أن يبيع سيارته كي يكملها. ثم أعادوا إليه ابنه بعد دفع الفدية وبعدها غادر المكان كله مذعورا وانتقل لمكان آخر.

لقد توحش الرجل بحق، فكر عماد بتعجب. لا يدري كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا وكيف تتغير شخصية المرء للنقيض تماماً. شعر أن ممدوح يحدثه عن رجل لا يعرفه. لكنه وبينما ينظر للفراغ بشرود عاد ليفكر في "منى" ثانية..

-وأين "منى" في كل هذا؟.. لماذا لم تردعه أو تمنعه عما يفعله؟ .

-لقد طلبت الطلاق مرارا. بل وغادرت منزله لمنزل أبيها مرات كثيرة. لكنها كانت تعود في كل مرة. أعتقد أنه يهددها أو يهدد أبيها، ولهذا ترضخ له.

خيم الصمت بعدها عليهما، وقد فهم عماد لماذا اتهمه ممدوح بالجنون حين حدث "منى" ظهر اليوم. لابد أنه قد خاف عليه وخشي عاقبة أمر كهذا. ربما خشي أن يدفع محمد أحد أعوانه للتحرش به.. لم يكن في الواقع يخشى أي شيء أو يهتم بعواقب أي حماقة.. إنه شخص فقد كل ما يحبه، فما الذي يخاف عليه غير حياته المليئة بالآلام والأوجاع ..

قرر أن يلتقيها ثانية مهما كلفه الأمر. يجب أن تخبره بالذي لا يعلمه. يجب أن يعرف كيف تطيق الحياة مع شخص مثل زوجها هذا. يجب أن يعلم منها لماذا قبلت بالزواج منه.

وفي اليوم التالي انتظرها أمام المدرسة التي تعمل بها. وبعد حين تهادت أمام عينيه مقبلة من باب المدرسة. انتبهت له فوجلت للحظة وبان التردد عليها قبل أن تتحرك نحوه ببطء وقد احتقن وجهها. وصلت له ومدت نحوه يداً طالما احتضنها وقبلها. سلم

عليها وهو يود احتضانها، فرأى كيف ترتعش أناملها بين كفيه. لم يكن هناك وقت للمقدمات. وقال لها معاتبا :

-ما الذي فعلته بنفسك يا "منى" ؟ . اى أتون هذا الذي ألقيت نفسك في باطنه ؟. محمد عصام؟!. ألم يمكنك أن تختاري غيره؟!.

انحدرت الدمعات الساخنة المقهورة على صفحة وجه رائق، وهي تتحرك بجواره مطرقة برأسها بهوان، ومن فمها خرجت الكلمات اليائسة المذعورة:

-لقد قاومت كثيرا. قاومت أكثر مما تظن. لكنهم لم يتركوني وشأني، ظلوا يلحون بل ويعتدون بالضرب علي. هنا قررت أن أختار محمد عصام دون غيره . أتدرى لماذا؟.

التفت إليها وهز رأسه ببطء منتظرا إجابتها، فأكملت بابتسامة باهته:

-لأنه الوحيد الذي لم أحبه أبداً ولن افعل أبداً. اخترته لأني كنت أمتعض منه وأكرهه. لقد قررت ألا يكون هناك من أحد آخر في قلبي غيرك فاخترته .. خشيت أن أتزوج من قد ينافسك على قلبي أو اهتمامي .

وصمتت بعدها قبل أن يفاجئ بها وهي تطلق ضحكة غريبة لا تنتمي إليها، ولم يسمعها من قبل. ضحكة تحمل مزيج عبقري من السخرية والمرارة واليأس.، وأكملت بمرارة :

-لم أكن أدرى أنه سيصير بعد حين ما صار إليه . هل عملت كيف أصبح محمد الآن؟ . إنه زعيم عصابة حقيقية. عصابة من تلك التي تراها في الأفلام والمسلسلات. هل تصدق . محمد عصام الذي كنا نسخر منه أصبح مجرماً .

كانت مرارتها تذيب الأمل وتعكر صفو صباح مشرق. لم يدر كيف يواسيها ويخفف عنها. تمنى لو يضمها إليه، فجاهد نفسه كي لا يفعل. ثم وجد نفسه يسألها :

-علمت أنه يعتدي عليك بالضرب؟..

توقفت بغتة وألتفت إليه بجسدها كله، حتى أن بعض المارة لاحظوا هذا، وبدت على شفتيها ابتسامة ساخرة و هتفت بتعجب :

-يضربني ؟!. إنه يحسن معاملتي حين يكتفي بضربي. لقد صار الضرب رفاهية أمام ما يفعله معي الآن. أنت لا تعلم كيف يمكنك أن تعيش في فزع في كل لحظة من عمرك. أن تستيقظ فجأة وأنت لاتدري اين ستسقط الضربة التاليةعلى جسدك.. أن تنظر إلى كل سيجارة متوهجة وأنت لا تدري هل سيكتفي بإطفائها في المنفضة أم سيطفئها على جسدك.

تلاحقت بعدها أنفاسه عجزا وقهراً. فتأججت كراهيته نحو رجل صار وحشاً ينهش في حبيبته، تمنى لو يقدر على الانتقام . تمنى لو يفعل به ما يفعله ب "منى".

وعادت منى ثانية لحديثها وشكواها :

-أحس أحيانا أنه قد صار وحشا بسببي. أشعر أنه أصبح هكذا لرفضي له وكراهيتي لضعفه الذي تزوجته من أجلها. أعتقد أنه يريد أن يخبرني بما يفعله أنه قوى. أنه رجل آخر غير الذي أتخيله وأعرفه.

وأظلهما الصمت ثانية وعادا للتحرك . كانا معا لكنه شعر بداخله كم تغيرت وكم صارت منى أخرى غير التي يعرفها. ذهبت البراءة التي طالما غلفتها وجاءت المرارة والحنق والإحباط. راحت الضحكة الساحرة لتأتى الضحكة المريرة الساخرة. ماتت منى الحالمة وولدت منى الحانقة. شعر بالضعف فسألها:

-وما الذي تنوين فعله الآن؟..

-هل تقترح علي شيء ما ؟. إنني انتظرك لتخبرني ما الذي علي أن أفعله . انتظرتك كل هذه الأعوام لتخرجني من هذا الجحيم وتحررني. انتظرتك لتنهى حيرتي وآلامي. فهل تفعل هذا يا عماد؟..

وشعر بالعجز أمامها لأول مرة في حياته.. هاهي منى الضعيفة تأتيه طالبة حمايته وأحضانه. فهل عاد قادرا أن يلبى رغباتها وآمالها؟. وقال بخفوت مقترحاً:

-يمكنك أن تطلبي الطلاق.

-انتظرت أن تخبرني بحل آخر يا عماد غير هذا. إنني لم أكف يوما عن طلبه. لكنه دوما يرفض. إنه لن يطلقني يا عماد. إنني نقطة ضعفه الوحيدة والكائن الوحيد الذي يشعره بضعفه وقلة حيلته. لن يتركني أبدا إلا حين ينتهي مني تماما.

-لكنك لن تعيشي معه رغما عنك. لن يستطيع أن يجبرك أن تفعلي.

-يمكنني أن اهجره . أن اهرب بعيدا عنه في مكان لا يصل فيه إلي. لكن ماذا عن أهلي الذي يهددني بهم. ماذا عن ابنتي التي يهددني بحرماني منها لو تمسكت بالطلاق. ماذا عن زوجي المفترض بعدها والذي أقسم لي أن يقتله لو فعلت. أنت لا تعلم ما صار إليه محمد الآن. لقد صارا وحشا ولا أحد صار قادراً على ردعه.

تصاعد الغضب والحنق بأعماقه وود لو يقابله الآن ليقتص منه، تمنى لو يراه لينتقم منه وليثبت ل "منى" أنه مازال قادرا على الذود عنها وحمايتها حتى لو كان في هذا هلاكه. رمقها وشفتيه ترجفان توترا وغضبا وهتف بغضب:

-إذا سأقتله . لو لم يكن هناك حل أخر فسوف أقتله ..

كان صوته عاليا صاخبا جذب الأنظار إليه، فالتفت إليه بعض المارة ورمقوه بدهشة. لكنه تجاهلهم وأسرع مبتعدا مع منى التي أدهشتها كلماته لكنها لم تعقب. وما أن وصلوا إلي مفترق الطريق الرئيسي، حتى توقفت وظهرت على وجهها الضحكة المريرة ثانية، وقالت بإحباط:

-حاول أن تنساني وعش حياتك يا عماد. دعني لقدري ولمصيري، وأبدأ أنت حياةً جديدة . أنت لم تخرج من جريمة قتل لتقتل آخر. لن يسعدني أبدا أن أراك تسجن ثانية أو تعدم من أجلى. أخرجني من حياتك لو كنت مازلت بها وابحث عن أخرى.

-إنني أحبك، ولن أبتعد.

- وما جدوى الحب مع العجز .. وما جدوى الحب بغير أمل إلا العذاب والموت احتراقا. حاول أن تنساني لو كنت تحبني حقا. إن هذا أفضل لكلينا.

- صدقيني حتى لو وعدتك أن أبتعد فلن أفعل. لن أفقدك ثانية.متي يمكنني أن ألقاك ثانية يا منى. هناك ما أريد أن أحدثك به.

احتفظت بابتسامتها المريرة، وهزت رأسها بأسف، وقالت:

-لن يحدث هذا ثانية ..لقد حدثتك اليوم لأنني كنت بحاجة لهذا. علمت منذ الأمس أنك ستنتظرني اليوم، وقد فعلت ما توقعته. لكن هذه هي المرة الأخيرة التي أفعل فيها شيئا كهذا. لن نلتقي ثانية يا عماد. إن هذه رغبتي فعدني أن تلبها كما كنت تفعل دائما. عدني أرجوك أن تفعل إن كنت تحبني.

راحت ترمقه بثبات وحزم لم يعرفه في عيونها. أراد أن يرفض ما طلبته منه فلم يقدر . أراد أن يطالبها بالهرب معه فعجز عن طلب هذا. أراد أن يختطفها ويهرب إلي مكان ناء فلم يعرف كيف يفعل. وجد نفسه يهز رأسه للأسفل ويتمتم بعجز:

-أعدك أن أفعل.

هنا عادت لوجهها الابتسامة القديمة الحلوة التي طالما انتظرها وعشقها..وجدها تقول له بشوق وحب:

-عماد.. اهتم بنفسك من أجلي

قالتها وابتعدت عنه على الفور دون أن تنتظر رده. وظل بمكانه يرمقها حتى اختفت من أمام بصره.

8

لم تسامح ابتسام أبدا عماد في ما فعله مع أمهما..حملته الذنب كاملا ولم تصدق ما ادعاه لها عن اللعنة التي أصابت أمه وانتهت بقتلها. اعتزلته ولم تزره مرة واحدة في المصحة أو السجن من قبلها. كانت حينها مسافرة مع زوجها العجوز الذي يعمل طبيبا لأمراض الكلى في الكويت. وكانت هي الأخرى تعمل كمدرسة هناك للعلوم. مرض زوجها وشعر أنه لم يعد قادرا على احتمال تلك الغربة أكثر مما فعل فحزما أمتعتهما وودعا

الكويت للأبد، ثم عادا للقاهرة ليستقرا فيها هذه المرة. افتتح زوجها مركز طبي صغير ليعمل به. وعادت لتعمل في مدرستها القديمة ثانية.

قرر عماد أن يزورها وقد اشتاق إليها. ظن أنها لو رأته أو جلس معها وحكى لها ما جرى فقد تصدقه وتسامحه. كانت تسكن في المهندسين فذهب إليها في المساء. صعد إلى شقتها، وأمام باب شقتها توقف للحظات ليلتقط أنفاسا مضطربه. فكر في التراجع وهو لا يدرى كيف ستقابله وهل ستعطيه الفرصة كي يتحدث أم تطرده. غالب حيرته ودق جرس البيت . مضت دقيقة قبل أن يُفتح الباب. رأى إمامه طفلا في الخامسة من عمره.كان عماد الصغير الذي أسمته على اسمه، كان قد علم بهذا من أم محسن. أراد أن يحتضنه لكن نظرات الطفل الحائرة صدته فقال باسما :

-هل ماما بالداخل يا حبيبي؟.

أومأ عماد الصغير برأسه وقال بلهجة طفولية ثقيلة بعض الشيء:

-نعم. لكن من أنت؟. وماذا تريد؟

-أخبرها أن خالك عماد ينتظرها بالخارج.

رمقه الطفل بحيرة للحظة ، قبل أن يغيب عن بصره داخل البيت .ومضت دقيقة مليئة بالترقب قبل أن تظهر أخته وهي تتحرك نحوه بخطوات حازمة أربكته. كانت ملامحها جامدة قاسية ولم يرى في وجهها ما ينم عن اللهفة أو الشوق له. أراد أن يقول لها أي شيء لكنها كانت من بادره بالكلام. وقالت له بجفاف وكأنها لا تعرفه :

-ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وما الذي تريده مني؟..

كانت كلماتها قاسية لاذعة فأربكته. وقال بصوت متوتر محاولا الحفاظ على ابتسامة تتأرجح على شفتيه وتغالبه في الذبول:

-كيف حالك يا ابتسام ؟

-إنني بخير كما ترى.. لو كان هذا ما ترغب في معرفته فلقد عرفته، هل من شيء آخر أقدمه من أجلك .

راحت كلماتها تمزقه، ولم يصدق أبدا أن من أمامه هي أخته التي طالما أحبته، وطالما كانت حانية عليه. لكنه أصر على استمرار محاولته معها وقال لها محاولا التودد :

-ألن تدعوني للدخول بدلا من الحديث على الباب هكذا . إنني مازلت أخوك وليس عيبا أن تدعوني للداخل.

-ولماذا تدخل؟!. أعتقد أنه لا شيء يجمعنا لنتحدث عنه. لو كان لديك ما ترغب في قوله يمكنك أن تقوله من مكانك هذا. أخبرني بما تريد قوله، ولكن بسرعة من فضلك، فهناك ما أقوم به الآن.

تطله إليهما عماد الصغير بدهشة وحيرة، وعيناه تتنقلان بين خاله النحيف وأمه الصارمة الحادة. أراد أن يسألها من هذا ليتأكد أنه خاله بالفعل. لكنه خشي عصبيتها وخاف أن تزجره. في تلك اللحظة تحدث خاله ثانية برجاء :

-لا أدرى كيف تعاملينني هكذا. لم آت إلى هنا لأطلب منك شيئا. أتيت لأطمئن عليك وأراك وأرى ابنك. إنني خال الطفل وأخوك.

هنا بدأ صوتها يعلو وبدأ القناع الزائف الجامد التي اجتهدت لترسمه على وجهها في الانهيار وهتفت به :

-كنت أخي. لكنك الآن قد انتهيت من حياتي. لا أردى كيف تريد أن أعاملك، وقد قتلت أمنا. قتلتها وهى التي لم تسئ لأينا قط. هل تنتظر منى أن أقبّلك وأن أحتضنك بعد ما فعلته، وهل تريد منى أن أهمس في أذنك أنني سامحتك على ما فعلته. أنت واهم لو اعتقدت هذا. أتمنى أن تدرك أنه حين ماتت أمنا لم تمت بمفردها. لقد مات معها أخي الذي كنت أعرفه. هل تفهم هذا معنى كلماتي. لم تعد أخي لأن أخي الذي أعرفه قد مات.

وتاهت الكلمات عن لسانه فصمت، وبدأت يده في الارتجاف ثانية ودموع حائرة تجاهد عينيه كي تندفع للخارج. بينما أشاحت ابتسام بعينيها بعيدا عنه للحظات قبل أن تحزم أمرها فتدفع ابنها للداخل، وتغلق الباب في وجه أخيها دون كلام..

وأمام الباب المغلق كالصنم تجمد عماد مذهولاً مما فعلته أخته ومما قالته له. كان قد توقع شيئا مماثلا من أخته واستعد نفسيا لمعاملتها الجافة له، إلا أنه عجز عن احتمال الغصة التي تخنق حلقه. ظل بمكانه خلف باباها المغلق لدقائق وحبس أنفاسه فبدأ كصنم متحجر. ولم ترحمه الهمسات فأسرعت لتطارده في تلك اللحظة وعادت لأذنه ثانية. لم تكن خافتة رتيبة كما يحدث كل مرة، بل كانت قوية صاخبة ومزعجة، وترددت بينها عشرات الضحكات الساخرة. صم أذنيه بكفيه وتقلص وجهه بألم لكن الهمسات لم تكف، وسمع بعدها صوت أمه من بين الهمسات المخيفة يهتف ساخرا ..

-لقد طردتك من عالمها أيها البائس. ألا ترى إنها لن تسامحك أبدا.

ولم يعد يحتمل فصرخ محتدا غاضبا ناقما على الحياة كلها:

_ اتركيني وشأني.. ما الذي تبغيه مني؟.. ابتعدي عني!.. عليك اللعنة. عليكم اللعنة جميعا

ترددت صرخاته على الجداران حاملة معها ألمه وغضبه.. ثم راح بعدها يعدو مغادرا العمارة كأنما يفر من شيطان رجيم.

وانهارت ابتسام خلف الباب الذي أغلقته وراحت تنتحب.. لم تصدق ما قالته لأخيها وما فعلته. وهالها ما وصل إليه أخوها من هزال وضعف وبؤس. تمنت لو استطاعت أن تحضنه وتطمئنه. لكن أمها المقتولة كانت دوما بينهما. وصلها صراخه خلف الباب فكادت أن تثب للخارج لتحضنه وتطمئنه وتعتذر له. لكنها لم تفعل وكم تمنت بعدها لو فعلت.

ذهبت لحجرتها وظلت تبكي وتنتحب لساعات حتى أتى زوجها عبد المنعم. كان في السادسة والستين من عمره. أخبرته بكل شيء. وبين أحضانه عادت لتبكي ثانية.

****

9

مضت الأيام كئيبة، متشابهة، ومملة. لم يرى "منى" ثانية. لكنه لم يكف لحظة عن التفكير بها. رأى زوجها يوما يمر بسيارته الجيب الفخمة بجوار الكافيه الذي اعتاد أن يجلس عليه مع ممدوح كل ليلة. تبادلا سويا حينها نظرات حادة تعبق بالكراهية والتحدي. واعترف عماد في قرارة نفسه أن شيئا ما قد تبدل في محمد عصام، وأن تلك النظرة الواهنة المائعة التي اعتاد أن يراها في عينيه قد اختفت وحل محلها نظرة شرسة شريرة. شعر أن محمد عصام يهدده بنظراته، وأنه يرسل له تحذيرا خفيا أن يبتعد عن منى وإلا ..

كذلك ازدادت المحاولات التي تبذلها سوسن حثيثا لإغوائه. لم يفهم أي شيطان هذا الذي يحركها. إن كانت ترغب في أن يحبها ويتزوجها بمحاولاتها الخرقاء هذه، فهي حمقاء بلا شك. وإن كانت ترغب في علاقة عابرة تستمتع خلالها به، فليس هو من يفعل هذا، وحتى لو شاء أن يفعل فلن تكون هي من يتورط معها في أمر كهذا..

عاد لبيته يوما بعد منتصف الليل ليجدها بانتظاره. خرجت إليه فور أن صعد الدرج، ونادته من خلفه هامسة فانتفض فزعا. أراد أن يسبها و يزجرها، لكنه صدم بما رآه. كانت ترتدي (شورتا) ضيقا قصيرا و(توب) ضيق قصير انحسر عن بطنها باغراء لاحد له. وأطلقت شعرها خلف رأسها ثائرا بلا قيد فبدت كالحوريات..

كانت فاتنة بلا شك، ولم ينكر هذا يوما ما..

راقبت بأنفاس ملتهبة كيف ينظر إليها بعيون جائعة نهمة. لكنه عاد وتمالك نفسه بعد حين، وأولاها ظهره، ثم اتجه نحو شقته ليدخلها، متنهدا بصمت وإثارة. لكنها لم تدعه وأسرعت فدخلت خلفه، وهمست من خلف أذنه بصوت يعبق بالإثارة:

-والآن ما رأيك؟. وكيف تراني اليوم؟.. أمازلت الطفلة الصغيرة التي كنت تلاعبها وتجلب لها الحلوى حين مضى ..

اشتعلت في جسده نيران لا تُطفأ. وانهارت سدود مقاومته مع همساتها الملتهبة، ولمسات أناملها الرقيقة على كتفه.. وأدرك ما سيحدث في اللحظات التالية ففعل أخر ما يتوقعه هو أو هي. دفعها مرة واحدة خارج الشقة، ثم أغلق الباب خلفها في حدة وعنف، ثم أسند ظهره للباب وراح يلهث محاولا جمع شتات نفسه ثانية..

ظن أن هذا كافيا لتنصرف عنه، لكنها لم تفعل. ومر يومان قبل أن يجد من يطرق باب بيته بعد الظهيرة. فتح الباب ليجدها أمامه. كانت تحمل طعاما في صينيه زرقاء وهي تبتسم ببراءة كأن شيئا لم يحدث. أراد أن يشكرها بجفاء، وأن يخبرها أنه لا حاجة به لهذا الطعام، لكنها دفعته في صدره بكوعها ودلفت الشقة لتضع الطعام على الطاولة الخشبية، ثم دارت بوجهها نحوه.. حاول أن يبعد عينيه عنها، وعن ملابسها الضيقة التي توشك أن تتمزق لتكشف عن مفاتن لا تقاوم. حاول ألا ينظر إلى عينيها النجلاوين اللتين أحاطتهما بالكحل ببراعة فلم يقدر. تصنعت الخصام وقالت له مقطبة :

-ما الذي فعلته أول أمس ؟..

شعر بالحيرة من غضبها المزعوم. لولا ما قام به لانتهك عذريتها بلا شك في تلك الليلة. لو أدركت قيمة ما فعله لشكرته. وقال بهدوء وهو يغالب بصره كي لا يرنو نحوها لينهل من حلاوتها:

-أنت مجنونة بالفعل. ألا تدركين هذا؟.

برقت عيناها وقد فهمت ما يقصده، وقالت بجذل :

-هل خفت مني يومها؟.. لكنني لا أعض.

ابتلع ريقه بصعوبة ورد عليها متوترا:

-بل خفت عليك. أنت لا تدركين ما الذي تدفعينني لفعله وما الذي تنزلقين إليه.

-ولكنى لا أخاف منك. هل تعلم لماذا؟. لأنني أحبك.

كانت جرأتها تثيره وتهز أعماقه، وفي الوقت نفسه تحنقه وتغيظه باندفاعها. وهتف فيها وهو يقبض على ذراعها بقوة، غاضبا مستنكرا:

-تحبينني أنا ؟. أنت لست حمقاء فحسب. بل غبية كذلك. إن عمري في ضعف عمرك تقريبا .. إنني بلا عمل ولا مستقبل. فأي شيء تحبيه من أجله؟

سحبت ذراعها من يده، وقالت بهمس يفوح منه هرمونات أنوثتها العابثة الماجنة، وصوت رغبتها الصارخ:

-كل هذا لا يعنينى ..كل ما أريده هو أنت.. أنت فقط .

قالتها وفاجأته بما فعلته بعدها.. مالت نحو شفتيه مرة واحدة، وطبعت قبلة سريعة عليها.. أبعد رأسه عنها بسرعة مذهولا. لكنها احتفظت بابتسامتها العابثة الظافرة، وتحركت لتغادر شقته، وهي تقول :

-لن أيأس أبدا منك. أعلم أنني سأصل إليك في النهاية.

شعر أنه إن لم يفعل شيئا ما ليوقف ما تفعله فسوف ينحدر معها في ما ترغبه. فكر في أن يخبر أمها. لكنه خشي أن يجرحها بكلماته، أو أن تسئ فهم مقصده. قرر أن يكون أكثر حذرا معها.

لم تكن سوسن شكواه الوحيده. كان هناك أيضا الفراغ والملل.. اقترح عليه ممدوح أن يبحث عن عمل ما. إنه مهندس، وقد تخرج من هندسة عين شمس بتقدير مرتفع، بل وكان يعمل في شركة اتصالات كبرى قبل الحادث المشئوم. فكر مرارا وتردد قبل أن يحزم أمره ويقرر البحث عن عمل.. كتب سيرة ذاتية، ثم ذهب بها إلى مكتب التوظيف في بضع شركات وقدمها إليها. وبعد أسبوع جاءه الرد من إحدى شركات الكمبيوتر، تخبره برغبة صاحب العمل في مقابلته فذهب إلى تلك الشركة بالدقي.

كان عليه أن ينتظر لأكثر من ساعة قبل أن يقابله صاحب الشركة. ثم دار الحوار في البداية وديا، وكان الانطباع الذي رآه في عيون الرجل إيجابيا. ظل هذا حتى سأله عما

فعله في السنوات السبع الأخيرة التي لم يذكر عنها شيئا في سيرته الذاتية. كان قد أعد الإجابة مسبقا وراح يذاكرها طوال الليل كي تخرج منه في أفضل صورة ممكنة. وقال بهدوء محاولا انتقاء كلماته:

-لقد كنت في مصحة نفسية. لقد كنت أعانى من اكتئاب شديد، وقد خرجت منها حين شفيت تماما، لكنني الآن عدت طبيعيا تماما ولا أشكو من أي شيء.

وبان وقع كلماته على وجه صاحب العمل الذي كف عن الابتسام وأنهى اللقاء على الفور، واعدا إياه بالاتصال به فيما بعد. لم يكن صعبا أن يدرك أنه قد فشل وأن عليه ألا ينتظر ذلك الاتصال المزعوم الذي لن يأتي قط..

وكانت الفرصة التالية هي شركة اتصالات جديدة.. هذه المرة لم يكن مكوثه بالمصحة النفسية عائقا أمام عمله بها. لكن (الفيش الجنائي) له، والذي ذُكر فيه أنه قد حكم عليه بإيداعه المصحة النفسية، لأنه ارتكب جريمة قتل بحق أمه،كان كافيا لأن ترفضه الشركة على الفور .

أدرك بعدها أن لا أمل من تكرار المحاولة فرضخ للأمر.

لكن الشيء الذي أفزعه وأقض مضجعه هو ما صار يحدث له في البيت. تزايدت الهمسات المبهمة المخيفة التي تتردد بلا انقطاع في أذنه، ولم تعد العقاقير تجدي كثيرا في إنهائها أو حتى تخفيف حدتها كالسابق. صار من المعتاد أن يرى شبح أمه يتجول في أنحاء البيت، ولم يعد إغلاق عينيه والعد من واحد لعشر، بكاف كي تختفي. كانت تحدثه دوما بتلك اللغة الغريبة التي لا يفهما.

تكرر هذا حين عاد من زيارته لابتسام ليجدها بجواره على الفراش ترمقه بشماته. ولم تختفى الا حينما نعتته بالبؤس وحين صرخ فيها أن تتركه. وتكرر الأمر بعد ذلك حين فشل في الحصول على عمل كأنما كانت تأتيه لتشمت فيه.

كما اعتاد كذلك على الصرخات الغريبة التي تخرج في الليل من حجرة أمه المغلقة، كما راح يتجاهل الأضواء الحمراء الغريبة التي تنبعث من أسفل بابها في الظلام..

شعر أن ثباته النفسي يهتز بشدة.. وشعر أن كل تلك العقاقير التي أمدته المستشفى بها صارت بلا جدوى.. ومرة أخرى راح يحاول جاهدا أن يصل بعقله إلى إجابة لتساؤله الدائم.. هل ما يجرى له الآن أوهام يختلقها عقله .. أم هي أحداث غامضة تدور حوله، ولا شأن لعقله بها..

شعر انه موشك على الجنون لو لم يتوقف كل هذا، وفكر في أن يسأل أحد ما عن المساعدة ..

قفز لعقله شخص ما من بقايا ذكرياته القديمة. تذكر الدكتور محمد شاهين. ذلك العجوز المتأنق اللعين الذي يعيش في فيلته المبهرة بالمقطم. تذكر ما فعله معه من قبل فطفا غضبه على سطح عقله وعاودته رغبته في الانتقام منه. كانت شهادته بالمحكمة هي ما أودعه مستشفى الأمراض العقلية والنفسية بالعباسية. لو أخبر المحكمة بالحقيقة، لربما تغير الوضع، وربما لم يكن الحبس مصيره. لكنه لم يفعل.

***

10

شعر بحنق وقهر لا حد له.

كانت نفسه تغلي وتفور غضبا حتى تمنى لو يموت الآن ليستريح.. فلا وصف مما تحويه الكتب والمعاجم والبلاغة بقادر على وصف ما يشعر به الآن.

بدا الطريق الدائري المظلم أمامه ممتدا بلانهاية، معوجا كثعبان يتلوى، يختفي أغلبه من أمام بصره منذرا بكارثة مقبلة حتما، فلم يهتم. كان يبكى وراحت دموعه الثخينة تنهمر على وجنتيه بلا توقف ..

راح سؤاله يتردد في عقله وعلى لسانه بلا أمل في إجابة تنجيه من حيرته .. أننجب أبنائنا ليقهرونا، وهل نثق فيهم ليخونونا؟ ..

وكان هذا ما فعله به أدهم أبنه. ابنه البكر من زوجته الأولى التي توفت منذ أكثر من عقدين من الزمن تاركة ابنا وحيدا اجتهد في تربيته حتى دخل كلية الصيدلة.. حينها

شعر الدكتور عبد المنعم أنه مازال بحاجة للمرأة، فتزوج ابتسام زوجته الحالية لينجب منها ابنه الأخر عماد..

كان يعلم أن أدهم لا يحب زوجته. لكنه تجاهل الأمر . ظن أن أدهم يكرها لأنه يعتقد أنها قد جاءت لتحل محل أمه الراحلة. ورأى الدكتور عبد المنعم أن مشاعر ابنه تلك تحمل الكثير من عدم النضج ويوما ما سوف يدرك لماذا يحتاج أبيه للمرأة، ولماذا كان عليه أن يتزوج ثانية.

لكن الولد تخرج من الكلية دون أن تتبدل مشاعره ودون أن يفارق جفاءه نحو زوجة أبيه. هنا فكر الدكتور عبد المنعم في استرضاءه بشيء ما، ففعل أكبر حماقة في حياته كلها. كان قد كتب من أجله توكيلا عاما بكل ممتلكاته عسى أن يدرك أدهم أن أباه لن يظلمه، وأنه لن يعطى للزوجة الشابة من أمواله أكثر من حقها ..

توقع بعدها أن يطمئن قلبه فيعود إلى عقله...لكن ابنه لم يفعل. بل خانه. واستلوى ابنه علي كل شيء بواسطة التوكيل العام الذي حرره أباه له. السيارة والشقة والحسابات البنكية، بل وحتى المركز الطبي الذي يعمل به . كانت صدمة لم يتفهما الدكتور عبد المنعم ولا عرف دوافعها. هل يحجر عليه ابنه في أمواله وممتلكاته؟. أم تراه يرغب في الاستيلاء عليها بمفرده؟. كان يريد الإجابات وكان عليه أن يحصل عليها من ابنه فذهب إليه. وقابله الأخير ببرود كاد أن يصيبه بجلطة تعجزه. وفوجيء به يقول له بتحد:

-وماذا في أن أنقل كل ما تملك لنفسي. إنني ابنك وأموالك في النهاية ستئول لي. كل ما حدث أنني عجلت بالأمر قليلا. ليس في هذا شيء.

لم يتحمل حمق منطقه فصرخ في وجهه ثائرا :

-هذا حين أموت وليس وأنا على قيد الحياة. وحتى لو مت فأموالي ليست من حقك وحدك. هناك أخوك وزوجة أبيك.

-في الواقع هذا هو ما دفعني لنقل ممتلكاتك باسمي. هناك طفل تعتقد أنه ابنك، وأنا لا أعترف به ولا أصدق أنه أخي. هل نظرت إليه يا أبي. هل رأيت في وجهه شبه ما يجمعك به أو حتى بي. إنه لايشبه غير أمه فما أدراني أنك آ باه؟.

كان هذا أكبر من أن يتحمله وإرتفعت يده لتهوى على خد الابن العاق في صفعة مدوية وهو يصرخ في جنون:

-إنه ابني شئت أم أبيت، وله في وفي أموالى مثل ما لك تماما. واياك أن تكررها ثانية. إنه ابني أيها الغبي. ابني مثلما أنك ابني.

لكن أدهم لم يرتدع. تحسس مكان الصفعة بأنامله للحظة ومازالت نظرة التحدي في عينيه، قبل أن يقول ببرود:

-ما دمت تؤمن أنه ابنك ولا تشك، فهذا شأنك. لكن أموالك لا. إن أموالك ستكون لي وحدي. وحدي فقط ولن يشاركني فيها أحد أخر.

شعر بالقبضة الخفية التي تأتى من بعيد لتعتصر صدره وتخنقه. كانت هناك أزمة قلبية مقبلة، ويعود ليتحدث بصوت مخنوق ولسان ثقيل:

-بل له نصيب في كل شيء أملكه. إن اموالي ملكي وحدي وسأفعل بها ما أشاء. أما أنت فسوف تعيدها لى ثانية لأسامحك على ما فعلته. سوف تفعل هذا يا أدهم. أليس كذلك؟

-لن أعيد إليك أي شيء.. لن أعيدها لتحرمني منها وتمنحهما إياها. وأما بشأن معيشتك ومتطلباتك فلا تقلق، سوف أعطيك كل شهر ما يكفيك حتى وفاتك. وأعدك أن تحيا حياة كريمة كما تعيش الآن، لكنني لن أعيد الأموال ثانية لك.

اجتاحه دوار عنيف فأظلمت الدنيا في عينيه، وبالكاد نجح في تجاوز سيارة تسير أمامه كاد أن يصطدم بها. اعتصر عجلة القيادة بيديه وهو لا يسمع السباب البذيء الذي اطلقه قائد السيارة له. وازدادت دموعه انهمارا فهز رأسه بقوة كأنما ينفض الأفكار عن عقله، محاولا ألا يتذكر ما حدث بعدها. لا يرغب أن يتذكر كيف ترجى

أبنه أن يعود لعقله، وكيف كاد أن يقبل يديه دون أن يلين أدهم. لا يريد أن يتذكر كيف نهشته الذبحة الصدرية حينها وضاقت أنفاسه وصدره يتسول الهواء فلا يصله، فاتهمه ابنه حينها بالتمثيل وإدعاء المرض ..

هنا لم يكن أبدا ممكنا أن يحتمل أكثر من ذلك. كان ليموت كمداً لو ظل يحدّث ابنه على هذا النحو دون أن يثوب الابن لرشده، فخرج من عنده لا يلوى على شيء.. كان يسير بسيارته على الطريق الدائري في جنون ، وتمنى سائرا لو يظل هكذا للأبد.

اتجه إلى طريق السويس الصحراوي. اختفت أعمدة الإضاءة، وخلا الطريق من السيارات تقريبا، فبدا ساكنا هادئا.. لكنه قلبه لم يهدأ ..

هنا رواده خاطر مهم ومخيف. شعر أنه ليس وحده بالسيارة وأن هناك من يجلس خلفه. وحين نظر إلى المرآة التي تتوسط زجاج السيارة أمامه رآها تجلس في منتصف المقعد الخلف للسيارة وهي ترمقه بنظرة وحشية أرعبته.

كانت حماته. بل كان شبحها. وهنا فعل أكثر الأشياء حماقة. دار برأسه للخلف ليتأكد مما يراه في المرآة وفى الوقت نفسه ضغطت قدمه على مكابح السيارة ..

كان المقعد الخلفي فارغا. لكن السيارة لم تعد سيارة في تلك اللحظة. فقد ارتفعت فجأة في الفضاء كطائرة سوداء عملاقه. هنا رأى زوجته ابتسام ممسكة بيد عماد الذي راح يلوح له وعلى شفتيه ابتسامته الطفولية الحلوة. رأى أدهم يرمقه بتشفف ومازال محتفظا بنظراته القاسية الباردة. ورأى نوال، زوجته الأولى تأتى من خلف الحجب والضباب تشير إليه أن يتبعها فابتسم لها..

هبطت السيارت وانقلبت على الطريق بضع مرات .. ارتفع الغبار إلى عنان السماء فحجب عن القمر حقه في متابعة ما يجرى ..وفور أن همدت السيارة وكفت عن حركتها العنيفة اشتعلت فيها النيران. ومضت لحظات قبل أن يأتي الانفجار العنيف الذي مزق سكون الليل . وانتشت زهرة النار المقدسة وأينعت وتفتحت..

ومضى وقت طويل قبل أن تأتي النجدة إليها.

لكن بعد فوات الأوان بالطبع.

***

11

انكمشت ابتسام حول ابنها الراقد بجوارها على الفراش في وضع جنيني مذعور تلتمس منه الحماية والسكينة والدعم في عالم قاس لا يرحم. شعرت أنها طفلة حائرة مذعورة. كانت طفلة ألقوها في الغابة المظلمة وأخبروها أن عليها أن تواجه الشيطان والساحرات والوحوش بمفردها.

شعرت بالإعياء وهي لا تدري كيف تواجه الدنيا وعلى ظهرها هذا الطفل اليتيم. كانت بحاجة لمن يسندها فتذكرت عماد. أخوها الوحيد. ازداد نحيبها وهي لا تدرى لماذا يرفض قلبها أن يلجأ له. هل صارت أمها الراحلة هي السد العالي الذي يحول بينهما. لكن إن لم تلجأ إليه فلمن تلجأ، ولم يعد هناك من يمكنها أن تطمئن إليه في هذا العالم غيره.

مر أسبوع منذ وفاة زوجها محترقا بسيارته. ظلت طوال الوقت تتساءل بحيرة، إلي أين كان يتجه بالسيارة متخذا طريق السويس؟. ولماذا انقلبت به السيارة وقد أثبت تقرير المعمل الجنائي أن السيارة لم تصطدم بشيء .

لاحظت الجفاء والخشونة التي عاملها بها أدهم فلم تتعجب. لقد تعودت على هذا منه. لكن العجيب أنها لم ترى في عينيه دمعة واحدة على أبيه الراحل. هنا شعرت بقسوته وجحوده. من أين استقى ذلك الشاب كل تلك القسوة على أب عهدته كريما وعطوفا معه .

لكن المفاجأة الحقيقية كانت ما حدث بينهما اليوم. لقد جاءها منذ قليل ليخبرها أن أمامها يومين لتغادر الشقة. لم تفهم ما يقوله وما الذي يعنيه، وأي شقة تلك التي عليها أن تغادرها؟. وقالت له بحيرة:

-أغادر الشقة ؟!. إنها منزلي. فلماذا أتركها ؟..

-خطأ. إنها ليست منزلك. لقد كانت شقة أبي وحده ، وها قد مات فصارت ملكي. وأنا أرغب الآن في استغلالها.. ولهذا عليك أن تبحثي عن مكان أخر وتغادريها

كان يحدثها بحزم قسوة لا مبرر لها. فتجلدت لترد عليه بحدة :

-ما هذا الهراء الذي تتفوه به. لن أغادر شقتي إلى أي مكان. إنها منزلي أنا وابني. وحتى لو كان لك حق فيها، فهذا لا يمنحك الحق أن تطردني منها. لا تنس أنني مازلت حاضنة وأي محكمة ستحكم ستمنحني اياها.

هنا ابتسم ابتسامة شيطانية باردة، وقال :

-هذا لو أنها قد ظلت باسم أبي حتى مات. من سوء حظك أن هذا لم يحدث. لقد نقلت كل شيء يمتلكه أبي لحوزتي قبل أن يموت. الشقة والمركز الطبي والسيارة الحديثة التي سيعوضني التأمين عنها، وأموال البنوك. كل شيء صار ملكي. لقد فعل أبي قبل مماته الشيء الوحيد الصائب مؤخرا. لقد صنع من أجلى توكيلا عاما بالتصرف في كل ما يملكه. ولقد حصلت به على كل شيء. بالمناسبة ألم يخبرك بهذا؟!.

هنا أظلمت الدنيا في عينها، وهي لا تصدق ما تسمعه. لم تكن تعلم بأمر التوكيل الذي يزعمه أدهم الآن، ولم تتخيل أن يسئ أدهم استخدام هذا التوكيل المزعزم هكذا. هل يرغب من حرمان أخيه الصغير من حقه الشرعي في أموال أبيه . لاتفسير أخر غير هذا. ووجدت نفسها تصرخ في وجهه:

-أنت تمارس لعبة قذرة لكنها سوف تفشل. هناك الشرطة وهناك المحاكم، وأنا لن اترك بيتي أبدا، وسأحارب حتى أحصل على حق هذا الطفل اليتيم، ولن أدعك تسرق حقه في أبيه.

-أعتقد أن الفشل هذه المرة كان من نصيبك. يمكنني أن أتخيل مقدار ما تشعرين به من إحباط، وقد صارت مخططاتك كلها سراب. لقد خططتى لأن تتزوجي الطبيب العجوز الثرى الذي سال لعابه لشبابك، حالمة بأن تحوذي كل شيء بعد مماته. لكنك

ولسوء حظك تكتشفين الآن، أن كل ما خططتي له تبدد في لحظة. لا أشك أنك الآن في أسوأ حال ممكن. لكن لوشئت الصدق فهذا يسعدني.

كانت كلماته قاسية مزقتها كعشرات الخناجر الحادة. هنا فقدت وعيها. وحين أفاقت كان ابنها بجوارها يحتضنها ويبكي.

أغلقت الدنيا أبوابها أمامها، وشعرت بالتيه والضياع ليومين كاملين قبل أن يعود أدهم ثانية. هذه المرة لم يمهلها .. طردها من الشقة على الفور بمساعدة بعض البلطجية دون أن ينجح صراخها أو توسلاتها في تغير الأمر. ووجدت نفسها فجأة في الشارع مع طفلها

هذه المرة لم يكن أمامها إلا أن تعود لتقيم ببيت العائلة ثانية. وكان هذا رغما عنها.. لكن إن لم تفعل فأين يمكنها أن تذهب مع ابنها؟..

أخبرت عماد بما جرى معها، فاستشاط غضبا وقرر أن يذهب إلى أدهم في اليوم التالي بصحبة أحد المحامين ليرى ما يمكنه أن يفعله. لكنه عاد من عنده بغضبه وعجزه ونقمته. أخبرها أن كل شيء قد انتهى. فأدهم يمتلك بالفعل توكيلا عاما من أبيه وقد نقل ممتلكاته كلها باسمه قبل ممات أبيه، بل ووثقها في الشهر العقاري..

لم يعد أمامها إلا أن تستقر في بيت أبيها مع شقيقها الذي رحب بها بود حقيقي، وإن ظل الجدار الضخم الذي يفصل بينهما قائما. حاول عماد أن يقص عليها ما حدث مع أمه، لكنها لم ترغب أبدا في سماع شيء مما حدث، كي لا تجتر آلامها ثانية ورجته ألا يفعل.

عادت لحجرتها القديمة التي عاشت بها قبل الزواج وامتنعت عن الدخول إلى حجرة أمها. شعرت بأن الذكريات التي تسكن الحجرة قادرة على هزيمتها وتحطيم ما بقى من سلامها النفسي إن وطئتها. لتتركها على حالها مغلقة على ذكرياتها وأحزانها، ولتنتبه إلى ابنها الذي هو بحاجة لها حقا ..

مضت الأيام رتيبة باردة بينها وبين أخيها. تحاشته خلالها وإن لم تستطع أن تمنع ابنها عماد عنه، وهي ترى كيف تعلق به للغاية، وكيف لا يفارقه طالما هو موجود بالبيت. وراحت تتساءل بحيرة ما الذي يعجزها هي الأخرى عن حب أخيها وطالما فعلت من قبل ..

مضت الحياة لحين على رتابتها حتى استيقظت ذات ليلة على صراخ ابنها وقد صحا من نومه فزعا وراح يصرخ:

-المرأة العجوز يا أمي. إنها تقف في الظلام وتشير نحوك. إنها تخيفني. ابتعدى عنها يا أمي أرجوك كي لا تؤذيك. ابتعدى عنها ولا تدعها تأخذك.

ظنت انه كابوس. لكن أخيها الذي هرع إلى الحجرة فور سماعه صرخات الطفل إمتقع وجهه بشدة وهو ينظر إلى الحجرة المظلمة نظرات غريبة قبل أن يسد أذنيه بكفيه ويغمض عينيه كأنما يسمع أصواتا خفية لاتسمعها، وراح يصرخ هو الآخر.

وبعد بضع أيام أخرى فوجئت بابنها يقف أمام حجرة أمها المغلقة . العجيب أنه كان يضع أذنه على باب الحجرة المغلقة مسترقا السمع لما يحدث داخلها. شعرت بالحيرة مما يفعله وسألته وهي تنحني نحوه لتعلم ما الذي دفعه لفعل هذا، فأبعد رأسه عن الباب ونظر إليها بعيون لامعة وقال بحماس وهو يشير للحجرة المغلقة:

-هناك من يتحدث بالداخل ..لقد سمعتهم من قبل ، والآن أسمعهم ثانية .

رمقت ابنها بتوتر وخوف لتفاجأ بأخيها يندفع من حجرته نحو ابنها وينحني نحوه قائلا بعيون زائغة أرعبتها :

-هل قلت أنك تسمع أصواتا بداخل الحجرة يا عماد ..أخبر خالك ولا تخفى عنه شيئا .. ما الذي سمعته؟

أجاب الطفل خاله على الفور بحماسه الذي لم يطفأ:

-إنهم رجال كثيرون، ومعهم امرأة بالداخل. إنهم يتحدثون كثيرا ويصرخون. لقد اكتشفت أمرهم منذ أيام.. لكن من هم يا خالي؟. ولماذا لا يخرجون من الحجرة؟!.

تجاهل عماد سؤاله وقال وفزعه يتصاعد:

-وما الذي يقولونه يا عماد؟. هل تذكر كلماتهم.

-لا أدرى يا خالي ..إنني لا أفهمهم ..

راحت عينا ابتسام تتنقل بين أخيها المذعور وابنها المتحمس، بتوتر لاحدود له وهي لاتفهم ماذا يحدث..ورأت كيف زاغت عينا أخيها وكيف ارتجف وهو يلصق أذنيه بالباب هو الأخر كأنما يرغب في سماع ما سمعه الطفل.. لم تفهم ما يحدث لكنها شعرت بخوف غريب يعتريها على ابنها حين أبعد عماد أذنه عن باب الحجرة برعب ثم أمسك برأس الصغير برفق وقال له:

-إنظر يا عماد إلي ..أنت تحبني وتحب أن تطيعني، أليس كذلك ؟..

هز الطفل رأسه موافقا، فأكمل:

-إذا عدني ألا تقترب من هذه الحجرة ثانية ..عد خالك ألا تفعلها مرة آخرى.

رمقه الطفل بحيرة. وكان هذا أكبر من أن تحتمله، فاندفعت نحو ابنها وجذبته من بين أصابع خاله وهي تصرخ في وجهه محذرة:

-ما الذي يحدث هاهنا وما شأنه بابني. أخبرني يا عماد؟. ما الذي يدور في هذه الحجرة

جاوبها صمته ونظراته التائهة، قبل أن يوليها ظهره ويسير نحو حجرته دون أن يجيبها. وشعرت بالذعر، فصرخت فيه وهي تحتضن الطفل بقوة:

-ابتعد يا عماد عن ابني ولا شأن لك به..لو أصابه مكروه ما فسوف أقتلك بيدي هذه المرة. لن أسامحك أبدا لو فقدته كما فقدت أمي. سوف أقتلك حينها. أقسم أنني سوف أفعل.

ولم يطمئن قلبها بعدها أبدا. وقد اجتاحها القلق على طفلها، فراحت تراقبه بحذر طوال الوقت. لكن الطفل بدا وكأنما فقد اهتمامه بالحجرة فلم يقترب منها ثانية كما طلب منه خاله.

وبعد شهر كامل تبدل الأمر. كان الوقت ظهرا، وقد انهمكت ابتسام في إعداد الطعام بالمطبخ. حين لاحظت أن صوت ابنها قد اختفي فجأة. نادته فلم يجبها، فخرجت للصالة ونادته ثانية، قبل أن تشعر بالرعب.

كانت حجرة أمها مفتوحة، وينبعث منها ضوء أحمر مخيف. نبض قلبها بعنف. وظلت بمكانها متجمدة للحظات قبل أن تتذكر طفلها فجأة. هنا طردت مخاوفها من عقلها، واندفعت بلا تردد نحو الحجرة..

وحين رأت ابنها لم تتمالك نفسها، كان ما تراه حينها هو الهول نفسه.

ووجدت نفسها تصرختبفزع كما لم تفعل من قبل.

الفصل الثاني

المصحة

(قبل سبعة أعوام)

1

بدت الومضات التي تطلقها في وجهه عشرات الكاميرات المصوبة نحوه، كعشرات الشموس الصغيرة فأغلق عينيه في وضيق. وارتفع الصخب والضوضاء في قاعة المحكمة فتمني لو يسد أذنيه. كان وقفا داخل القفص الحديدي مترنحا ذاهلا عما يدور حوله، انهمرت علي أذنيه الكثير من الأسئلة التي يلقيها عشرات الصحفيين الملتفين حول قفصه وهم يحصون أنفاسه. كانت أسئلتهم متكررة ومتشابهة يجمعها الإصرار والإلحاح والسماجة، فلاذ بصمته ولم يرد.

-لماذا قتلها .. وهل هناك ما تخفيه عن الجميع في هذه القضية؟.

-يقولون أنها رفضت زواجك بحبيبتك.. هل حقا قتلتها من أجل هذا؟.

-أحقا كانت أمك ممسوسة كما قلت.. ومن ساعدك من الشيوخ في علاجها؟.

-هل تعانى من مرض نفسي ما؟.. وهل رآك طبيب نفسي من قبل؟.

تمنى لو يتركوه لحاله ويكفون لحظة عن إزعاجه. ليتهم يتركونه لآلامه وحيرته وذهوله. ليتهم يدركون أنه لن يرد عليهم أبدا، وأنهم يبددون مجهودهم في ملاحقته.. سبح عقله بعيدا وراح يتخيل ماذا يكتب عنه في الجرائد، حتما هناك عشرات العناوين البراقة. لقد صار نجم اللحظة:

"مهندس ناجح يقتل أمه ويدعى أنها ممسوسة "..

"الجريمة البشعة .. يقتل أمه ويدعى الجنون "..

"يذبح أمه، ويسلم نفسه للشرطة"

ستكون العناوين بخط أحمر مثير، وسيختارون أبشع الصور التي نجحوا في التقاطها له كي ينشروها في صدر صفحاتهم اللعينة. سيحاولون أن يجعلوا منه مسخ شرير

مشوه، وسيرغمون القراء على لعنته وعدم التعاطف معه. وكيف يمكنهم أن يتعاطفوا معه وقد قتل أمه.

يعلم أنه سيأتي الوقت الذي تأتى فيه مذيعة رقيعة بملابس ضيقة تتفجر بأنوثتها وبشعر طويل مصبوغ بلون أصفر بشع، لتجرى معه تحقيق مثير.. سوف تلوك علكتها بميوعة، قبل أن ترتسم الجدية في عينها بزيف، وهى تشير للكاميرا بلفتة خفية من رأسها أن تقترب من وجهه. الفريسة أمامكم أيها السادة فأرونا كيف ستنهشوها.. إقتربوا بالكاميرا أكثر وأكثر. دعوها تقتحم خلجاته ومسام جلده. لا نريده أن يبدو ثابت الجنان. يجب أن يبدو هشا مرتبكا مذعورا، يجب أن تثيروا أعصابه ليثور ويبدو شريرا. بعدها ستسأله سؤالها السخيف:

-والآن يا عماد، أخبر الجمهور أنك نادم لقتل وأمك وأنك تخجل من نفسك.. هيا حدثهم فهم في انتظار ما تقوله.

ستنتظر منه أن يتحدث حينها باكيا مرتجفا وهو مطرق برأسه نحو الأرض ويقول فى الميكرفون "أنه نادم جدا " .وربما أرادت منه أن ينتحب ويصرخ معلنا توبته، سائلا الصفح من الجماهير ..

لكنه لن يفعل ..ولن يتحدث إليها، ولن يطلب الصفح من الجماهير اللعينة التي لا تعنيه، ولن يريحها ويحقق لها ما تأمل أن يفعله. سوف يطردها .وإن ألحت عليه فسوف ينتزع منها الميكروفون الذي تقبض عليه بأصابعها المصبوغة بالألوان كأيدي المومسات، ثم يهوى به على رأسها ليدمها. لقد أتت إليه كي تظهر لجماهيرها الوحش الرابض بداخله كي يكرهونه ويلعنونه. إذا ليظهر لها الوحش الذي تنتظره.

أغمض عينيه ثانية بشرود كي لا يرى أي شيء مما يدور حوله. عاد ليتذكر أمه التي رآها تقتل أمام ناظريه.

حين نجح الجيران في كسر الباب المغلق ودخلوا شاهدوا الحدث المفزع. الأم راقدة على وجهها بين ذراعيه وهو يقبض على السكين المغروز في عنقها ليخرجه، وجسدها

المذبوح ينتفض ويخور، ونافورة من الدماء الساخن تندفع من العنق مكونة بحيرة صغيرة من الدماء حولهما.. لم يكن هناك من أحد غيره معهما. وكان السكين في يده. هذا ما رآه الجميع، فأي دليل آخر ضده أقوى من هذا ليعتقدوا أنه من قتلها.

لكنه لم يقتلها ..لم يكن ليفعل هذا أبدا هذا حتى لو أراد.. المشكلة أنه لا أحد يريد تصديقه، ما راه جيرانه أقوى من حجته مهما قال..

انتبه إلى صوت الحاجب البدين ذو الكرش الضخم، والذي صرخ في الجميع فجأة "محكمه .."، ثم دخل القضاة الثلاثة يتبعهم وكيل النيابة الشاب، وأذن القاضي لوكيل النيابة أن يتلو مرافعته وعريضة الاتهام.

نهض وكيل النيابة الشاب وسوى هندامه قبل أن يبدأ في مرافعته المتوقعة والتي سينهيها كما جرت العادة بطلب أقصى عقوبة على المتهم، وهي الإعدام حتما. وجال في خاطر عماد سؤال عجيب. لماذا لم يرى أو يسمع يوما وكيل نيابة يطلب البراءة لمتهم ما؟.

لم يهتم بما يقوله وعيناه تسبح على وجوه الحضور. انتبه إلي" منى". كانت تجلس بالصف الأخير وعيناها معلقة به. ذبل جمالها، ونحل عودها، وتراكمت حول عينيها الهالات السوداء الكثيفة. لابد أنها تبكي كثيرا ولا تنام. وهل ينتظر منها ألا تفعل؟..

كانت تبكي وتنتحب، ذاهلة عما حولها. وهي ترمق حبيبها المحبوس. تلاقت العينان في تلك اللحظة ودار بينهما الحوار الأبدي الصامت. تمنت لو تثب نحوه وتختطفه وتبتعد به عن العالم كله، وتمنى لو يحدثها للمرة الأخيرة ويطالبها أن تهتم بمستقبلها وأن تنساه. شعر بأنه لا يحتمل بكاءها، فأشاح بوجهه بعيدا عنها. عاد لينتبه إلى ما يصرخ به وكيل النيابة الشاب، والذي لم يكف عن الإشارة إليه بإصبعه من حين لآخر:

-وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ..وهل جزاء المعاناة التي تكبدتها الأم أعواما طوالا من أجل تربية ابنها وتهذيبه، العقوق والقسوة .. إن المتهم الماثل أمامكم قد تجرد من

كل معاني الرحمة والمحبة والإنسانية حين قام بما فعله .. لقد هدم المعبد بأكمله حين قتل أمه .. خالف الشرائع كلها وخالف الفطرة السوية حين فعل جريمته .. ما الذي ننتظره منه بعدما قام به نحو أمه التي اعترف بلسانه أنها لم تسئ إليه .. أننتظر منه مواطنا صالحا سويا، أم ننتظر منه أبا فاضلا.. أم تراه يكون بعد ذلك عابدا ناسكا .. إنه قاتل وليس قاتلا عاديا من الممكن تفهم دوافعه ..كلا إنه قاتل لا يمكن التسامح معه في ما فعله وقد قتل أقرب إنسان إليه بدم بارد ..قتل أمه!

ألا ننتظر أن يفعلها ثانية مع آخرين لو أطلقنا سراحه؟.. حتما قد يفعل وقد برهن بما قام به أنه لا قلب له.

وأسوأ ما في الأمر هي تلك التمثلية السخيفة التي يرددها على مسامعنا، بأن أمه كانت ممسوسة وأنها هي من هاجمته، وأنه لم يقتلها وأن كائنا شيطانيا هو من فعل.. هراء وجزعبلات يصبها على آذاننا بلا انقطاع، منتظرا منا أن نصدقه أو نتهمه بالجنون كي يفلت بجريمته من العقاب..

شعر عماد مع كلمات وكيل النيابة وخطبته الحماسية الملتهبة أن القاضي سيكتفي بتلك المرافعة وسيحكم عليه بالإعدام، دون أن يعطى فرصة لذلك المحامى الذي جلبه له ممدوح أن يدافع عنه. لماذا لا يصدقه أحد منهم ..ولماذا لا يلتفتون لشهادة ممدوح والأستاذ محروس والحاج رضا الذين أيدوا ما قاله عن أمه. لماذا يظنوه وحشا قتل أمه بلا سبب ويرغب في الهروب من العقاب ..

دارت عيناه بين الحاضرين ثانية فرأى الدكتور محمد شاهين يجلس في الصف الثالث. مازال كما هو، الطبيب النفسي العجوز بوسامته الأرستقراطية وأناقته الفائقة. تلاقت العينان وقد التفت نحوه الدكتور محمد وكأنما شعر بنظراته، فظل الأخير واجما، وهو يهز رأسه هزات خفيفة، كأنما يطمئنه. شعر عماد ببعض الراحة لمجيئه. كان قد طلب شهادة الرجل، وهاهو قد جاء. لقد كان شاهدا على ما جرى بينه وبين وأمه. ولابد أن شهادته ذات قيمة وقد تدعم أقواله وموقفه كثيرا.

انتهى وكيل النيابة من مرافعته فساد الصمت للحظات وتبادلت العيون النظرات، قبل أن ينهض محاميه ليترافع عنه. بدا المحامى الضخم مرتبكا، وبدت مرافعته غير متماسكة أو مترابطة، فشعر عماد بالحنق. من هذا الأحمق الذي جلبه ممدوح ليترافع عنه؟. إنه لم يقنعه هو نفسه ببراءته بما يقدمه من دلائل وبراهين، فكيف يمكنه أن يقنع القضاة. فكر في أن يصرخ في الجميع أن يبعدوا هذا الأحمق، وأن يأتوا له بمحام غيره. لكنه إكتفى بكتم غيظه في قلبه وهو يتمنى أن يصمت وينتهي من مرافعته سريعا. بالفعل انتهى المحامى فساد الوجوم على وجوه الجميع، واهتزت رأس ممدوح بحسرة، وازداد دموع منى هطولا، وقد شعرت بالكارثة التي سببها المحامى ضعيف الحجة، ورأى في عيني الدكتور محمد عتابا صامتا، وهو يهز رأسه بأسف، كأنما يلومه على اختياره لهذا المحامى المعتوه..

أتى وقت سماع الشهود ونادى الحاجب على الدكتور محمد شاهين، فنهض بهدوء، وألقى القسم بعد أن عرف نفسه للمحكمة.. فسأله القاضي:

-هل كنت تعرف المتهم من قبل؟

-نعم لقد تعرفته في الأيام الأخيرة التي سبقت مقتل والدته..

-لقد ذكر المتهم أنه قد طلب مساعدتك في علاج أمه من مس شيطاني أصابها، وأنك كنت شاهدا على أفعال عجيبة تحدث لها.. هل هذا صحيح؟.

لم يجب الدكتور محمد على الفور وهو يغالب انفعالا خفيا في أعماقه، والتفت إلى عماد الذي حبس أنفاسه بترقب وهو يرقبه بأمل، قبل أن يجيب القاضي بهدوء:

-أعتقد أن الصواب هو عكس ما ذكرته سيدي القاضي. لقد كنت أعالج عماد نفسه وليس أمه، بل وكانت أمه هي من جلبته لعيادتي. وكان تشخيصي أنه يعاني من انفصام الشخصية ثنائي القطبية، والتي من أعراضه تلك الأوهام التي يتحدث بها.

خيم الصمت على المحكمة والجميع في ذهول من تلك المفاجأة التي ألقاها الدكتور على رؤوس الجميع، وكان عماد هو أكثرهم دهشة. أيقول أنه كان طبيبه وكان يعالجه من مرض نفسي. هذا كذب.. ولم يحتمل الصمت فصرخ من قفصه:

-إنه يكذب ..أنا لست مريضا ..أخبرهم بالحقيقة يا دكتور ولا تخذلني أنت الأخر. أخبرهم بما رأيته من أمي. لقد كانت ممسوسة ألا تذكر؟.

وارتفعت الهمهمة حينها في فضاء المكان، صاخبة متداخلة، لكن القاضي لم يتركهم، وطالبهم بالصمت فعاد السكون إلى المكان على الفور، ثم التفت إلى عماد وصاح فيه:

-وأنت أيضا يا عماد.. التزم الصمت، ولا تتحدث إلا حين يؤذن لك.

صمت حانقا وهو يرمق الدكتور محمد بنظرات نارية، ولا يصدق ما يفعله وما يدعيه، وأكمل الدكتور محمد شهادته:

-إن نفيه الآن أنه مريض وأنني طبيبه عرض من الأعراض التي يعانيها ..إنه لا يصدق أنه مريض، ولا يعي أن عقله يتوهم ويختلق كل ما رواه لكم. إنه يؤمن أنه قد مر بكل تلك الأحداث المخيفة التي يدعيها. للأسف كانت حالته في تدهور مستمر، وكان بحاجة حقيقية لدخول مصحة نفسية، لكن والدته –رحمها الله- هي من رفضت وأصرت على علاجه بالمنزل.

عاد الصخب ثانية والحيرة ترتسم على الوجوه وخاصة منى وممدوح اللذين كانا في دهشة عارمة لما يسمعانه الآن ..كلاهما يعلم أن عماد لم يكن يعاني من مرض ما، فلماذا يدعي الدكتور محمد هذا؟..

وعاد القاضي ليسأل الدكتور محمد:

-وماذا عن أمه؟.. ألم تكن ممسوسة كما ادعى المتهم؟..

-لا أستطيع في الواقع أن أجزم بشيء ما. أعترف أنني قد شهدت بعيني في منزل عماد أشياء غامضة عجيبة، لكن هذا لا ينفي أن عماد كان مريضا نفسيا ولا يعتد كثيرا بما يدعيه.

-ومتى بدأت تقريبا في تعالجه؟

-منذ أربعة أشهر تقريبا ..

-ولم يستجب للعلاج أو تتحسن حالته حينها .

-ليس بصورة مرضية ..لقد كان تقدمه بطيئا

قالها وهو يهز برأسه آسفا قبل أن يمد يده اليمنى القابضة على بعض الأوراق نحو القاضي مكملا:

-هذه نسخة أحتفظ بها من الوصفات الطبية التي وصفتها له، وتقرير شامل بحالته وخطوات العلاج الذي اتخذتها معه.. وكما ترون فزيارته الأولى لي كانت منذ أربعة أشهر ثم تكررت زيارته لي بعدها بضع مرات.

تطلع القاضي بسرعة للأوراق التي أمامه، قبل أن يقول:

-وهل ترى أنه حين قتل أمه كان واعيا منتبها لما يقوم به ، أم تراه غير مسئول عن أفعاله.

-أعتقد ليس مسئولا أبدا عن أفعاله .. ففي مثل تلك الحالات تأتى لحظة ما من الجنون المؤقت يكون المريض فيها خارج وعيه وإدراكه تماما، ولابد أنه قد تعرض حينها لضغط نفسي هائل، أو لنقل مؤثرات نفسية هائلة لم يحتملها. ربما تخيلها ممسوسة من قوى خارقة شيطانية، وربما ظن أنها تهاجمه وتحاول إيذاءه أو قتله.. هنا قد يصل به الأمر إلى مرحلة الجنون المؤقت، وربما أقدم على قتلها دون أن يشعر. المشكلة هنا هو أنه في الغالب يفقد ذاكرته بصورة جزئية، وينسى ما فعله في ذلك الوقت تماما .

رمقه القاضي بتعجب، وعدل من نظارته قبل أن يسأله:

-إذا فأنت تزعم يا دكتور أن المتهم لم يكن مسئولا عن تصرفاته حين قتل والدته..أليس كذلك؟

-هذا هو رأيي الطبي وما أعتقده..

صمت القاضي فعادت الهمهمة ثانية. وصاح عماد من قفصه بثورة وهو يضرب بكفيه جدران القفص:

-أنت كاذب ..إنني لست مجنونا ولم أقتلها ..إنني لم أفعل ..إننى لم أقتلها ..إنهم من قتلوها وليس أنا.

وجم الدكتور محمد وهز رأسه بأسف وهو يتحاشى النظر إليه وسمح له القاضي بالعودة إلى مقعده ثانية وقد انتهى من شهادته ..توالى الشهود بعدها من الجيران واتفقوا جميعا على ما حدث ..لقد اقتحموا باب البيت حين سمعوا صرخات كثيرة تتردد داخله ..كانت كريمة أم عماد ملقاة على وجهها على الأرض تنتفض وتصدر من فمها صوتا كالخوار، وعماد بجوارها يصرخ وفي يده سكين غرس في عنق الأم من الخلف .. قالت أم محسن أن عماد كان يصرخ حينها أنهم قتلوها لكنها ذكرت أنها شاهدت بعينيها أشياء غريبة تحدث لأم عماد..وذكر أحد الجيران وهو شاب صغير يعمل في محل دواجن أسفل البيت أنه فتش البيت حينها بحثا عن أي أحد ربما كان مختبئا لكن البيت كان خاليا وكل نوافذه مغلقة ..

في النهاية حكم القاضي وقد وجد أن شهادة الدكتور محمد هي الأكثر منطقية وقبولا. بإيداع عماد مستشفى الأمراض العقلية تحت الملاحظة لشهرين لتقييم حالته النفسية قبل إصدار حكم نهائي عليه.

****

2

فى صندوق سيارة الترحيلات المعدنى كان الحر كالصهد والرطوبة فى عنفوانها خانقة لاترحم، وإنهمر العرق من مسامه غزيرا لزجا. راح جسده يئن ويشكو بصمت ، لكن نفسه وروحه كانت هى التى تصرخ. شعر بالقهر ومرارة العجز والظلم. لاتبارحه أمه الراحلة ولا ذكرياته الغزيرة معها. مازال يتذكرها وهى تحضتنه حين كان يبكى ويشكو

أن أحد الاطفال قد آذاه. فرحتها حين نجح فى الثانوية العامة وإلتحق بكلية الهندسة، دعواتها له كل صباح وهو ذاهب لعمله أن ييسر الله أمره وأن يشرح صدره. يغمض عينيه فيراها ترقص وتزغرد حين حصل على بكالوريوس الهندسه. وتقفز أمام عينيه لهفتها وهي تكشف عن شعرها لتدعوا الله الا تموت قبل أن ترى أبنائه. لكنها لن تراهم أبدا بعد الآن، بل وربما لن يراهم هو نفسه. تنهد بيأس قبل أن يقلب وجهه للسماء ليسأل الله الرحمة التي لم يحصل عليها من خلقه.

تتوقف السيارة ويُفتح الباب الحديدى الخلفى ويصعد إليه رجل شرطة، يسأله أن يمد إليه يده ليحيطها بالقيود فيفعل. يرى الضابط الشاب المرافق له والمستتر خلف نظارته السوداء وهو يرمقه بلامبالة. يخرج من السياره ليسير فى طرقات المصحة. يطالع وجهه الكثير من الوجوه الكالحة السقيمة لمرضى نخر ابدانهم ونفوسهم المرض كالسوس. يخفض رأسه كى لايرى أحدا ويتمنى لو كان قادرا على التخفى كى لايراه أحد. يعبر بابا زجاجيا ويتوقف الجميع وقد بلغوا حجرة واسعة. هناك رأى طبيبة فى منتصف عمرها ترتدى معطفا ابيضا قصيرا، أسفله قميص لبنى وبنطلون قماشي، كانت ترمقه بهدوء، وإبتسامة خفيفة تلوح على وجهها حين تلاقت عيناهما فخفض عينيه. رفع عينيه ثانية فرأى الممرض الضخم الواقف خلفها والذى كان يرمقه بنظرات لزجة باردة.

لحظات وانصراف الضابط الشاب ومرافيقه ولم يبقى معه غير جندى هزيل، والممرض الضخم والطبيبه الهادئة المبتسمه. إنتبه لصوتها للمرة الأولى، وهى تشير اليه أن يجلس على مقعد جلدى أمام مكتبها. جلس ولاحظ الممرض الذى تحرك ليجلس أمامه، والجندى الصغير الذى ظل واقفا يراقب الجميع بتحفز.

وقالت له الطبيبه وابتسامتها العذبه لاتفارق شفتيها الرفيعتين:

-أسمي هو الدكتوره سحر. ومن المفترض أن أكون أحد الأطباء المسئولين عنك خلال تواجدك هاهنا معنا. لكن فى البدايه أخبرني، ما اسمك؟

أربكته ابتسامتها ونظرتها المحايدة التى خلت من الشفقة أو الاتهام. بعد هنيهة ببطء دون ان يرفع رأسه:

-عماد

-أهلا بك يا عماد. وماذا كنت تعمل قبل أن تأتي إلى هنا؟

-كنت مهندساً في شركة إتصالات.

إتسعت إبتسامتها المشجعة ولمعت عيناها، وهي تردد:

-أنت مهندس إذاً؟. هذا رائع. لكن هل تعلم لماذا أنت هنا؟.

توتر ثانية ونظر إليها بحيرة وهو يتساءل لماذا تسأله سؤالا تدرك حتما إجابته. هل تسأله لتربكه، أم تسأله لتتأكد، أم تساله لغرض آخر خفي لايعلم؟..

نظر إليها ثانية فوجد نفس الإبتسامة على شفتيها لم تتغير أو تتبدل ..ولما طال صمته قالت ثانية:

-لم تجب سؤالي. أتمنى ألا يكون سؤالي مزعجاً؟..

-أنت تعلمين لماذا أنا هنا . لابد أنهم قد أخبروك..

-لايهمنى ما قالوه ولا ما تقوله الأوراق. أريد أن أسمعك أنت..

تنهد بخفوت قبل ان يجيب بصوت خافت ورأسه مطرق لأسفل :

-إننى متهم بقتل أمي؟..

قالها وثبت عينيه على وجهها ليرى رد فعلها. ظلت ابتسامتها الندية على وجهها دون أن تتعكر. وقالت حينها بهدوء:

-وهل فعلت هذا حقا؟..

-وهل ستصدقيني لو أخبرتك بالحقيقة ؟..

-يمكنك أن تجربنى. لن تتخيل أبدا مدى إتساع أفقى ومدى قابليتي لتصديق أى شيء ..؟

-أنا لم أفعل. أقسم على هذا، لكن لا أحد يريد تصديقى ..

-وهل تعلم من فعلها إذا؟..

ابتلع ريقه بصعوبه وازداد اضطرابه وأجاب:

-ليتني أعرف. كان السكين فى يدها، وفى اللحظة التالية كان معلقا فى الهواء ثم طُعنت به. الأمر كله صعب التصديق. لقد كان هناك من يستحوذ على جسدها من الجان أو الشياطين. إنهم من قتلوها وليس أنا.

-هل يعنى هذا أن الشياطين التى إستحوذت على جسدها هى من قتلتها.

شعر بالارتباك ثانية ..فخفض رأسه وغمغم بخفوت:

-أعلم أنك لم تصدقينى ..

-ومن قال أننى لم أفعل. إننى أجدثك لأعلم الحقيقة، وأنت لست هنا كى نكذبك أو نتهمك بشيء. أنت هنا لنستمع إليك ونساعدك.

صمت عماد بتردد، ولم تفلح ابتسامتها الهادئة فى إزاحة توتره ثانية كما فعلت بالبداية، قرأت الدكتوره سحر هذا على وجه فنهضت من مكانها، وقالت بهدوء:

-حسنا. هذا يكفي اليوم، كما تعلم فسوف تمكث هنا بعض الوقت. سوف يكون بينا الكثير من الحديث فيما بعد. سوف يصحبك الآن حكيم إلى حجرتك لتستريح قليلا.

قالتها وهى تشير الى الممرض، فنهض على الفور، وأشار له وللجندى قائلا :

-هيا بنا.

تقدمهما بثبات ولم يلتفت إليهما وهما يتبعانه ويسيران بين الممرات المتداخله. كان هناك الكثير من العيون التى ترمق الموكب الصغير بفضول وترقب. ومن حين لآخر

كانت هناك بعض الأصوات تبعث من خلف الجدران.خرجوا إلى الحديقة، وإتجهوا نحو مبنى واسع محاط بسور طويل. وصلوا بوابته الحديديه. وكان هناك أحد العساكر حاملا سلاحه بتراخ. حياه الممرض حكيم وتبادلا حديثا هامسا، وهو يشير بإصبعه نحو عماد قبل أن يفك العسكري الأقفال الضخمة، ويفتح الباب ..

دخلوا المبنى الذي اتخذ شكل مستطيل ذو ضلع ناقص، ورأى عماد يافطة كتب عليها (أ رجال) فاتجهوا إلى ممراتها. بدا المكان أكثر ظلاما بالأضواء الشاحبة التى تبثها لمبات النيون المثبتته الى السقف المرتفع، وبدا الهواء راكدا بارداً. ومن الناحيتين كان هناك عنابر وحجرات بأبواب معدنية غليظة وقضبان حديدة كئيبة تبث اليأس في النفوس التي يراودها الأمل. ثم توقفوا أمام حجرة كتب عليها (5)

فتح الممرض باباها وتقدمهم للداخل، ثم توقف فى منتصفها وعلى شفتيه ابتسامته الباردة.كانت الغرفة عجيبة بحوائطها المبطنه بالجلد وسقفها المرتفع والذى تتحرك فيه مروحة عتيقة في حركات خفيفة لاتحرك من الهواء ساكنا. كما رأى كاميرا رقمية مثبتتة فى السقف يستخدمونها حتما لمراقبة المرضى. كانت الحجرة خالية من الأثاث إلا من فراش مبطن كله هو الأخر بالجلد وفى أحد الأركان كان هناك باب خشبي منخفض يؤدي إلى ما يشبه الحمام. وإقترب منه الممرض وهمس فى أذنه ساخرا:

-هل أعجبتك حجرتك؟!. إنها خمس نجوم كما ترى!..

لم يفهم عماد لماذا يحدثه هذا الممرض الضخم بمثل هذه السخرية، فلاذ بالصمت، وهو يتحاشى إلنظر اليه. لكن الممرض لم يتركه وشأنه، وأكمل هامسا:

-هل تريد رأيي؟. أنت لست مجنونا، ولن تفلح فى إدعاء الجنون لتفلت من فعلتك الشنيعة. لو كنت ذكيا لفكرت في حيلة أخرى لتفلت بها من حبل المشنقة غير إدعاء الجنون. أنت سليم يارجل وهذا ما سيثبته التقرير النهائي عنك

مرة أخرى شعر عماد بالإرتباك من تلك اللهجة العدائية التى يحدثه بها ذلك الممرض المأفون. إنه لم يات بجديد حين أخبره أنه ليس مجنونا. إنه بالفعل سليم وعاقل ربما

أكثر من هذا الممرض نفسه، ولولا شهادة الدكتور محمد شاهين ضده لما كان هنا الآن.وجد نفسه يشعر بالحنق ثانية على الدكتور محمد شاهين وعض على شفتيه بغيظ وتمنى لو ينتقم منه يوما. وعاد الممرض ليتحدث اليه ببروده:

-إنني الممرض المسئول عنك بصورة أساسيه. سأكون دوما بجوارك لأراقبك وسأكتب تقريرى وملاحظاتى عنك ليعلمها الأطباء، صدقنى لو يكون تقريري في صالحك أبدا. من سوء حظك أنهم هنا يثقون بي وسيؤيدون حتما ما أكتبه عنك. إننى أخبرك بهذا لأنى أكرهك. إنا أفهم أى شيء غير أن يقتل المرء أمه، ولهذا لا أتعاطف معك ولا أحبك.

امتلئت نفس عماد بالغيظ من هذا الممرض الكريه وغالب نفسه كي لا يلكمه فى أنفه ليتوقف عن هراءه. وقال محاولا أن يبدو غير مكترث بما يسمعه :

-يمكنك أن تذهب الى الجحيم !..

بدت الدهشة للحظة على وجه الممرض وكأنه لايتوقع تلك الاجابة. لكنه تمالك نفسه بسرعة، وعاد ليرسم ابتسامته الباردة وهو يقول ببطء يحمل الكثير من الوعيد:

-لست أنا من سيذهب إلى الجحيم حتما. إن الجحيم الوحيد الحقيقي هو هذا المكان لو كنت تعلم. وأعدك أن تصطلى بناره كثيرا، فلا تتعجل!.

ثم أشار بإصبعه نحو الكاميرا المثبتة بالسقف وقال:

- هذا الكاميرا هنا كى نراقبك دوما، كى لاتؤذى نفسك، أو تفكر فى الإنتحار. لكنك لو وجدت وسيلة ما للإنتحار، وكنت أنا من يجلس خلف الكاميرا حينها ،فلن أهب لنجدتك ولن أتدخل. إفعلها يارجل واقتص من نفسك وأعدك أن أحترمك ثانية.

قالها حكيم وإندفع نحو الباب مغادرا يتبعه الجندى، جلس عماد على طرف الفراش الجلدى، وراح يفكر فى الأيام العصيبة المقبلة. شعر بالتوتر من اللهجة العدائية التى حدثه بها حكيم الآن، لم يفهم لماذا يعامله هكذا. هل يكرهه لأنه يعتقد هو الأخر أنه

قد قتل أمه..لكن ما شأنه بهذا..وما أدراه أن هذا ماحدث، يبدوأن الأيام القليلة القادمة ستحمل الكثير له ..

رمق الكاميرا بلا مبالاة وراح يعد لفات المروحة البطيئة المرتفعه محاولا التشاغل عما يدور فى عقله ويكاد أن يصيبه بالجنون ..أى ذنب يا ترى اقترفه ليقع فى هذا الشرك؟..

وتواصلت حيرته بلا نهايه

***

3

شعر بالجوع وبدا الأمر أنه لا أحد قد إنتبه الى وجوده منذ الصباح. كان النهار قد أدبر ، وأقبل الليل دون ان يأتيه أحد من الأطباء أو المرضين..راح يتحرك بعصبية وقد أرقه الجوع وبدأت أمعائه فى التلوى والتقلص إحتجاجا .. رفع رأسه نحو الكاميرا وفكر فى أن يحدث من يراقبه، لكنه أمسك لسانه فى اللحظة الأخيرة. ربما كان حكيم هو من يراقبه الآن، وربما كان مستمتعا وهو يراه جائعا متوترا، وحتما سيسره أن يرجوه عماد ليجلب الطعام له ..قبع فى ركن بالغرفة القرفصاء، وأخفى وجهه بين قدميه، وراح يتشاغل عن الجوع التفكير فى مصيبته. جاءه الألم والشجن على الفور كأنما كان بالأنتظار. أقبلت أمه من ثنايا ذاكرته بنظراتها الائمة ..تلك النظرات التى اعتادت أن ترمقه بها حين يخطئ، ولاترضى عنه. عاد ليبكي. إنه لم يقتلها، لكنه عجز عن مساعدتها حين حدث لها ما حدث .. عجز عن منعها من إيذاء نفسها ..ولم تفلح محاولاته فى تخليصها مما ألم بها ..

طفا على سطح ذاكرته وجه أخر فإنهمرت دموعه أكثر حتى كاد ينتحب..راح يفكر فى "منى". هل تراها صدقت مايقال عنه؟. لم يتحدث إليها بعد الحادث، والمرة الوحيدة التى رأها فيها كانت فى المحكمة تبكى وقد ذبلت ونحلت. هذه المرة لن تفلح محاولاتهما واصرارهما في أن يظلا سويا. لقد أتت النهاية، وليس هناك بصيص أمل فى أخر النفق المظلم الذى صار حبيسه.

كل شيء ضده ولا أحد يصدقه. لو قرر الاطباء أنه سليم -وحتما هذا ماسوف يحدث -فسيخرج من هنا، ليحكم القاضى عليه حكما قاسيا بلاشك .. يعلم أنه لن يُعدم فى قتل امه، لكن هذا لايمنع أن يُحكم عليه بالمؤبد ..ولو قرر الاطباء أنه مريض كما أدعى الدكتور محمد شاهين، فهذا قد يعنى أن يمكث في المستشفى إلى حين غير معلوم، لكنه حين يغادر الصحة بعدها، فسيظل موصوما بالجنون. شعر بالتيه والتخبط وبدأ دوار عنيف يحيط برأسه ويزعجه. أيكون هذا من أثر جوعه الطويل، أم هو من التفكير فى حاله والذى لايكل عقله من تذكره..

تناهى الى مسمعه الأصوات التى تتردد فى الردهة بالخارج مقتربة من حجرته. توقفت الاقدام أمام باب حجرته وسمع المزلاج وهو يتحرك قبل أن يفتح الباب، و يطل منه وجه جديد غليظ أسمر، يراه لأول مرة. كان ممرضا هو الأخر، ميزه من ملابسه البيضاء ومن البطاقة الملونة الملتصقة أعلى صدره، وعلها صورته ومطبوع علها إسمه. جمال محمود. كان يحمل فى يديه صينية علها طعام.

وضع الممرض صفحة الطعام فوق الفراش وقال له بخشونة:

-تناول طعامك بسرعة لنغادر الغرفه.. الدكتور أسامه يرغب فى أن يراك الأن.

قالها وتوقف بجوار الباب وهو يراقبه ببرود. تقدم عماد نحو الصينيه ورفع غطائها. كانت تحوى حساءا باردا وقطعة صغيرة من اللحم وبعض الأرز، كان مذاق الطعام سيئا، لكنه ظل أفضل من طعام السجن. راح يأكل على مهل، لكن جمال تململ وهتف به بنفاذ صبر:

-أخبرتك ان تسرع ياهذا. ليس أمامنا اليوم كله، وهناك ما أقوم به غير الاهتمام بك.

هنا اكتفى عماد بما تناوله، وأزاح الصينية جانبا وغمغم :

-لقد إنتهيت .

-إذا هيا بنا ..

قالها جمال وأمسكه من ذراعه وقاده للخارج. بدت السماء مظلمة صافية وقد خلت من القمر وإمتلأت بالنجوم وتحركت نسمات باردة منعشة فتنفسها عماد بشوق وعمق. كانت الطرقات التى تتخلل حديقة المستشفى خالية من المرضى، وساكنة لايقطعها غير همسات بعض حشرات الليل وصفيرها. إنتهوا الى مبنى آخر غير الذى دخله عماد فى الصباح وساروا فى طرقات اضوائها ساطعة وعلى جانبيها تراصت بعض عنابر المرضى المغلقة بالأبواب الحديدية اولتى أظلها الصمت الآن وقد خلد المرضى جميعا للنوم . انتهى الممر الطويل الى طرقة جانبية ساروا بها ومنها الى حجرة فى النهاية دلفوها ..

كانت الحجرة واسعة رحبة . رقد فى منتصفها مكتب ضخم مغلف بالجلد ،جلس خلفه رجل نحيل أزاح الصلع الشعر من مقدمة رأسه، وقد اشتعل جانبى رأسه شيبا. كانت لديه لحية خفيفة حول وجهه النحيف وكان يرتدى نظارة مربعة ضخمة أخفت نصف وجهه تقريبا. وبين أنامله استكانت بقايا سيجارة تحتضر وقد عبقت الغرفة بكمية هائلة من رائحة ودخان السجائر. بدا عصبيا وبدت ملامحه وخلجاته مشدودة كوتر قوس.

قدمه جمال للطبيب العصبي، فهز رأسه ببطء ورفع سيجارته المحتضرة نحو شفتيه، وسحب منها نفسا أخيرا حبسه فى صدره للحظات قبل أن يطلقه ببطء، وعيناه تتفحصان عماد بنظرات نافذة، قبل أن يشير اليه قائلا ببطء ورتابة:

- يمكنك أن تجلس ..إسمك عماد ،أليس كذلك؟.

تحرك عماد ببطء نحو كرسى جلدى امام المكتب وجلس عليه وهو يجيب :

-بلى، هذا هو اسمي.

-لقد طالعت ملفك الذى أرسلوه من المحكمة . لو كان ما به دقيق فأنت هاهنا لأنك متهم بقتل أمك، وقد زعم الدكتور محمد شاهين أنك كنت مريضا تعالج لديه، وأرسلتك المحكمة الى هنا لكى نؤكد هذا أو ننفيه..اليس هذا صحيحا ؟..

بدت لهجة الدكتور أسامه جافة تفتقد للود الذى كلمته به الدكتورة سحر فى الصباح. كان عصبيا وبدت يداه المعروقتان ترتعشان كلما اندفع فى حديثه. لم يجبه عماد وهو لايدرى ماذا يقوله له، فاطرق رأسه نحو قدميه، وصمت ..بعد لحظات تكلم الدكتور أسامه ثانية بعد ان أنهى سيجارته :

-أخبرنى يا عماد. هل قتلت أمك حقا؟..

سؤال ممل يتكرر بلا توقف من الجميع، ولا مفر أمامه من إجابته كل مرة..

-إننى لم أقتلها.

-هذا يعنى أن أحدا آخرا قد فعلها. فهل تعلم من يكون؟

-لا أعلم. لكنني لم أقتلها.

هز الدكتور أسامه رأسه بلا معنى، وهو يهمهم همهمات مبهمة، وعيناه تتأملان وجه عماد وقال ببطء بلهجة محايدة من العسير أن تتبين إن كانت تحمل الجدية أم السخرية:

-إذا ربما يكون شبحا أو شيطانا هو من قتل والدتك. هذا ما تخبر به الجميع. أليس كذلك؟.

-لست أدرى. إننى لم أرى من فعلها ..

أشعل الدكتور أسامه سيجارة جديدة بواسطة قداحة ذهبية على المكتب أمامه وأطلق من فمه وأنفه انفاسها الأولى نحو عماد، وقال :

-هل يضايقك أن أدخن ياعماد ؟..

لم يجب عماد وإكتفى بهز رأسه ببطء نافيا ..فأكمل الدكتور أسامه :

-حسنا دعني أخبرك بسر صغير. إننى لا أحب الدكتور محمد شاهين هذا، ولا أثق به، بل وأرى أنه قد فقد عقله بذلك الهراء الذى يهتم به من الخوارق وغيرها. تستطيع

أن تقول أننى أراه دجالا أفاقا، ولا يصلح أبدا أن يكون عالما أو طبيبا نفسيا محترما ، ولهذا فأنا لا أهتم بما ذكره فى المحكمة عنك ولا أعتد بتشخيصه

خفق قلب عماد توترا، ورفع عينيه متأملا الطبيب الكهل الذى أكمل بعد أن سحب نفسا آخرا من سيجارته ثم زفره:

-هل تفهم ما يعنيه هذا؟!. سوف أخبرك. أنا لا أراك مريضا نفسيا كما زعم، ولا أصدق ما تخبر به الجميع من أن شخصا خفيا هو من طعن أمك. هناك سبب بالطبع لإعتقادي هذا، وهو ببساطة أننى لا أؤمن بالأشباح أو العفاريت أو غيرها . فحتى لو كانوا موجودين فعلا فلم يصلوا حتما للتفاهة ليهتموا بقتلنا وإزعاجنا.

تصاعد التوتر فى نفس عماد ووجد نفسه يقول بصوت مخنوق :

-إننى لا أكذب. كما أننى لست مريضا ولا أدعى المرض. إن ما أقوله هو ما حدث بالفعل رغم عجزى عن إثباته.

إبتسم الدكتور أسامه إبتسامة باردة وهز كفه الممسكة بالسيجارة لينفض عنها بعض الرماد فى مطفأة السجائر التى أمامه وقال:

-إسمع ياعماد..لو شئت الحق، فتقريرى عنك جاهز فى عقلى قبل أن أراك. أنت سليم يارجل ولاتعانى من مرض ما. كان عليك أن تختلق شيئا أكثر إقناعا من حكايتك تلك لو شئت أن تنجو. إن الفترة التى سوف تقضيها هنا لا قيمة لها إلا إزعاجنا فى الواقع بالإهتمام بك. ولو كان الأمر بيدى لأعدتك للسجن الآن ثانية .

إحتشد العرق على جبهة عماد من اللهجة الهجومية التى يحدثه بها الدكتور أسامه، ووجد نفسه يهتف فيه بصوت حاول أن يجعله حادا متماسكا:

-إننى لا أختلق أى شئ ولا أكذب يادكتور. لايهمنى تصديقك من عدمه. إننى لست مريضا ولم أرغب أن آتى الى هنا بإرادتى. أعدنى إلى سجنى حالا وسأكون شاكرا لك لو فعلت ، لكن أرجوا أن تكف عن هجومك هذا، فأنا أشعر بالغثيان منه ومنك.

إتسعت إبتسامة الدكتور إسامه وأشار لجمال الذى كان يراقب ما يحدث باستمتاع :

-إذا أعده لعنبره ياجمال. يبدو أن ضيفنا قد مل منا سريعا، وها هو يهاجمنا.

تصاعد الحنق والغيظ فى نفس عماد وتمنى لو يسبه، وقد عقد الغضب لسانه. جذبه جمال للخارج وسار به بين الممرات بخطوات أقرب للهرولة. كان الغضب يتصاعد فى اعماقه هادرا كزلزال عنيف وكان يشعر بالمرارة لأنه ذلك الكهل القمئ قد كذبه وعامله بإحتقار. تمنى لو قهر عجزه ورد عليه أو سبه أو حتى بصق عليه. ربما لشعر بالراحة لو فعل.

كانوا يسيرون بجوار العنابر الصامته المظلمة حين اصطدم جسد ما بالباب الحديدى المغلق لأحد العنابر، فتردد صوت الارتطام مكتوما. إرتجف عماد للحظة وكذلك الجندى الشاب بينما تحرك جمال نحو الباب الذى صدر الصوت منه ليرى مايحدث. فى اللحظة التالية أطل وجه نحيل أشعث الشعر واللحية من نافذة الباب ذات القضبان الحديدة، وبدا علي وجهه الهلع والجنون، وعيناه تتحركان فى كل إتجاه كأنما يبحث بها عن عدو أو خطر خفي يطارده، ثم توقفت عيناه على عماد وصاح فيه برعب:

-أنت.إنه أنت أيها البائس. إنهم يتبعونك! ألا تشعر بهم؟!.

شعر عماد بالدهشة لأنه يناديه، وبادله نظرة متوترة وكاد أن يرد عليه، لولا أن سبقه جمال الذي هتف فى الرجل العجوز زاجرا:

-إبتعد عن الباب يابدوي وعد لفراشك. إنه وقت نومك. هيا أيها الأحمق عد لفراشك وأصمت.

لكن بدوي لم يعيره إهتماما وعاد ليهتف بلهجة أقرب للهذيان والجنون:

- انه خلفك يبحث عنك ليصل إليك. إن لم تتخلص منهم فسوف يتخلصون منك. سوف يصطحبونك معهم للجحيم. إذا أردت أن تتخلص منه فإبحث عنه. إنه ينتظر. إنه دوما ينتظر. لكنه في النهاية هو من ينتصر.

أصاب عماد الذهول مما يسمعه ولم يفهم ما الذى يعنيه بالضبط .. كان طبيعيا أن يعتقد فى تلك الكلمات الجنون وألا يعيرها اهتماما ..لكن إحساسا مبهما في نفسه دفعه للإهتمام بما يقوله العجوز المجنون هذا. فإقترب من النافذة المغطاة بالقضبان الحديدة. فى نفس اللحظة الذى صاح فيها جمال في بدوى بعصبية وهو يخبط على الباب بيديه:

-أخبرتك أن تأوى لفراشك أيها الأحمق..عد لفراشك وإلا عاقبتك.

تقهقر الرجل حينها نحو الظلام بالداخل فى نفس اللحظة التى تحدث فيها عماد اليه:

-ماتقصد يا هذا. من الذي يلاحقنى. لست أفهم ما تقوله.

جاوبته ضحكة مجنونة من الداخل وبدأت همهمات بالداخل تتعالى بالداخل من أفواه المرضى النيام الذين أزعجهم هذا الصراخ بلاشك. فى نفس اللحظة التى جذب فيها جمال عماد من ذراعه وهو يبتعد به عن المكان ..وقال عماد لجمال والحيرة والدهشة تنهشه:

-من هذا ولماذا يحدثنى هكذا ؟..

لكن جمال لم يهتم بإجابته وإكتفى بالرد عليه ببرود ومازال يجذبه من ذراعه:

-إنه عجوز مجنون يهذى مثلما يفعل الجميع هنا في كل لحظة. لقد كان يعبث بك وكلماته لاتعني شيئا.

كان الرد منطقيا لكن عماد لم يشعر بأن الجواب هو ماسمعه ..بل شعر أن هناك سر ما فى قول ذلك الرجل له ..وصل الى عنبره وتركه جمال وما زال يفكر بلا إنقطاع فى ما قاله الرجل

-إبحث عنه لتتخلص منه

ما الذى يعنيه بهذا ؟..

***

4

كان نومه مضطربا تخلله الكثير من الأحلام والكوابيس. رأى أمه غارقة فى دمائها وتشير اليه بالسكين الذى ماتت به وتحدثه بلهجة غامضة أثارت رعبه دون ان يدرك ما الذي تريده منه. ورآها فى كابوس أخر وقد نما لها ذيل طويل وإنبثق من جانبى رأسها قرنان صغيران وهى تردد بجنون .

-إبحث عنه وحرره. إبحث عنه وحرره.

ثم جاء ذلك الرجل المجنون المدعو بدوى وهو يرتدى هذه المرة بالطو الأطباء الأبيض، وقد وضع سماعة طبية حول رقبته وأشار لأمه بإصبعه بوقار وقال :

-إنها مجنونة ولن يشفها الا الصدمات الكهربائيه والا أكلتنا جميعا.

قالها وراح هو الأخر يطلق ضحكات مجنونة وهو يعدو مبتعدا.

أفاق من هذا الحلم، ولاحظ ضوء النهار المبكر المتسرب من النافذة المرتفعة الملاصقة للجوار. جلس على الفراش لاهثا ومسح بيده العرق الغزير المحتشد على جبهته رغم الهواء الخفيف الذى ترسله المروحة المرتفعة. قرر أن يظل يقظا وألا ينام ثانية، وعاد لأفكاره وهواجسه ..

وبعد ساعات دخل عليه حكيم ..كان يحمل افطاره وابتسامة لزجه متشفية، على وجهه، وبادره فور أن رآه :

-علمت ما حدث بينك وبين الدكتور أسامه بالأمس. لقد كشف الرجل حيلتك من أول وهلة. أستطيع الأن أن أؤكد لك أنك عائد لسجنك لا محالة .

لم يلتفت إليه عماد وحاول تجاهله. يكفيه مايعانيه. لكن حكيم لم يتركه وشأنه كعادته .وإستمر في استفزازه:

-إن الدكتوره سحر ترغب في أن تراك فور أن تنتهي من إفطارك. بالمناسبة، لا تعول على معاملتها الرقيقة كثيرا، إنها لن تنقذك من مصيرك. إن الكبار هاهنا هم من سيحكمون عليك في النهاية. وعليك أن تستعد لإرتداء البدلة الحمراء من الأن.

لم يتمالك عماد نفسه في هذه اللحظة فترك طعامه، بل واخرج من فمه لقيمة كان يلوكها وألقاها في الصينية بحنق وإلتفت إلى حكيم صائحا في وجهه محتدا :

-ماذا بك ياهذا، وما شأنك بي؟. أتركني لشاني ولا تتدخل فيما لايعنيك.

-ومن قال أنني افعل. إنني فقط أخبرك بما سوف يحدث.

شعر عماد بشهيته تفارقه، فأزاح الطعام من أمامه حانقا، وهتف بغيظ:

-لن آكل ما دمت أمامي.

-هذا شأنك ..لكن مادمت لن تأكل فدعنا نذهب للدكتوره سحر .

تحركا سويا للخارج ولحقهما أحد جنود الحراسه ..كانت الحياة قد عادت ثانية للطرقات والعنابر وإرتفع الصخب وإنتشر المرضى والممرضين. رمقتهم بعض العيون بفضول، وبينما إنحرفوا نحو المبنى الذي استقبلته فيه الدكتوره سحر في المرة الأولى، أبصر عماد الرجل العجوز الأشعث المدعو بدوي. كان جالسا في ظل شجرة بلوط ضخمة وقد أسند ظهره علي جذعها الضخم. أبطأ حينها في سيره قليلا وحبس أنفاسه بترقب منتظرا أن يكلمه الرجل. لكن الرجل إكتفى بأن نظر اليه للحظة، ثم صرف عينيه عنه نحو الفضاء بلا أي تعبير ما على وجه كأنه لايعرفه. تجاوزوه وعماد يفكر في مافعله الرجل بالأمس ولا مبالاته الأن. ربما كان جمال الممرض محقا في زعمه أن ماقاله له بالأمس لايعدو هذيان مجنون ولاقيمة له. كانوا قد بلغوا المبنى حينها ووجد عماد في نفسه رغبة ملحة لأن ينظر للخلف نحو بدوى. التفت برأسه فوجد

عيون الرجل تنظر نحوه بثبات. دخل المبنى وهو متأكد أن الرجل كان يراقبه. ترى ما سر هذا الرجل هو الآخر ؟!..

وصلوا لمكتب الدكتوره سحر. وخلف المكتب المبطن بالجلد جلس رجل متوسط القامه خفيف الشعر، يرتدى نظاره كبيرة هو الأخر. بدا أن عمره تجاوز الخمسين ببضع أعوام، وكان يرقبه بعيون ضيقة ووجه أبيض حليق به بعض التجاعيد المتكاثفة حول فمه وعينيه. بينما جلست الدكتوره سحر على مقعد أمام المكتب. نهضت حين رأته فشاهد على وجهها تلك الابتسامه الحلوة التى رآها بالأمس. ووجد نفسه مرة واحدة يدرك لماذا علقت فى ذهنه هذه الابتسامه. كانت تشبه ابتسامة منى التى كانت تمنحه إياها حين تكلمه أو تراه. كم كان يعشق تلك البسمة وينتظرها. تحدثت الدكتوره سحر مخرجه إياه من فكاره:

-مرحبا بك يا عماد ..أخبرنى كيف حالك اليوم، وهل نمت جيدا بالأمس؟

غمغم ومازال واقفا بجوار حكيم :

-الحمد الله ..إننى بخير.

-إذا لماذا تقف هكذا بعيدا. تعالى وأجلس هنا أمامى.

تحرك نحو الكرسى الجلدى المقابل لها وجلس عليه، فأكملت وهي تشير إلى الطبيب القابع خلف المكتب:

-هذا هو الدكتور أحمد دياب. إنه أحد أساتذتنا هاهنا وهو أحد الأطباء المسئولين عنك. هل تحب أن تتحدث إليه أم أن هذا يزعجك؟.

نظر للدكتور أحمد الذى يتطلع إليه بهدوء راسما ابتسامه مريحه على وجهه تختلف تماما عن تلك التى منحها الدكتور اسامه إياها بالأمس، فقال:

-لا بأس يا دكتوره. أنا تحت أمره

هنا تكلم الرجل للمرة الأولى. كان صوته رفيعا بعض الشئ. وقال له بهدوء:

-حسنا يا عماد. عملت كمهندس إتصالات في شركة اتصالات. أليس كذلك؟

-بلى ..لقد كنت كذلك

-أخبرني عن عملك. هل كنت تحبه؟ وهل كنت تحب زملائك فيه؟..

-نعم . كنت أحب عملى وأحب زملائى .

هز الرجل رأه حينها بتفهم وغمغم معقبا:

-هذا جيد ..فى الواقع من الرائع أن يعمل المرء فى عمل يحبه ،وأن يحب من يعمل معه. إننى مثلك تماما أحب العمل هاهنا كما أحب زملائى. هذا يريح النفس حقا. لكن دعنى أسالك سؤالا شخصيا: هل كنت كنت على علاقة ما بفتاة ما؟

شعر عماد بالحرج ولم يدر ما علاقة هذه الأسئله بوجوده هاهنا، ولاحظ بطرف عينيه الإبتسامة الباردة اللزجة على وجهه حكيم ونظرة الترقب البادية على عينيه الزرقاوين الباردتين كالثلج. فعاد يلتفت الى الدكتوره سحر التى ما زالت تبتسم إليه وهزت رأسه له مشجعة فأجاب:

-كنت مرتبطا بزميلة لى وكنا على وشك الخطوبة.

-وكانت والدتك على دراية بالأمر بالطبع

-نعم. كانت تعلم بالأمر

-وماذا كان رأيها فى تلك الفتاة؟.

جال بعقل عماد أنه الرجل يمارس لعبة ما بأسئلته تلك ..هل يعتقد أنه كان على خلاف مع أمه لأنها لم تتقبل إرتباطه بحبيبته ولهذا قتلها. هناقال بحدة:

-لو كنت تعتقد أن أمى كانت ترفض ارتباطي بفتاتي فهذا لم يحدث. لقد كانت أمى تحبها وتبارك زواجي بها.

إتسعت إبتسامة الدكتور أحمد وخلع نظارته بإحدى يديه ووضعها أمامه على المكتب وهو يجيب:

-أنا لم أقصد بأسئلتى أن أصل لأى شئ. أننا نتحدث سويا فحسب

هنا تدخلت الدكتورة سحر في الحديث وقالت:

-إنظر ياعماد. نحن هنا لسنا جهة تحقيق معك. ولايهمنا أن نصل لإعتراف منك أو وحتى نفي التهمة عنك. نحن هنا على الحياد تماما. كل ما نبغيه فعلا، هو أن نتحقق من حالتك النفسية وندرسها، والدكتور أحمد يفعل هذا بأسئلته تلك.

إنتقلت عينا عماد بينهما بتوتر قبل أن يخفض رأسه ويقول بصوت أقرب للهمس:

-حسنا. يمكنكما أن تكلما.

ران الصمت للحظات قبل أن يتحدث الدكتور أحمد ثانية:

-هل عانيت من قبل من مرض نفسى ما أو حتى نوبة إكتئاب صغيرة مثلا.

-لم يحدث هذا أبدا.

-ولا تشنجات أو إصابات بالرأس؟

-كلا ..

-وماذا عن علاقتك بأمك. هل يمكنك أن تشرح لى كيف كانت. أعنى هل كنتما على وفاق أم كنتما تختلفان أحيانا كما يحدث معنا جميعا؟.

-أعتقد أن ما يربطني بأمي كان قويا. لقد مات أبي وأنا صغير ورفضت أن تتزوج بعدها من أجلي ومن أجل أختي.

-لقد قلت أن أمك كانت ممسوسة بالجان. كيف عرفت هذا؟.

-هذا ما حدث. لقد تغيرت فجأة، وبدأت في فعل أمور مخيفة. ولقد رأها بعض الشيوخ الذين يفهمون في تلك الأمور، فأكدوا لي أن هذا مس شيطاني؟.

-وذلك الجني الذي استحوذ عليها هو من قتلها برأيك؟.

-لست أدري..

رفع الدكتور أحمد حاجبه الايمن حينها ومال نحوه عبر المكتب وقال:

-إذا من فعلها. لقد كانت شاهدا على ما حدث، وانت الوحيد إذا الذي يعرف قاتلها.

-لست أدري ..أقسم أنى لست أدري

شعر الدكتور أحمد أن هذا يكفي هذه المرة، فرسم ابتسامته الهادئة ثانية على وجهه، وقال وهو يعيد ارتداء نظارته ثانية:

-حسنا يا عماد. إن هذا يكفى اليوم، إنني أشكرك كثيرا لتعاونك هذا.

لم يعقب أحمد فأشارت الدكتورة سحر لحكيم أن يعيد عماد لحجرته ثانية فإنصرف به. هنا قال الدكتور أحمد لها:

-مارأيك يا دكتورة سحر؟..

-أعتقد أن علينا ألا نتعجل فى إصدار احكامنا عليه. لكنني لا أظن أنه يشكو من شيء ما في هذه اللحظة. ربما عانى وقتها من ذهان لحظى **حاد** Brief psychotic disorder, or brief reactive psychosis إن الأعراض هنا بالفعل، هناك الضلالات التى يؤمن بحدوثها، وهناك المؤثر القوى الذى ربما أدخله في هذه الحاله والذي ربما يكون موت أمه.

هز الدكتور أحمد برأسه موافقا على ما قالته، وغمغم:

-أعتقد أنك محقه. ربما هذا ما حدث بالفعل. فى النهاية مازال هناك شهران لنلاحظه لنتيقن من حالته. علينا بالفعل ألا نتعجل الحكم عليه كي لانخطأ.

ولاحظت سحر الاضطراب في عينيه

****

5

مضت عشرة أيام على وجود عماد بالمصحة النفسية ..كان عليه كل يوم أن يقابل الدكتوره سحر أو أحد الأطباء المسئولين عنه ليتحدثوا إليه ولينشوا ذاكرته ومكنون نفسه. كما اعتاد في كل يوم أن يرى "بدوي" واقفا أو جالسا بمكانه الدائم تحت شجرة البلوط الضخمة وهو يراقبه من بعيد دون أن يحدثه. لكن الرجل غريب الأطوار فعل هذا اليوم شيئا مختلفا.

كان قد ذهب بعد الظهر إلى مكتب الدكتور أشرف، أحد الأطباء الذين يراقبون حالته. وحين انتهى الطبيب منه سار برفقة حكيم عائدا لعنبره، هنا رأى بدوى يهرول فجأة نحوهم، وقد ارتسم على وجهه الكثير من الذعر والجنون، وما أن وصل إليهم حتى صرخ فى وجهه وهو يدور حوله بجنون:

-إحترس منه. لقد وصل إلي هنا. ولقد رأيته. ألا تشعر به . إنه حولك في كل مكان.

تجمد عماد في مكانه كالصنم، وإذا بحكيم يلطم الرجل العجوز على وجهه بقسوة غير مبرره فيتكوم الرجل الهزيل على الأرض ليركله حكيم ويصرخ فيه:

-إبتعد عن طريقنا أيها الاحمق، إياك أن تفعلها ثانية.

شعر بالشفقة على الرجل الذى إنكمش في نفسه وراح يزحف على مقعدته مبتعدا وهو يتاوه بألم، فصرخ فى حكيم بغضب:

-لماذا ضربته هكذا؟. إنه لم يفعل شيئا ليستحق هذا العقاب.

لكن حكيم صاح فيه بغلظة وهو يدفعه ليتحرك:

-لاشأن لك يا هذا بما أفعله. أنت لست هنا لتعلمنى كيف أتعامل مع هؤلاء المختلين. إهتم بشأنك فقط ولا تتدخل في عملي.

لاذ بالصمت حانقا. كان أكثر ما ضايقه في أيامه السابقة بالمصحة معاملة حكيم السيئة له . يحدثه ببرود ويذكره دوما بالسجن العائد اليه لا محالة. يؤخر طعامه أحيانا، ويتعمد أن يستفزه ويغضبه.

وعاد لحجرته وراح يفكر فى ذلك الرجل المجنون، لماذا إندفع نحوه هكذا وما الذي يحذره منه؟!. لقد قال له أنه قد عثر عليه. ترى ماذا يقصد بقوله هذا.

هل يعلم هذا الرجل المجنون شئ ما يجهله الأخرون، أم أن مايقوله هذيان لامعنى له. أرهق التفكير عقله فنام، لكن نومه كان لفترة وجيزة، ووجد نفسه يستيقظ فجأة، وهو يسمع تلك الهمسات المخيفة تدوي في أذنيه. بدت كثيرة متداخلة ،كأنما هناك العشرات ممن يهمسون في أذنه في وقت واحد بلغة لايعلمها . كانت الهمسات مخيفة وأحس وكأنها تنفذ إلى عقله وتؤجج نيرانها فيه. كانت أفعالا شيطانية . واتسعت عيناه ذعرا وزاغتا فى محجرهما، وهو يدور بجسده فى الحجرة بجنون بحثا عن مصدر تلك الهمسات المرعبة. حاول أن يسد أذنيه بكفيه، فلم يفلح هذا فى كتمانها . أخفى رأسه فى الوسادة فلم تختفي، فى النهاية وجد نفسه يصرخ بجنون. راح يضرب رأسه فى الحوائط المبطنة بالجلد كأنما يرغب فى تحطيمها لتفارقه تلك الهمسات. وهو يصرخ بجنون:

-كفى. عليكم اللعنة. اصمتوا وابتعدوا عني. لم أعد أحتمل.

لم تهدا الهمسات، فظل يخبط رأسه فى الحائط بجنون. ومضت لحظات قبل أن يدخل عليه جمال وبرفقته ممرض ضخم هو الأخر . أحاطا به وتعاونا على السيطرة عليه ثم أرقداه على الفراش رغما عنه وقاما بتقيده إليه. كان يقاومهما بجنون وهو يصرخ فيها متوسلا، أن يسكتا الهمسات اللعينة. ودلفت الدكتوره سحر الغرفة لاهثة مهرولة، وما أن رأته حتى هتفت بجمال:

-أمبول نيوريل بسرعه ..

خرج جمال من الحجرة على الفور ليجلبه، بينما راحت هي تربت على كتف عماد وهي تحاول تهدئته:

-إهدأ ياعماد ..إهدأ ..تمالك نفسك وستكون بخير

-أسكتهم يادكتوره ..إنهم يمزقون عقلي. إفعلي أي شيئ أرجوك..أوقفي تلك الهمسات بالله عليك.

وعاد جمال فى تلك اللحظة الحجرة وبيده محقنا ممتلئا بسائل مائل للإصفرار. أنحنى نحو ذراعه المقيد بالفراش وأفرغ ما فيه بأوردته. مضت بعدها لحظات بطيئه ظل فيها عماد يطلق صرخاته المجنونة المستغيثة، حتى سرى الخدر في جسده وغلف عقله، فخفتت الهمسات حتى تلاشت تماما وراح هو فى ثبات عميق .. راقبته الدكتورة سحر حتى انتظم تنفسه، ثم التفت الى جمال ليخبرها بما حدث. طالبته أن يأتيها بعماد فور أن يستيقظ ثم إنصرفت. لكن عماد ظل طوال الليل نائما، وحين إستيقظ فى الصباح شعر بالإعياء وصداع رهيب ينهكه. جاءه حكيم حاملا إفطاره وابتسامته اللزجة تسبقه، فبادره عماد بإعياء وهو يضغط على صدغيه بأنامله ويغمض عينيه بألم:

-أريد شيء ما لهذا الصداع العنيف.

وضع حكيم صينية الطعام على جانب الفراش وقال ببرود:

- إنه من تأثير ما فعلته بالأمس. لقد رأيت تسجيل ما حدث كاملا. صدقنى لقد كنت بارعا فى تمثيل نوبة الجنون تلك، لكنى لا أعتقد أن هذا كافيا لتقنعهم هاهنا أنك مجنون بالفعل. لقد رأينا هنا الكثير من تلك الادعاءات ولم تعد تخدعنا.

عاوده الغضب، وأراد ان يحتد، لكن الصداع اشتد فجاة ما أن حرك ليتحدث، فوجد نفسه يمسك رأسه بكلتا يديه ويصرخ:

-لماذا لاتدعنى وشأني فحسب؟. لماذا تعاملني هكذا؟.

-لأننى أستمتع بالأمر ، وكما ذكرت من قبل لك، أنا لا أصدقك أو أحبك.

-إذا أعطني أى شئ من أجل هذا الصداع اللعين..أعطني أي شيء يسكته.

-لايمكننى أن أعطيك أى شئ دون توصية الأطباء. انته من طعامك وسوف أذهب بك للدكتورة سحر. إنها ترغب فى ان تراك قبل أن تعود لبيتها بعد انتهاء نوبتجية الأمس. يمكنك أن تسألها مسكنا ما.

-إذا دعنا نذهب إليها.. إنني لست جائعا.

***

6

رقد على الفراش الجلدي في الظلام، وهو يفكر بحيرة فى تلك الأصوات المخيفة التى هاجمته اليوم. إنها المرة الأولى التى يحدث له فيها شئ كهذا. كانت الهمسات وحشية، غامضة، ومخيفة. بدا وكأنها تخترق روحه، وتنهش خلايا جسده وعقله. أتكون تلك الهمسات عرضا من أعراض مرضه، أم تراها رسالة خفية تحاول أمها أن ترسلها له من عالمها الأخر، أم هي عبث شيطاني، يبغي تهيج جنونه؟..

لم يشعر من قبل بالجنون مثلما حدث حين ترددت تلك الهمسات فى أذنيه. مازال لا يصدق أنه راح يضرب رأسه بالحائط بكل هذه القسوة لتزول عنه، ولولا تلك البطانة الجلدية التي تبطن الحوائط لكانت اصابته بالغة بلاشك.

دار فى رأسه تساؤل مفزع. هل يعني ما حدث له أنه مريض بالفعل؟. هل كان كل ما مر به أوهام راودته. هل كانت أمه سليمة ولم تكن مسكونة بالشياطين؟. هل كان مريضا يُعالج عند الدكتور محمد شاهين كما إدعى فى المحكمة؟. ولو كان هذا صحيحا، هل كان هو من قتل أمه في نوبة جنون حدثت له؟. شعر بالإعياء فرقد على الفراش بحثا عن نوم يغيبه عن واقع غامض مريب يسقمه.

مضى نومه هادئا لايعكره شيء، حتى استيقظ على صرخات تترد خارج حجرته. بدت الصرخات عنيفة وكأنما يعانى صاحبها ألما لا يطاق.. نهض مسرعا وأطل برأسه من القضبان الحديدية لباب حجرته ليرى ما يدور بالخارج. رأى الشرطى الذى يحرس

الباب ملتصقا بالحائط وبجواره وقف حكيم وممرض آخر، وبين أقدامهم كان هناك رجل ينتفض بعنف. كان جسده يتلوى بأكمله وعضلاته تنقبض وتنبسط بسرعة رهيبة، وقد مالت رأسه للخلف بزاوية مخيفة .شعر عماد أنها ستحطم عنقه حتما. تقلصت أسنان الرجل في فمه، وخرج من بينها الكثير من اللعاب كرغاوى كثيفة. راح الرجل حينها يزمجر كحيوان ضاري، وراقبه الباقون دون أن يقدم أحدهم على فعل شئ ما..

حبس عماد أنفاسه رهبة وتساءل بأعماقه لماذا لايتدخل أحد ما ويسعفه ..ومضت اللحظات ثقيلة وبطيئة قبل أن يهمد جسد الرجل تماما، ويستكين على الأرض بلاحراك، كأنما غادرت روحه جسده ..هنا دبت الحياة في أجساد الرجال الثلاثة ثانية، وتعاونوا على حمله وإدخاله إحدى الحجرات وإختفوا داخلها، وإن ظلت أصواتهم تصل لعماد. ظهر بعدها طبيب شاب في تلك اللحظة متجها نحو حجرة الرجل. وبعد دقائق قليلة خرج منها مصطحبا الممرض الذى كان مع حكيم.يتبعه الشرطي ثم خرج حكيم في النهاية فأوصد باب الحجرة على الرجل المريض، ثم تحرك ناحيته قبل أن يتوقف أمام باب حجرته المغلق. هنا رسم الابتسامة اللزجة الباردة على وجهه كالعادة، وقال وهو يقترب بوجهه من القضبان الحديدة التي تفصله عن عماد:

-إذا فقد استمتعت برؤية ما جرى . ظننك نائما

تجاهل عماد بروده وسأله وعيناه معلقة بحجرة الرجل:

-ما قصة هذا الرجل؟..

-القصة المعتادة!.. لقد قتل زوجته ثم ادعى الجنون، فأحالوه إلينا كي نلاحظه ونفحصه. تماما كما حدث معك. إنه سليم هو الاخر، ولايعانى من أى شيء.

رمقه عماد بشك، وعقله يستعيد ماجرى للرجل منذ قليل ، فاتسعت ابتسامة حكيم وكأنما أدرك ما يفكر فيه وقال:

-لا تصدق ما رأيته. فهو كما رأيت ممثل بارع. إنه يحاول أن يقنعنا أنه يعاني من الصرع. لكنه فشل في هذا. لقد أدركت هذا منذ الوهلة الأولى. ولهذا تركته كما رأيت يتمادى في إدعاءه حتى أنتهى، فحملته لحجرته ..

تذكر عماد الزاوية العنيفة التى مالت بها عنق الرجل وقال معترضا:

-وماذا لو كان مريضا بالفعل؟.

-ما أخبرتك به ليس رأيي فقط. إنه رأى الدكتور ضياء أيضا. لقد فحصه، وأكد ظني، حتى أنه لم يوص له بأى عقار.

قالها ومال بوجهه نحو القضبان حتى إلتصق به تماما، وهمس بسخرية:

-أعترف أنك كنت أكثر براعة منه في إدعاء المرض بالأمس. لكن كل هذا بلا طائل وستعودان لسجنكما ثانية قريبا لتتدلى عنقكما من حبل المشنقة.

تصاعد الغثيان في نفس عماد وأبعد رأسه عن الباب وصرخ في وجهه :

-أنت رجل مريض ..أنت مريض بلا شك.

تعالت ضحكة حكيم الساخرة، وهو يبتعد، فشعر بكراهية لا حد لها نحو حكيم في تلك اللحظة. إنه انسان مريض سادي يستمتع بإيذاء المرضى الذين يشرف علىهم.

تحرك نحو فراشه وجلس غاضبا على طرفه.. حاول ان يخرج حكيم من عقله فتشاغل بالتفكير في أمور أخرى. راح يتامل المروحة التى تدور برتابة. بعد حين بدأ وريد جبهته الأيمن في النبض بقوه . تحسسه بأنامله فآلمه. وفوجئ بالهمسة الأولى تتردد في أذنه ..

"NO BIS IN CIRCUITU"

إنتفض بذعر ، وتلفت بعنف حوله بحثا عن مصدر الهمسة . خيم الصمت للحظة، وقلبه يدق بترقب، قبل أن تكتسح الهمسات أذنيه وعقله مرة واحدة. أتت هذه المرة كاسحة لاتقاوم. لكنها لم تأت بمفردها بل خرجت الأشباح السوداء من كل مكان

حوله وراحت تنقض عليه. راح يصرخ بجنون وهو يحاول أن يصم أذنيه وعينيه بكفيه بلا جدوى. لقد غادرت الشياطين الحجيم من أجله هذه المرة. راح يدور حول نفسه بلاتوقف وهو يصرخ ويتألم. ضرب رأسه بالحائط مرارا فلم يتغير شئ ..إرتمى على الأرض وتكوم حول نفسه فلم تفارقه. رفع رأسه للأعلى وعوى فازدادت جنونا. وفى تلك اللحظة رأى أمه معلقة فى سقف الحجرة ترمقه بابتسامة شيطانية، وهي تردد الهمسات المخيفة كأنما هى عضو فرقة كورال يرددون تراتيل وحشية غامضة. وصرخ في نفس اللحظة التى فُتح الباب فيها، وسمع صوت أمه وهى تصرخ فيه:

-شياطين الحجيم بانتظارك أيها الأحمق. ألا ترى؟!

هنا راح جسده ينتفض على الأرض بلا توقف ..التوى ظهره حتى كاد أن يحطم فقرات ظهره، وأطبقت أسنانه على لسانه فأدمته، ولم تقو عضلات مثانته على كتمان مائها فأراقته وبلل ملابسه. رأى هذا حكيم بتوتر حقيقى، وقد أدرك أن الأمر لا إدعاء فيه. لحقه ممرض آخر وذلك الشرطى المكلف بحراسة المكان وتبادلوا النظرات العاجزة حتى همد جسد عماد بعد حين. هنا قال الشرطى للممرضيين وهو يلحظ خيط الماء الذى انساب من بنطال عماد:

-ألن تفعلوا شئ ما ؟..

انحنى حكيم نحو الجسد الهامد وقال للممرض الآخر:

-أحضر الدكتور ضياء بسرعه ..أخبره أن الأمر خطير وعاجل.

****

7

شعر بإعياء لاحدود له، وقد صار كل جزء من جسده يزن أطنانا. وعقدت الدكتورة سحر ذراعيها أمام صدرها وقالت له حين حاول أن ينهض من فراشه من أجلها:

- لا تتحرك. أعلم مقدار ما تشعر به من ضعف وألم، واعلم أن اجهادك لاحدود له. لكنها مسألة وقت لا غير. كل ما تحتاجه هو بعض الراحة وسيتجدد نشاطك ثانية.

-إنه أكثر مما تتخيلين. أشعر وكأن قاطرة قد دهستنى مرارا.

-هذا أمر طبيعى بعد نوبة التشنجات التى حدثت لك. لقد استهلك جسدك طاقته كلها تقريبا فى تلك اللحظات القصيرة التى حدثت التشنجات خلالها.

صمت عماد للحظة ليبتلع ريقه وشعر بلسانه الدامي يؤلمه، ثم غمغم وهو يغلق عينيه بوهن:

-وهل سيتكرر الأمر ثانية؟.

-من يدري؟. لكن أخبرني. هل أتتك تلك الهمسات ثانية

أومأ بعينيه وهز رأسه موافقا..

-ولم تعي ما تردده تلك الهمسات كالمرة السابقه ؟..

-نعم. لكن الأمر هذه المرة مختلفا. كان هناك أشباحا هاجمتني وكان شبح أمي بينهم.

شعرت سحر بالإثارة فنظرت له بترقب وقالت بدهشة :

-وماذا حدث غير ذلك

رمقها بضعف للحظة وخاف ألا تصدقه فقرر ألا يخبره بكل شيء. لهذا غمغم باعياء:

-كان هذا كل شيء. بعد ذلك لا أذكر أي شيء.

راحت سحر تخط ملاحظتها فى دفتر صغير كان بجيبها. ثم عادت لتحدثه ثانية :

-لكنك تعلم أن أمك قد ماتت وأنه ليس منطقيا أن تراها ثانية.

كان عقله مشتتا بشدة، وادرك أنها ربما تختبر ادراكه ومنطقية تفكيره. تنهد للحظة، وقال بصوت نجح فى أن يجعله قويا :

-أعلم أن أمى قد ماتت، ومن المستحيل أن تكون هاهنا، ولو كانت حية فلن تطير فى الهواء. أعلم كل هذا وأعي أن كل ما يحدث لى ربما هي أوهام وضلالات. كل هذا أدركه. لكنني أخشى أن يقودنى هذا للجنون وربما صرت مجنونا بالفعل ولا أدرى.

ابتسمت له بإشفاق، وقالت، هى تتخير كلماتها، بلطف:

-هون عليك يا عماد. لايوجد شئ فى علم النفس اسمه الجنون. الأمر لايعدو اضطربات عقليه ومشاكل عضوية. لكن الجنون لا وجود له فى الطب النفسى، لنقل أن الجنون هو مصطلح عام يصف أى شئ خارج عن المألوف أو التعود، أن العبقرى قد يقال عنه أنه مجنون. والفنان قد يقال عنه أنه مجنون . والشاعر كذلك. ألم يطلقوا على قيس مجنون ليلى-هل تعتقد أن هذا يعني أنه لو كان موجودا فى عصرنا لدخل هذه المستشفى لنعالجه من عشقه؟..

قالتها بشئ من المداعبة، لكنه لم يضحك. لم يكن يعنيه هذا الجدال عن المصطلحات ولا قيمة عندة إن كان الجنون مدرجا كمرض نفسى أم لا ..كل ما يخشاه أن يكون ما يحدث له، مقدمة مرض نفسي حقيقي له، أو يكون ما حدث له قد سبب خللا ما في عقله ..وانتبه حينها لما تقوله:

-المرض النفسي ليس أبدا عيبا يا عماد، كما انه مازال لغزا، لماذا يصاب البعض بنوع معين من المرض ولماذا لايحدث للآخرين؟.. لماذا يصيب المرض إناسا يعانون أشد المعاناة من فقر وإحباط ومرض، ولماذا يصيب المرض نفسه آخرين لايشكون شيئا ويحيون فى رغد وسعادة؟.. صدقني المرض النفسي لاخجل منه علي الأطلاق، لانه قد يصيب الجميع بما فيهم الأطباء النفسيين أنفسهم.. إن بعض المرضى هنا في المستشفي كانوا أطباء هنا بالمكان . أتصدق هذا؟!..

وقبل أن يعقب أصدر هاتفها رنينا يحمل نغمات أغنية دينية ..أخرجته ونظرت إلى شاشته. كانت رسالة من الدكتور أحمد:

"أريدك حالا فى مكتبى .. دعى ما تقومين به وتعالى."

أعادت محمولها إلى جيبها بهدوء، والتفت إلى عماد ورسمت بسمتها اللطيفة على شفتها ثانية، وقالت:

-أنا مضطرة للذهاب الآن، المدير يطلبني في مكتبه، لكني سوف أعود ثانية، وحتى ذلك الحين سيكون هناك أقراص تتناولها بإنتظام كى تمنع عنك تلك الهمسات والروئ التى لاترغب بها. تناولها بانتظام ولن تعاودك تلك الهلاوس السمعية ثانية باذن الله.

وإلتفت بعدها الى جمال، وقالت وهي تدون في تذكرة عماد العلاجية:

-أعطه سافينيز أقراص ثلاث مرات يوميا ، وقرص فاليام قبل النوم فقط. سوف أدون تلك العقاقير فى تذكرته ..

ذهبت بعدها إلى مكتب الدكتور أحمد. وتناهى لمسمعها الأصوات الصاخبة والمناقشة الحامية الوطيس التى تدور بالداخل. وميزت قبل انتدخل صوت الدكتور اسامه بعصبيته وحدته. فهمست لنفسها وهى تبطأ من مشيتها:

-مشاجرة أخرى بين التنانين. ليرحمنا الله!.

طرقت الباب ودخلت دون أن تنتظر الرد ..كان هناك الدكتور احمد خلف مكتبه وأمامه الدكتور خالد يجلس على المقعد الموجود على يمين المكتب، وفى الجهة المقابلة كانت هناك أريكة جلدية جلس عليها الدكتور أسامه الذى بدا التوتر على وجهه وهو يدخن كعادته ..

هتف الدكتور خالد حين دخلت مبتسما ومرحبا:

-وهاهى الدكتورة سحر قد جاءت لتحسم الجدل. إنها طبيبته المعالجة وهى أدرى الجميع بحالته. أخبرينا يا دكتورة برأيك عن حالة عماد. لقد رأيت الفيديو الذى سجلته كاميرا المراقبة لما حدث له حتما.

أجابته بسرعة:

-رأيته وفحصته بعدها.

-وما رأيك في حالته؟

هنا سبقها الدكتور أسامه وهتف بقوة وهو يلوح بيده في الفراغ:

-بالطبع "malingering" ..حتما هذا ما ستخبرنا به يا سحر.

هنا صاح فيه الدكتور أحمد باستهجان:

-يا رجل كفى تعجلا وافتراءا ..كلنا يدرك أنه من المستحيل أن يتقن أحد ما القيام بتلك التشجنات. مهما كان بارعا في التمثيل فلابد أن يخطأ.

-ولماذا لايفعل؟. كلهم صار يفعل هذا اليوم. أخبرني كم حالة تقابلها يوميا هنا لمرضى متمارضين. أكثر من نصف الحالات التى نراها كل يوم أليس كذلك؟. إنها الموضة الآن ، الكل يقرأ فى علم النفس هذه الأيام، وهناك آلاف الفيديوهات التى تصور مرضىً حقيقين على اليوتيوب، يمكنه بسهولة رؤيتها. وليس من العسير أن يتعلم تنفذيها وتمثيلها كما رآها .

قال له الدكتور خالد معترضا:

-ولماذا يفعل؟..ولماذا لم يقم بتنفيذ تلك الأعراض منذ البداية، بدلا من الانتظار أياما.

-إنه مهندس، ولابد أنه ذكى ويرغب فى أن يحكم حبكته. لابد أنه أعد العدة منذ وقت طويل لهذا الأمر.

هنا صرخ فيه الدكتور أحمد وهو يضرب سطح مكتبه بكفه إستنكارا:

-أعد العدة كي يقتل امه ثم يدعي الجنون في المستشفي؟.. هل تصدق حقا ماتقوله يا دكتور؟. أنت تتجنى عليه كثيرا يارجل. لقد كاد الفتى أن يهشم رأسه فى الجدار فى المرتين. منذ متى يفعل المتمارضون هذا. إنهم لايؤذون أنفسهم أبدا. هل لاحظت نوبة الصرع التى أصابته. أهذه يدعيها أيضا؟..

هنا تدخلت الدكتورة سحر فى الحديث، وقالت مؤيدة الدكتور أحمد فى رأيه:

-لو شئتم رأيي فهو مريض بالفعل. إنه يتحدث عن همسات ملحة سبقت نوبة التشنجات في المرتين بالإضافة لأشباح في المرة الثانية. ألا يبدو هذا مألوفا؟.

"Hallucinations and Delusions"-

صرخ الدكتور احمد وأكمل وهو يميل بجسده نحو الدكتور أسامه ويشير بسباته نحو وجهه بظفر:

- الأمر جلى للغاية، وليس بحاجة للكثير من التفكير كما ترون ..الفتى يعانى من اضطربات ذهانية تصحبها هلوسات سمعية وبصريه ..أنه الفصام يارجل ..الفتى مصاب بالفصام حتما .. ألا توافقيني في هذا يا دكتوره سحر؟.

-أوافقك تماما. فهذا ما أشعر به.

لكن الدكتور أسامه لم يرق له الأمر، فوضع ساقا فوق ساق وقال بإستنكار:

-تشعرين؟!.. طبيبه نفسيه وتقولين في رأي علمي تشعرين!. أنت تمزحين يادكتورة حتما. حين تحدثيني عن مرض أو احتمال ما حدثيني بلهجة علمية من فضلك. إننا هنا أطباء، ولا دخل للمشاعر أبدا في عملنا.

إحمر وجهها خجلا وتوترت، وحمل صوتها بعض العصبية وهي تقول:

-ليس هذا ماقصدته يادكتور..لقد قصدت أنه ربما يعاني من اضطربات ذهانية مصحوبة بضلالات بصرية وسمعية..

لكن الدكتور أسامه استمر فى مهاجمتها بلا مبرر، كأنما يستمد من هذا عونا له فى رأيه الذى يعارضه فيه الدكتور أحمد، والدكتور خالد ..وقال بابتسامة لم ترتح لها الدكتوره سحر وأزعجتها:

-أرى ان الدكتوره سحر تولي ذلك المريض إهتماما أكثر مما يقتضيه الأمر. كما أنها صارت تتعاطف معه ومع ما يدعيه.

هنا قفزت الدكتورة سحر من مقعدها بعصبية، وقد أزعجها ما توارى بين طيات حديثه من تلميحات لا تحبها. وهتفت فيه بغضب حقيقي:

-ما الذي تعنيه يا دكتور أسامه. ما معنى قولك هذا؟..

أجابها ببرود وهو ينفث دخان سيجارته نحو السقف دون أن ينظر اليها:

-انا لا أعنى شيئا..إنني اخبركم بما لا حظته.

تقافزت شياطين الغضب على محياها، وأحتقن وجهها الأبيض الجميل، فبدا في حمرته كحبة الطماطم، ووجدت نفسها تقول بحدة:

-لقد أخبرتكم برأيي، والرأي النهائي فيه متروك لكم. أنتم من يكتبون التقرير النهائى لا أنا . سوف أذهب الآن ولو احتجتم لشيء فأخبروني..

قالتها ورمقت الدكتور أسامه نظرة أخرى حملتها الكثير من المعاني الحانقة، قبل أن تغادر. وصاح الدكتور خالد في الدكتور أسامه بغضب واستهجان:

-ما هذا الذى قلته لها يا رجل. ألم تتعلم أن تنتقي كلماتك قبل أن تتفوه بها. هل ترى كيف أغضبتها وأحرجتها؟..

-إننى لم أقل شئيا لتغضب. إنها بالفعل توليه اهتماما زائداً.

هنا صاح فيه الدكتور احمد بحنق:

-لو كنت لاتدرك ما لمحت اليه في كلماتك فأنت في مشكلة حقا . لولا أنها مهذبة لردت على إتهامك بصورة أخرى لن تسرك حتما

لم يرد الدكتور أسامه عليه، وهو يدخن بعصبية، وإظلهم الصمت لوهلة، قبل ان يقطعه الدكتور خالد قائلا بهدوء:

-أرى أنك متحيز ضد المريض يا دكتور أسامة. "counter-tranferance" وهذا ليس من العدل لهذا المريض .

تكهرب الجو بغتة. كان الدكتور خالد يعنى أن الدكتور أسامه صار لايتعامل مع مريضه هنا بحيادية وأنه صار يتحيز ضده بلا مبرر. وكان هذا يعنى أنه يطالبه بمراجعة نفسه فى حكمه عن المريض. أو يتنحى ليستبدلوه بطبيب غيره . وبدا التوتر جليا على خلجات الدكتور أسامه، وبالرغم من عناده إلا أنه لم يرغب في أن يصل الخلاف إلى هذا الحد، فنهض من مكانه وسحق عقب السيجارة المتبقى فى منفضة السجائر الزجاجية المجاورة له بعصبية، وقال بهدوء مصطنع:

-حسنا. إفعلوا أيها السادة ما بدا لكم وأكتبوا فى تقريركم ما تشاءون. ثم ارسلوه إلى لأوقعه. لن أختلف معكم في ما تقررونه. لكن تذكروا أننى لا اوافقكم الرأى فى أى شيء حول هذا المتهم. هذا المتهم عاقل لا يعاني شيئا.

وغادر المكان دون تحيتهما غاضبا. وإستدارا الدكتور خالد نحو الدكتور أحمد وتنهد بإرتياح قائلا:

-هذا أفضل. خشيت ان يستمر فى عناده ويرهقنا باصراره.

هز الدكتور أحمد كتفيه بحركة مبهمة قبل أن يخرج التليفون المحمول من جيبه ويطلب رقما ما. جاءه الرد بعد الرنة الثالثه فقال على الفور دون مقدمات أو تمهيد:

-حسنا يادكتور محمد. لقد مضى الأمر كما طلبت. سوف نعد التقرير النهائى وسنثبت به أنه غير مسئول عن جريمته تلك.

كان الطرف الآخر هو الدكتور محمد شاهين. الذي يتنهد ببطء قبل أن يجيبه:

-لا أدري كيف أشكرك يا دكتور أحمد. يكفي أن تعلم أنك بهذا قد أنقذت بريئا من عقاب لاذنب له فيه. لقد قمت بالأمر الصائب يادكتور أحمد. ثق في هذا .

لكن الشكوك ظلت ترتع فى أعماقه بلا توقف. وظل ضميره يؤلمه بشدة متشككا إن كان قد فعل الصواب حقا أم أنه قد أخطأ، وساعد مجرما على الفرار بجريمته دون قصاص. ما كان يطمئنه قليلا انه قد رأى بعض الأعراض الحقيقية على عماد، أنهى

الاتصال بعدها وتبادل نظرة ذات معنى مع الدكتور خالد ولم يعقب أي منهما على الأمر ..

****

8

مرة آخرى أتى صخب المحاكمة وإزعاجها. عشرات العيون التى تنظر اليه بفضول وإلحاح، وفلاشات الكاميرات التى لاترحم. كل هذا كان موجودا دون "منى" هذه المرة. لماذا لم تأت؟. لا إجابة لديه. ظل ممدوح يشير إليه من بعيد وهو يبكى وجسده الضخم يهتز بلاتوقف. تذكر انه لم يبك فى المرة السابقة، أتراه ظن أنها النهاية وأن القاضى قد يحكم عليه بالإعدام هذه المرة فراح يبكي صديقه هكذا؟!.. وصرخ الحاجب فكف الصخب، ودخل القضاة من بعده وجلسوا واجمين قبل أن يتلوا الحكم الموجز ..

"إيداع المتهم مستشفى الأمراض العقليه .."

ساد الصخب مابين معترض كان يتمنى حكما آخرا، ومندهش لايصدق أن ينتهى الامر هكذا ..وبدا عماد في ذهول وسقط فى بئر من الحيرة والتيه، لايدرى إن كان عليه أن يسعد لهذا الحكم، أم ييتئس لحاله وقد وصموه بالجنون.. هنا جاءت الهمسات من بعيد،كأنما كانت هي الأخرى تترقب الحكم، وفى لحظات اكتسحت رأسه بلا رحمة، فراح يصرخ وهو يحيط أذنيه بكفيه، ويحاول جاهدا أن يضرب رأسه بالقفص كى تغادره أو يموت رحمة به..وراحت تردد باصرار:

"redire magister dryadalum vel peribis..

redire magister dryadalum vel peribis"

لم يكن هناك دواء هذه المرة ولا ممرضين ..بل جنود وأمناء شرطة وضباط راحوا يقيدونه بصعوبة بالغه دون ان يتوقف الهياج حتى أتت الغيبوبة من بعيد لترحمه من معاناته.

أفاق ليجد نفسه فى المستشفى ثانية. وجد نفسه أمام طبيب شاب يبدو عليه الإرتباك ولايدرى ما الذى عليه أن يفعله. كما كان هناك حكيم هو الأخر الذي رمقه بابتسامته البارده المتهكمة. في النهاية أوصى الطبيب بإيداعه حجرة الملاحظة حتى الصباح. فصحبه حكيم إلى هناك وهمس فى أذنه قبل أن يتركه بالحجرة بمفرده:

-إذا فقد عدت ثانية. إن هذا مفاجأة لى . ولأننى مازلت لا أحبك ولم يتغير رأيي فيك، ولأن الأمور قد تغيرت وصرت تتبعنا هذه المرة. فأنا أعدك بالكثير من المرح بيننا. سنمضى وقتا رائعا سيروقك حتما يا رجل.

وانصرف بعد أن حقنه بالفاليم كما طلب منه الطبيب الشاب. وفى الصباح وبعد أن رآه الدكتور أحمد والدكتورة سحر. أمروا بايداعه فى أحد العنابر مع بعض المرضى الأخرين بعد أن أوصوا باستمراره في تناول علاجه السابق..

تقوقع في نفسه. وراح يرقب كل مايدور حوله باضطراب حقيقى. تمنى لو كانوا قد تركوه في حجرة منفرده. كان لايدرى كيف سيعيش بين هؤلاء المرضى النفسين وهل يؤذه أحدهم يوما ما. كان دوما يتحاشى المجاذيب والبلهاء بل ويخشاهم. ربما يعود هذا لتلك الحادثة التى تعود إلى صباه حين كان في العاشرة من عمره. كان يومها عائدا من المدرسه برفقة أصدقائه حين رأوا أحد المجاذيب يدعى أيمن العبيط..راحوا يضايقونه ويصرخون فى وجهه:

-أيمن العبيط ..أيمن العبيط ..

راح المجذوب يهرول أمامهم بتوتر وخوف. لكن أحد زملائه كان وغدا حقيقيا. فإلتقط حجرا من الأرض وقذفه به على وجهه فأدماه. هنا راح أيمن يعوى متألما. وهاج وثار. لم يشاركهم عماد يومها في مضايقته. لكن سوء حظه جعله بينهم حينها. وحين ثار ذلك المجذوب ظن عماد أنه لن يؤذيه لأنه لم يضايقه. فلم يهرول مبتعدا عنه مثلما فعل الآخرون. كان خطئا أدركه على الفور حين فوجى بأيمن ممسكا به وقد غمر الدم وجهه وغربت عيناه جنونا وهو يصرخ في وجهه ويضبه ويخدشه بأظفاره. ووجد عماد نفسه يومها مستسلما بين يديه بلا حراك أو مقاومة. كان كالمشلول بين

يديه. وظل المجذوب يضربه وهو ينتظر أن يموت بعد قليل. وحين بلغ رعبه مبلغه، وراح قلبه يدوى فى صدره كطبول بربرية، فقد وعيه..

أفاق ليجد نفسه بين أحضان أمه تبكى برعب وهو تمسح بفوطة مبللة بالماء وجهه لتنظف جروحه.كان بعض الجيران قد أنقذوه من بين براثن أيمن العبيط فى الوقت المناسب، ورغم أن الحادثة قد مرت بسلام، إلا أنه ظل طوال عمره يصاب التوتر والهلع إن وجد نفسه فى طريق ما مع أحد المجاذيب أو عبر أحدهم بجواره أو صلى بجانبه فى المسجد..

الآن لم يعد هناك أيمن العبيط واحد فقط. بل هناك العشرات منه في المستشفى يعيشون في كل مكان حوله. هجره النوم في ليلته الأولى وهو يترقب الكارثة. لكن الليلة الأولى مضت بلا مشاكل ووجد نفسه فى نهايتها وقد نام دون أن يشعر، وحين إستيقظ كان الصباح قد أتى، ولم يكن هناك من أحد غيره بالعنبر. جاءه حكيم بالدواء الذى يتناوله فتناوله من بين أصابعه بهدوء وإنتظر أن ينصرف الأخير من أمامه، كما كان يحدث من قبل .لكنه لم يفعل. وجلس حكيم على طرف فراش يقابل فراشه، وظل يرمقه ببروده دون أن يخفض بصره. فشعر بالسأم وقال له بتوتر:

-والان ماذا؟. هل هناك شئ ما آخر غير الدواء؟.

-هناك تنظيف هذا العنبر. سوف ترتب الأسرة وتغير الملاءت، واكنسه، ثم تغسل البلاط. هذا كل ما في الأمر.

شعر بالدهشة وهو لا يرى في وجهه ذلك المرض البارد أى دعابة ما في الامر.

-أنا لا أفهم ما تعنيه.

دارت ذراع حكيم فى أرجاء المكان وهو يشير إليه وهو يجيب:

-أعتقد أن كلماتى محددة وواضحة ..أريدك أن تنظف المكان كله، أم تراك تريدنا نحن أن نفعله من أجلك أنت واولئك المجانين الآخرين. النظام هنا أن يقوم أحدكم كل يوم بتنظيف المكان واليوم هو دورك.

-وماذا إن لم أفعل؟..

قالها عماد بشئ من التحدى، فأجابه حكيم ببساطة دون أن تتعكر إبتسامته الباردة:

-سأجبرك على فعلها. إنه النظام هنا ولايمكنك أن تكسره أو تخرج عنه.

-وهل يعلم الأطباء بهذا؟!.

-إنهم من وضع هذا النظام. يمكنك أن تشكوني لهم لو شئت. لكنك ستنظف المكان قبلها.

تبادلا النظرات المتحدية، وتمنى عماد لو يستمر في عناده، لكن روح التحدى بأعماقه وعناده الذي عجز في الماضى عن ترويضه كانا قد فارقاه منذ زمن. لقد تكسرت ارادته وإعتراه عجز سخيف منذ مقتل أمه. وجد نفسه يطرق برأسه لأسفل ويقول باستسلام:

-وكيف يمكننى أن أنظف المكان.

برقت عينا حكيم بظفر وقال على الفور:

-هناك مقشه ودلو بالخارج ويمكنك جلب الماء من الحمام.

نهض عماد بتثاقل وخرج من العنبر قبل أن يعود بالمقشة والدلو ومنشفة صغيرة، راح حكيم يراقبه مستمتعا وهو يقوم بتنظيف المكان كأنما يبغي إذلاله، بل وتعمد ألا يغير من مكانه حين وصل إليه عماد بالمقشة كي يكنس المكان أسفل قدميه، وهو يشير له بسبابته ليدور من حوله بطريقة تحمل الكثير من الإهانة والتعالي. تمنى عماد لو أن إرادته طاوعته، فيحطم رأسه بيد المقشة الخشبى التي يقبض عليها، لكنه لم يفعل. حمل الجردل البلاستيكى بعدها نحو الحمام وحين عاد به ممتلئا بالماء فوجد حكيم يصرخ فى وجه أحد المرضى مطالبا إياه بالابتعاد عن المكان.

رقد على ركبتية على الارض ووضع المنشفة بالجردل وأخرجها مبللة بالماء وبدأ في مسح البلاط. شعر بالخجل من نفسه، وبالغضب مما يحدث فراحت يده تنظف

الأرض بعصبية وأنفاسه تتسارع وصدره يضيق بها. وحين رفع رأسه ليغير مكانه كانت أمه هناك فوق الفراش ترمقه بابتسامتها المخيفة وبعيون محترقة سوداء.

ارتجف فجاة ولم تقو قدميه التى يرتكز عليها على حمله فانزلق بظهره للخلف وسقط. وبينما راح الرعب يغزو وجهه، كانت ملابسه التى تلتصق بظهره تتشبع بالماء الذى يغمر البلاط. رمقه حكيم بقلق وهو يرآه ينظر إلى فراش خال بعينين جاحظتين هلعتين، فسأله وهو يتراجع بتوتر:

-ماذا هناك؟ .. ولماذا تحدق في الفراش هكذا؟.

لكن عماد لم يسمعه وقد رأحت امه تهمس إليه بتلك اللغة الغريبة الغامضة.. وبينما تعالى صوتها المخيف، ظهرت حولها الشياطين الخفيةبعيونها الحمراء المخيفة، فتداخلت الهمسات فى رأسه ثانية وبدأت حفلة الجنون مرة أخرى ..

راح يصرخ فى أمه التى تتحرك نحوه وهو يمد ذراعية نحوها ليبعدها عنه، وهو يزحف بمؤخرته على البلاط:

-ما الذى تريدنه منى؟ ..إبتعدى عنى وأصمتى؟ ..إبتعدى عنى !..

فتحت فمها عن إتساعه فلم يرى الا فجوة مظلمة كبئر عميق، وإرتفعت الهمسات والطرقات فى رأسه فصارت كالاف الطبول.. أخذ عماد ينتفض على الأرض وقد أصابته نوبة صرع جديدة . هرع إليه حكيم مراقبا وعيناه تدوران في المكان بتوجس وقلق وقد شعر بالهواء الساخن الذي غمر العنبر فجأة، هنا هرول مغادرا المكان واستدعى الدكتوره سحر التى هرعت نحو المكان. رأت البلل الذى يغمر ملابس عماد والشحوب الشديد الذى غزا وجهه ولاحظت أنفاسه الضعيفة الغير منتظمة، وانتبهت لبعض قطرات الدماء واللعاب التى التصقت بجانبي فمه. وضعت سماعتها على صدره وإستمعت لأنفاسه ودقات قلبه الواهنة للحظات قبل أن ترفع رأسها نحو حكيم وتقول له:

-أمبول " كلوبيكسول اكوافيس " بسرعه. إحقنه به الآن.

غادر حكيم المكان بسرعة لإحضار ما طلبت وعاد بعد دقيقتين به. ثم حقنه بسرعة، وقالت له الدكتوره سحر وهي ترمق عماد مشفقة:

-حكيم. لاداعى لأن تجعله ينظف المكان كالأخرين، لا تفعل هذا ثانية، بدل ملابسه تلك بأخرى نظيفة وراقبه طوال الوقت. لو حدث شيء ما أخبرني على الفور.

هز رأسه موافقا وقد عادت إبتسامته الأبديه إلى وجهه. كانت هى الأخرى تكره تلك الابتسامة، لكنها لم تعقب عليها، وأكملت :

-حين يفيق أخبرنى لنقوم بعمل رسم مخ له، ربما كان هناك خللا ما بكهرباء مخه وربما كانت هناك بؤرة نشطة في مخه، لا أريد أن نهمل أي احتمال.

-كما تامرين يا دكتورة.

وبعد ساعات خمس خضع عماد لرسم مخ. وضعوا اقطابا كثيرة تنتهى بممصات على رأسه، وإمتدت من تلك الأقطاب عشرات الأسلاك التى تداخلت وتشابكت ثم إنتهت الى جهاز عتيق خرجت منه أوراق مخططة عريضة عليها الكثير من المنحيات والخطوط. التقطت الدكتورة سحر الأوراق بعد أن نزعتها من الجهاز وراحت تتأملها باهتمام شديد، وتركيز تحول بعد دقائق قليلة الى حيره هائلة فتنهدت بعمق.

كان رسم المخ طبيعيا ولا أثر فيه لمرض ما، إذا فمن أين تنشأ تلك الهلاوس والتشنجات العنيفه.

راحت تفكر وتبحث عن إجابة ما بعقلها ولما عجزت قررت أن تستشير أساتذتها في هذا، ربما علموا ما خفى عنها.

****

9

بعد وقت وجيز أدرك عماد أن المرضى من حوله ليسوا وحوشا كما اعتقد وليسوا بلاعقل تماما كما ظن. إنهم بشرمثله، لكنهم يختلفون قليلا أو كثيرا عما اعتاده.

تعرف على الكثير منهم ورأى من حكايتهم أشياء لم يصدق يوما أنها قد تحدث. كان يبتسم أحيانا مما يفعلونه أو ما يقولونه، و حينا آخر كان يبكى حزنا لحالهم.

عالم آخر لم يعرفه من قبل، وأمراض وأعراض غريبة لم يصدق بوجودها قط. كان الفصام سيد الأمراض وأكثرها انتشارا في المكان. عشرات المرضى حوله يتبدل حالهم وتفكيرهم وتصرفاتهم في كل لحظة ولا يمكثون على حال واحد أبدا. يرى بعضهم يتمتم بلا توقف بكلام غير مفهوم. ويرى البعض الآخر شاردا دون أن يبدو عليه ما قد يشير إلى شعوره بأي شيء حوله. بدوا وكان عقولهم على بعد أميال من المكان كله. كذلك كان هناك ذوو الأعراض الخطيرة الذين تنتابهم من حين لآخر نوبات مدمرة من الهياج والثورة. هؤلاء كان مصيرهم العنابر المعزولة والمهدئات إلى الأبد.

كان هناك الدكتور سعيد عبدالعليم بعزلته وإكتئابه الأبدى. عجوز تخطى الستين من عمره، أشعث الشعر متغضن الملابس دوما. فيما مضى كان أستاذا للغة العبرية بكلية آداب عين شمس. كان الرجل ناجحا فى عمله وفى حياته كذلك. تزوج المرأة التى أحبها وأنجب ولدين شبا وكبرا أمام عينيه يوما بعد يوم ُيلاعبهم ويعلمهم الابجديه ويغنى لهم ويزجرهم ويعاقبهم لو أخطأوا. كانت الحياة حلوة بالفعل، حتى حدثت الفاجعة منذ عشرين عاما أو يزيد.

كان عائدا باسرته في سيارته إلى القاهرة عبر الطريق الزراعى قادما من الإسكندرية حيث قضوا أجازة آخر العام فى شقتهم المطلة على شاطئ العجمى. وقبل أن يصل الى بوابات القاهرة بعشرين كيلو مترا ظهرت من العدم فجأة المقطورة الضخمة التى فقد قائدها التحكم بها حين أصابه النعاس. حاول بجنون أن ينحرف بسيارته بعيدا عنها أو يتفاداها. لكنها لاحقته بإصرار قدري غريب حتى اصطدمت بمؤخرة سيارته لتنقلب سيارته مرارا على الطريق قبل أن تكف عن جنونها. ماتت زوجته على الفور وكذلك ابنه الأكبر وقد تهشمت جمجمته، وأصيب الأصغر بغيبوبة إستمرت لخمسة أيام قبل أن يلحق هو الآخر بأمه وأخيه، أما الدكتور سعيد فقد اصيب بكسور مضاعفة بالساقين، وشرخ بالعمود الفقرى.ونزيف بسيط بالمخ. برئ بعد حين من تلك

الاصابات جميعا، لكن إصابة عقله لم تبرأ. كان قد فقد عقله تماما مع من ذهبوا من أسرته. فصار يهذى طوال الوقت ويحدث أشباحا خفية. يضحك حينا ويصرخ أحيانا أخرى بلاسبب. قبل أن يلازمه الإكتئاب لأوقات طويلة حتى يعتزل العالم أكمله فلا يكلم أحداً ولايأكل أو يشرب. صار من العسير علي أسرته العناية به. فلم يكن هناك من بد من إيداعه مستشفى الأمراض العقلى. وهكذا صار نزيلا دائما للمكان.

تعرف عماد كذلك على عم مدبولي. ذلك العجوز الذى يقترب حسيسا من السبعين من عمره. كان لطيف الحديث غير مؤذ أو غريب في أفعاله. في الواقع لم يعد مريضا منذ سنوات طويلة وقد تحولت اقامته في المستشفى إلى مأوى له بعد أن فارق العالم أجمع. ولم يعد يذكر أحداً ممن بالخارج. كان قد أتى إلى المكان منذ أعوام بعيدة لم يعد يذكرها. قال أنه ربما اتى بعد النكسة، ظل يردد انه من طول مكوثه بالمكان صار يعتقد أحيانا انه قد ولد هاهنا، وأنه لا يتذكر أي شيء أخر بالخارج. كان قد عمل مدرسا لبعض الوقت، حتى أصابته هلوسات غريبة. صار يرى إناسا خفين يحدثونه، كما اعتقد أنهم يتحكمون بعقله. فراح يحارب أشباحا خفية. حتى سئمه أهله فأرسلوه للمكان. ظلوا يزورنه بانتظام في البداية، لكنهم انقطعوا عنه بعدها ولم يعد أحد منهم يذكره. نسوه فنسيهم، وغادروا ذاكرته وعالمه. فهجرهم. وصارت المستشفى هى وطنه الوحيد.

منذ أعوام حاولت المستشفى إخراجه منها، لانه لم يعد مريضا.. خرج منها بالفعل. لكنه أمام العالم الغريب الذى نسيه، وجد نفسه تائها لا يدرى إلى أين يذهب ولمن يلجأ. كان قد نسى أين كان يقيم، وأين كان يعيش. فى النهايه وبعد أيام من اللف والدوران حول المكان، ساءت حالته وإضطرب عقله. فمكث أمام باب المستشفى يستجدى الأطباء والمرضين وموظفى الأمن كي يسمحوا له بالعودة ثانية للمستشفى. راح يبكى بين أيديهم بل وإرتمى يوما تحت قدمي مدير المستشفى وراح يقبلها كى يعيده الرجل للداخل.

في النهاية أعادوه ثانية للداخل. لكنه في المقابل كان عليه أن يقوم بالكثير من الأعمال، كي يتجنب سخافات المرضين، كان ينظف الحمامات ويلبي طلبات المرضين، ويهذب حشائش الحديقة ويقلم أشجارها. ويصلح أي أعطال قد تطرأ في المكان. كل هذا كان يفعله بحماس وتفان، خشية أن يسئموا منه يوما ما فيطردنه للخارج ثانية.

كان الرجل أكثر من أحبه عماد بالمكان، وصار يأنس إليه كثيرا ..

عرف كذلك ناصر صبحى. كان مهندسا شابا فى مثل عمره تقريبا لكن حالته غريبة للغاية وطريفه. كان يرى أن كل من حوله هم شخص واحد فقط وأن ذلك الشخص يبدل هيئته وشكله من حين لآخر ليخدعه ويطارده. إعتاد دوما على العيش منعزلا عن الجميع، وكان يصرخ لو إقترب منه شخص ما. أول مرة رأه فيها كانت حين مر ناصر بجواره. يومها توقف أمامه فجأه وراح يتفحصه بنظرة إرتياب، وقد بدا عليه التوتر قبل أن يصرخ فى وجهه:

-هل تعتقد أننى لن أعرفك لو غيرت من ملامحك مرة أخرى. أنت واهم. إننى أعرفك جيدا. كف عن محاولاتك هذه والا أذيتك ..

هنا حاول عماد أن يتحدث إليه ليفهم ما يعينيه، لكن الرجل كان قد جن تماما حينها، وراح يقاتله ويضربه مما دفع عماد لأن يدافع عن نفسه هو الآخر فتشاجر معه. فيما بعد وفى إحدى جلسات علاجه التى كانت الدكتوره سحر تجريها له سألها عما يعانيه أمجد فأخبرته بأمره

كان يعانى من مرض نادر يدعى توهم فريجولي(Fregoli Delusion) ، الذي يرجع تسميته للمثل الإيطالى ليوبولدو فريجولي (Leopoldo Fregoli)، والذي اشْتُهر ببراعته في تغيير مظهره بسرعة أثناء تمثيله على خشبة المسرح.. المريض هنا يرى الجميع شخصا واحدا، يبدل ملامحه دوما ليضايقه ويتصلص عليه.

لم يكن أمجد هو اغرب الحالات التى قابلها. فهناك مثلا عم زكي الذى يعتقد أنه المهدي المنتظر، وأنه على الجميع أن يتبعوه لينجدهم من براثن المسيخ الدجال الذى

يراقبه ويحاول قتله. وراح يردد أن من وضعه بالمستشفى هى زوجته الكافرة التى لم تؤمن به، وإتبعت المسيخ الدجال لتتخلص منه ..

كانت هناك حكايات لاتنتهي وقصص لا تصدق رآها وعاشها في المصحة. لكنه فى النهاية أدرك أنهم هؤلاء المرضى لايخيفون أحدا. بل هم فى ذعر دائم من الجميع.

لكن شخصا واحدا ظل يفكر فيه طوال الوقت متساءلا ما حكايته؟!..

كان هذا هو (برعي) بنحوله ولحيته المهمله وجنونه.

لم يكف ذلك الرجل عن مراقبته وتحاشيه يوما..وظل عماد يجاهد مرار حتى يتحدث إليه ولو مرة واحدة ليعرف حكايته لكن الرجل كان في استعداد دائم للهرب من أمامه.

***

10

ظل بدوي على جلسته الأبديه وعُزلته الدائمة تحت شجرة البلوط بحديقة المستشفى يرقب العالم حينا وترنو عينيه نحو الأفق أحيانا أخرى. ودوما كان يهمهم بكلمات غامضة، وهو يحدث أشباحا لايراها غيره. ظل هذا حاله لا يشعر بأحد ممن حوله حتى أتى عماد. هنا صار عماد قبلته التى يتبعها، تبحث عنه عيناه ولا تستقران حتى تعثران عليه، فتظلان معلقتان به بلا سأم أو ملل. حاول عماد مرارا أن يحدث الرجل ليعرف لماذا يتتبعه هكذا وماذا يريد منه. لكن بدوي لم يترك له الفرصة، فكان دوما يلوذ بالفرار من أمامه كانما يهرب من شياطين الجحيم نفسها، فيظل مختفيا لبرهة ولا يعود لمكانه إلا حين يطمئن أن عماد لم يعد يبحث عنه.

جرب عماد أن يسال حكيم عنه يوما، لكن الأخير اكتفى بابتسامته الباردة الساخرة قبل أن يقول بإقتضاب :

-لا حكاية غريبة هنالك..إنه مجنون آخر ممن يعج بهم المكان، يختلق عشرات الهلاوس والجزعبلات في كل لحظة دون أن يأبه به أحد. دعك من هراءه ولاتفكر فيه.

لم تروى تلك الإجابة الساخرة المقتضبه ظمأ عماد، فجرب أن يسأل الدكتوره سحر هذه المرة عنه ..كان في جلسة علاجية معها وسألها عنه فرفعت رأسه نحوه بدهشة قبل ان تقول مبتسمه وهي تخلع نظارتها عن أنفها:

-ولماذا تهتم به ؟..

-لست انا من يفعل في الواقع، إنه من يراقبنى طوال الوقت منذ البداية.

هنا بدا الإهتمام عليها وقالت:

-وهل هو الوحيد من يراقبك ويتابعك أم تشعر أن الأخرين يفعلون مثله.

أدرك مقصدها على الفور..ربما تخشى أن يكون هذا عرضا آخرا من أعراض مرضه المزعوم. وربما ظنت انه مريض بجنون الاضطهاد ويعتقد أن الكل يراقبه ويترصده ..لذا قال لها محتدا :

-ياالله. بالله عليك يادكتورة لاتحدثينى هكذا. انها ليست أوهام أو ضلالات. إنه بالفعل يراقبني.

-ولماذا تعتقد انه يفعل هذا؟

-وما أدراني؟. ولهذا أسالك عنه كي أعلم لماذا يفعل.

اعتدلت على مقعدها وتركت الملف الذى كانت تطالعه، قبل ان تجيب سؤاله:

-حسنا، سوف أخبرك. بدوى هو أحد المرضى القدامى هاهنا. أحد أشجار البلوط العتيقة بالمستشفى كما نسميهم، أتى إلى هنا منذ عقود. زعم أنه يرى الجان والأشباح ويحدثهم ويحدثونه. كان رأسنا أنه هذا نوع من ضلالات إنفصام الشخصية وتم علاجه بكافة العقاقير الممكنه، بل وخضع كذلك للعديد من جلسات العلاج الكهربائى. لكن الغريب فى الامر أن إستجابته للعلاج كانت غير مرضية طوال الوقت، فلم تنتهى تلك الأوهام من عقله، ولم نشهد تقدما فشعرنا باليأس وتركناه وشأنه.

قالتها قبل أن تتسع إبتسامتها وتميل نحوه وتكمل بصوت غريب:

-ربما كان صادقا فى ما يدعيه دون أن ندري. من يعلم حقا مايدور بعقله، ربما كان يرى حقا هؤلاء المخلوقات الغريبة، وربما ليس مريضا بالمرة.

إرتجف جسد عماد وهو يتخيل أن يكون هذا الإفتراض صائبا. هل يعنى هذا أنه يرى شيئا ما لايراه حوله ولا يشعر به. محادثته الغريبة له حين حذره من قبل وأخبره أنهم وصلوا له فارتجف جسده وهمس:

- هل تعتقدين انه ربما يكون صادقا في ادعائه هذا وربما يرى أشياءا لا نراها؟.

أطلقت ضحكة قصيرة حينها وعادت لتعتدل على المكتب وقالت ببساطة:

-إننى أمزح قطعا ياعماد. فقط الرجل مصاب بخلل دائم فى عقله لاشفاء منه

لم تكن الإجابة كافية له. لكنه قرر حينها أن يتجاهل بدوى وألا يهتم به . ليراقبه أو ليدور حوله حتى كبندول الساعة. سيتركه وشأنه طالما لا يتعرض له.

لكن ما لا يعلمه الجميع هو حقيقة ما حدث مع بدوى. كان هذا قبل أكثر من أربعين عاما. كان بدوى قد التحق بكلية الأداب في ذلك الوقت. وكان يهوى القراءة كديدن زملائه فى هذا الوقت. لكنه تعلق بشئ أخر غير القراءات الفلسفية والروايات. وجد نفسه يغرق في كتب الخوارق والجان والشياطين وعوالمهم الغامضة المستترة. حدث هذا بفضل الشيخ حنفى الذى كان يقطن بالطابق السفلي من العمارة الذى كان يعيش فيها. لازم الرجل وحضر معه الكثير من جلسات اخراج الجان، وهام بهذا العلم عشقا، فصار يبحث عن الكتب القديمة التى تعنى به. قرأ العديد من الكتب الثمينة مثل اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان. وإغاثة المظلوم فى كشف خفايا العلوم. والجفر الجامع والنور اللامع. وصادفه الحظ فأهداه الشيخ حنفى مخطوطة أصليه لكتاب شمس المعارف الكبرى لأحمد بن علي البونى. أخبره الشيخ أن ما بيده نسخة أصلية وكاملة للكتاب لم تنلها يد التحريف والحذف التى إمتدت للكتاب عبر قرون من التداول.

قرأ بدوى الكتاب وإلتمعت فى رأسه فكرة لم يدرك عواقبها الوخيمة فى ذلك الوقت. فكر في أن يجرب إحدى التعاويذ التي بالكتاب، واختار أن يقوم بتنفيذ طقس يتيح له رؤية الموتى والجان. قام بتنفيذ التعويذة ببراعه يحسده عليها أمهر السحرة، لينجلى أمام عينيه عالم من الفزع رأى فيه المردة والجان والشياطين وأرواح الموتى فذهب عقله، وأتى به اهله الى المستشفى ليعالج.. لكن العُطب بعقله كان دائما، فلم يبرء منه وإن إحتفظ بقدرته على رؤية هذا العالم الخفى حتى الأن ..

تجاهله عماد لحين من الزمن، لكنه وفي أحد الأيام وقد كان يجلس على مقعد رخامي بحديقة المستشفى، وجده يرمقه بذهول ودهشة. شعر عماد حينها بالغضب وقد سئم تلك الملاحقات الغير مفهومة، ووجد نفسه يندفع نحوه ليرى ما هناك. لن يتركه هذه المرة ولو حاول الفرار كما يفعل كل مرة فسوف يتبعه ولو ذهب للجحيم. لكن بدوي خالف ما توقعه هذه المرة فى أمرين. لم يفر من أمامه كما إعتاد ان يفعل من قبل. والأمر الغريب الأخر انه بادره بالحديث فور أن اقترب عماد منه وعيناه تتحركان وتنظران للفراغ نظرات غريبة مريبة:

-إنهم يحيطون بك. إنني أراهم. انظر! ألا تشعر بهم؟!!

تبدد الغضب في نفس عماد وعاوده الذهول والرهبة، فقال بصوت مخنوق وهو يتلفت حوله بصورة تلقائية متوترة كأنما يبحث بعينيه عنهم:

-من هم الذين تراهم وماذا يريدون؟.

زاغت عينا بدوى وراحتا تتحركان فى كل مكان بجنون قبل أن يجيب هامسا وهو يميل نحوه:

-هناك امراة عجوز ميتة.لكنها تكرهك كثيرا. أستطيع أن أرى هذا في عينها. هناك أيضا الكثير من الشياطين. إنهم غاضبون جميعا. إنهم يريدونك، و يحدثونك طوال الوقت، ألا تسمعهم؟!

كانت كلماته مخيفة يخالطها الجنون، وفكر عماد بهلع. هل تكون تلك المرأة العجوز هي أمه. أيكون الرجل على حق في مزاعمه تلك، أم أنها هلوسات مجنونه يتوهما عقل تالف .. شعر بالاعياء فقال بضعف:

-أنا لا أسمع شيء. أخبرني لو كنت تسمعهم ماذا يقولون؟..

وجاءت إجابة الرجل سريعة على الفور حملت الفزع إلى قلبه. وراح يردد بصوت غريب مألوف:

**"REDIRE MAGISTER DRYADALUM VEL PERIBIS..
REDIRE MAGISTER DRYADALUM VEL PERIBIS"**

وقعت الكلمات على أذني عماد كالصاعقة وقد تعرفها على الفور. إنها نفس الكلمات الغامضة التى كانت ترددها الأصوات الهامسة على أذنيه ..

**REDIRE MAGISTER DRYADALUM VEL PERIBIS..
REDIRE MAGISTER DRYADALUM VEL PERIBIS**

راح بدوي يرددها بلا توقف بصوت رتيب مخيف وقد تجمدت عيناه، ومن بعيد أتت الهمسات فجأة تردد مع بدوي الترانيم المخيفة . رأى أمه حينها تطوف حول الشجرة الواقف أسفلها. رأى الكثير من الكائنات الغريبة التي ظهرت من العدم وهي تحيط ببدوى وترتل معه التراتيل الشيطانية ككورال من الجحيم. ورغم أن تلك الكائنات الشيطانية بكانت بلا وجه أو ملامح تميزها، لكنها كانت مفزعة.

ومن قلب الشجرة أتى. كان عملاق اسود اشتعلت عيناه وتوهجتا غضبا وعلى جانبي رأسه انحنى قرناه. رمقه للحظة ثم مد ذراعيه نحوه وهو يقترب منه.

كان هذا فوق احتماله فراح يصرخ، ثم سقط جسده على الأرض وراح يتلوى قبل أن تأتية التشجنات. كانت عنيفة هذه المرة كما لم يحدث من قبل، وكانت طويلة حتى أن كل الأطباء الذين هرعوا لنجدته قد أدركوها قبل أن تنتهى. راحت عشرات العيون ترقب جسده المتنفض بحيرة من يرى مثل هذه الإنتفاضات العنيفة للمرة الأولى.

وإنتظر الجميع طويلا حتى هدأ جسده وهمدت حركته فتعاونوا على حمله. أمرهم الدكتور أحمد أن يذهبوا به الى حجرة العلاج بالصدمات الكهربائية. كان يشعر بالإعياء الرهيب فلم يدرك كثيرا مما يحدث، لكنه شعر بنفسه مقيدا على فراش ما وحوله العديد من الأشخاص الذين يتحدثون بسرعة وعصبية. كان أحدهم يهتف قلقا:

-ألا يجب أن ننتظر حتى يأتى طبيب التخدير

لكن آخراً أجابه على الفور:

-لا ضرورة لهذا أنه فاقد لوعيه ولن يشعر بشئ. دعونا نبدأ.

هنا إشتعلت النيران بجسده ووهو ينتفض مع الدفقة الأولى من التيار الكهربائى فإشتعلت روحه نفسها. من ذلك الاحمق الذى زعم أنه لا يشعر بشئ؟. ومع الصدمة الكهربائية الثانية ماتت حنجرته فلم يقوى على إصدار أى صوت منها إحتجاجا أو ألما. وجاءت الدفقة الثالثه لتطوح أمه خارج عقله. راها ترحل عنه مبتسمة في تشفى وكأنما تهرب من تلك الالآم الرهيبة تاركة إياه لعذابه يقاسيه وحده. وجاءت الدفقة الأخيرة من التيار الكهربائى لتنتزع المارد الأسود نفسه من عقله فرأه يفر مذعوا كأنما تطرده الكهرباء، رأى الأنوار البيضاء الساطعة تظهر من بعيد، وعشرات الهمسات المريحة تطالبه أن يلحق بها. أيكون هذا الموت؟..

لكن عقله غاب حينها في غيبوبة عميقة قبل أن يحصل على الإجابة. غيبوبة إستمرت أياما راح يخرج منها للحظات ليعود إليها ثانية كأنما يلوذ عقله بها من الألم والرعب. وبعد إسبوع كان قد تحسن كثيرا وزال الكثير من التشوش عن عقله وإن ظل جسده يعانى من الالام مبرحة.

وهنا علم ماحدث لبدوى. أخبره جمال بكل شيء حدث فى تلك الايام التى قضاها فى غيبوبته حين جلب له الدواء. وكان ماحدث لذلك المسكين غريبا مخيفا.

بدأ الأمر مع نوبته التى اصابته. حينها راح بدوى يعدو في كل مكان كأنما يهرب من عدو خفى. كان يصرخ بفزع مطالبا الجميع بالنجدة من عدو خفي. لاحقه الكثيرون وبجهد هائل استطاعوا تقيده. كان مذعورا ثائرا كما لم يحدث له من قبل، فطلب الدكتور أحمد منهم أن يذهبوا به إلى حجرة الملاحظة وأن يحقنوه بالفاليم ليهدأ. فعلوا ما طلبه منهم واستمروا بجواره فى حجرة الملاحظة حتى نام. حينها قيدوه فى الفراش كى لا يؤذي نفسه لو أفاق فجاة ثم تركوه، لكن الصباح حمل لهم حدثا مفزعا. دخل عليه أحد الممرضين، فوجده معلقا من رقبته فى حلقة معدنية بالسقف مجردا من ملابسه كلها وقد تحولت تلك الملابس إلى إنشوطة شنق بها نفسه. كان الأمر غامضا عجيبا يحمل معه الكثير من الألغاز المبهمة.

أولها كيف تخلص من قيوده وقد كان مربوطا بها بإحكام، وكيف استطاع أن يصل إلى السقف المرتفع الذى يناهز الأمتار الأربعة ارتفاعا، ولماذا كان جسده كله موسوما بعلامات دامية محترقة كأنما وصمه أحد ما بالنار ، ولماذا رُسم ذلك الرمز الغريب على صدره. ثعبان يلتف حول نفسه في دائرة يتوسطها جمجمة بقرنين..

تذكر عماد ذلك الرمز الذى رآه من قبل على الجدار في حجرة أمه قبل أن تموت. كان نفس الرمز الذي وصفه جمال له. ودار بعقله تساؤل مفزع. هل قتلت بدوي نفس الشياطين التي قتلت أمه؟!..

بعدها وحين وجد نفسه قادرا على الحركة ثانية ذهب للشجرة التى عاش بدوي طوال عمره قابعا أسفلها. لايدرى ما الذى دعاه الى ذلك لكنه وجد نفسه يفعل. وهناك راح يفحص الشجرة فوقعت عيناه على النقوش المنحوتة على جذعها.كانت هناك امراة طويلة الشعر وقد رسمها بدوي بعينين واسعتين تلتهمان أغلب وجهها.. كان هناك الكثر من الكائنات الضيئلة حولها وكان هناك المارد الطويل بالعينين المخيفتين. نقوش مرعبة ذكرته بما رآه من قبل فارتجف. لكن ما جمد الدماء في عروقه كانت الكلمات المنقوشة أسفل تلك الرسومات البسيطة. كانت مكتوبة بخط صغير وواضح ..

أبحث عنه أو اهرب منه!! لكن إياك أن يصل إليك. إنه هنا من أجلك!

إحتشد على جهته حينها عرق كثير رغم برودة الطقس، وبدأ قلبه يدق بعنف توترا وحيرة . أتكون تلك الرسالة موجهه إليه

كان يعلم الإجابه المخيفة. وظلت عيناه معلقة بالنقوش والكلمات لفترة طويلة.

****

12

هل حقا هو مريض وكل ما حدث له ورآه من إختلاق عقل مريض؟..

إنه السؤال الذي لا يفارقه ولا يعثر أبدا على جواب له. كل أطباء المصحة يؤكدون له أنه مريض ويحاولون أن يقنعوه به. الأم التى عانت من مس شيطانى لم تكن كذلك، لكنك أنت يا عماد من كان مريضا بضلالات أوحت لك ذلك، وهناك شهادة الدكتور محمد شاهين هي الآخرى تؤكد ذلك.

-وكيف ماتت الأم ؟..

-لابد أنك من فعلتها..كل شيء يوحى بذلك ..لقد كنت بمفردك معها فى الشقه حينها.. التفسير الذى قدمته لموتها غير مقنع أو مقبول.. والسكين قد إخترق عنقها من الخلف، في موضع من المستحيل أن تكون هي من قتل نفسها، إذا لايتبقى أمامنا إلا الإحتمال الوحيد المقبول والمعقول ..أنت من فعلت هذا .

-واذا كان هذا صحيحا، فكيف لا أتذكر هذا..

- من الممكن أن تفعل أشياءا غريبة دون أن تذكر أنك فعلتها ..إنه الإنفصام ياعزيزى، ولست أول واحد يحدث له هذا ..إنظر حولك وسترى أن جميع المرضى قد فعلوا أشياءا كثيرة لا يتذكرون أو يصدقون أنهم قد فعلوها. إن ألاعيب العقل لاتنتهى، وحين يصير العقل مريضا يصبح أكثر جنونا فى ألعابه.. كما أننا نمتلك التفسير المقنع. إنه الذهان اللحظى.

هنا وحين تتعرض لمؤثر قوي ما، قد تفعل أشياءا يسقطها العقل من الذاكرة على الفور. ويصير من العسير استعادة تلك الذكريات ثانية. لذا قد يلجأ العقل الباطن الى اختلاق قصة آخرى كى تملأ الفراغ الذي حدث بالذاكرة في تلك الفترة التى لاتتذكرها.

-إذا هذا يعنى أنني مريض نفسى حقا؟.

-هذا ليس عيبا ولا يدعو للخجل..كلنا قد يحدث له ذلك ..إنظر حولك فى المصحه وستجد المرضى من كل الفئات.. هناك الأطباء، وهناك أستاذة الجامعة وهناك المهندسين والمعلمين وغيرهم.. بل ولدينا في هذه المستشفى طبيبان نفسيان فقدا عقلهما وكانا من قبل طبيبن هاهنا..كلنا يا صديقى قد يمرض ولا حرج في هذا أبدا.

-وهل يعني هذا أنني سوف أشفي في يوم ما؟..

- هذا ماسوف يحدث حتما، مادمت تدرك طبيعة مرضك وتتعاطى العقاقير المناسبة، وتطرح عنك أوهامك جانبا، فحتما سوف تشفى ..إنها مسألة وقت لا أكثر فلا تقلق .

-وهل قد أخرج من تلك المصحة يوم ما؟..

-لو وجدنا أنك قد شفيت تماما فسوف نخرجك على الفور.. صدقني إننا لا نرغب في ابقاءك هنا للأبد.

دار هذا الحديث بينه وبين الكثير من الأطباء عشرات المرات طوال الأعوام، التي تقترب من السبع، التى قضاها في المصحة النفسيه. كلهم كان يؤكد له أنه مريض وأن السبيل الوحيد لشفائه أن يقتنع بمرضه كي يبدأ عقله في تميز الضلالات من الحقائق.

ومع هذا الكم من الأراء المتشابهة لم يعد أمام عماد الا أن يتقبل ما يؤكدونه. إنه مريض بالفصام بالفعل. وكل الذكريات التى بناها عقله حول أمه وحول موتها كان من اختلاق عقله الباطن حتما. بل وحتى تلك الحادثة المرعبه ل"بدوي"، ذلك المريض

النفسي الذي شهد نوبته الأعنف هنا فى المستشفى والذى مات بعدها تاركا آثارا لاتمحى على جذع الشجرة التى ظل عمرا يقبع أسفلها. ربما تكون هذيانا جماعيا لعقليهما. هذا ما أكدته له الدكتورة سحر مرارا حين ترى تشككه في عينيه. إنهما مريضان بالضلالات ويران ما لايراه غيرهما ويرقب كل منهما الآخر ،وربما تحدثا سويا من قبل عن أوهاهما فغرسا تلك الأوهام فى عقليهما وصارت ضلالات مشتركه بينهما..

لكن ماذا عن موته الذى ما زال لغزا ؟. هنا راح الدكتور خالد يؤكد له أن هناك تفسيرا ماديا ما لما حدث. ربما فعلها أحد المرضى الآخرين فى غفلة من الممرضين والأمن..

إذا هو فى دائرة تبدأ وتنتهى عند نقطة واحدة. إنه مريض نفسي، وعليه أن يقتنع بهذا ليبرأ من مرضه..

لم تغادره الهمسات تماما، ومن حين لآخر كان يرى شبح أمه حوله. حينها كان يصاب بالهياج ويأتى الصداع العنيف الذي قد يصل للتشنجات.. لكن العقاقير القوية التى كان يتناولها حدت كثيرا من تلك النوبات فصارت تأتيه في أوقات متباعدة، قد يفصلها عن بعضها البعض شهورا طويلة ..

مضت الأيام عليه طويلة رتيبة متشابهة.. وكان أكثر مايزعجه في المستشفى هو حكيم. ذلك الممرض البارد الذي يتلذذ بالتحكم في المرضى وايذائهم. ومع الوقت عرف عنه الكثير. إن المستشفى مجتمع صغير فى النهاية ولا شيء يمكن إخفاءه فيه للأبد. علم أن هناك من المرضى الأثرياء من يدفعون له الرشاوى والهدايا كى يكف عنهم ويتركهم وشأنهم. وعلم كذلك أنه يتاجر مع باقي المرضى في الكثير من الممنوعات.كان يبيع السجائر بأضعاف ثمنها، وكان يبيع الأقراص المخدرة لمن يدفع، وسمع عماد بعض الاشاعات التي تتحدث عن أنه يجلب المخدرات كالهيروين للبعض مادام يدفع. هذه الاشاعة البشعة رددها البعض وأكدها له عم مدبولي، لكنه لم يتقين منها أبدا.

كان يرى ما كان يفعله مع باقي المرضى الذين لايمكنهم اعطاءه ما يرغب فيه من مال أو هؤلاء الذين لا يحتاجون ما يقدمه للآخرين من ممنوعات. هنا جعلهم يقومون بكل

شيء، من تنظيف العنابر وغسيل الملابس وتنظيف الحديقة، وغيرها. لم يشعر يوما عماد أن رجلا كهذا يمتلك قلبا في جوفه، كان يرى أنه قد جرد من مشاعر الشفقة كلها. وكيف لا يشعر عماد بهذا نحوه وهو يرى كيف يسيء معاملة الكثير من المرضى وخاصة كبار السن والذى تجاوز بعضهم العقد السادس أو السابع من عمره. كان من المعتاد أن يصفعهم على وجوهم أو يركلهم بقدمه على بطونهم ومؤخراتهم دون مراعاة لمرضهم أو سنهم وشيخوختهم لو أخطأوا أقل خطأ.

بالطبع لم يكن يفعل كل هذا بمفرده، فهناك جمال وباقى المرضين الذين يأتمرون بأمره ولايعصون له أمرا. إنه هنا كبيرهم الذي يدينون له بالولاء والطاعة. شعر عماد أن هؤلاء يكونون عصابة أو مافيا بالمستشفى وراح يتعجب كيف يتركهم الأطباء هكذا دون ردع.. طرح يوما حيرته وتساؤلاته تلك على الدكتوره سحر التي أجابته بما أدهشه:

-لا أخفي عليك سرا لو أخبرتك أننا نعلم بالكثير من تلك التجاوزات.. لكن لاحيلة لنا فى الأمر، حتى لو جاء إلينا مريض ما وشكى أحد المرضين. إنهم حينها يتحدون سويا لينكروا التهمة عن زميلهم، ودوما هناك الحجة الجاهزة المعدة سابقا. إنه مريض ويختلق تلك الشكوى. وحتى لو صدقنا المريض وعاقبنا الممرض عقابا ما، فلن يردعه هذا كما تظن. إن خصم يوم أو يومين أو حتى ثلاثة أيام من راتبهم لا قيمة له عندهم.

شعر بالعجز من كلماتها، هل هذا يعنى أن نترك المرضى هؤلاء فريسة لتحكمات هؤلاء المرضون.. إن الصمت على جريمة كهذه هو مشاركة في اقترافها. ووجد نفسه يطرح تساؤلا آخرا عليها:

-وماذا عن حكيم.. إنه من يحرك باقي المرضين هاهنا، يمكنكم التخلص منه ونقله لمكان آخر، وحتما سيضعف هذا الآخرين.

هنا ابتسمت في وجهه مشفقة من تفكيره وأجابته:

-ليس الأمر بهذه البساطة التي تعتقدها. فحتى لو ذهب حكيم فسيكون هناك الف حكيم غيره.. إنه سلوك وتعود يمارسه الكل. إن حكيم هنا لايمثل إلا قمة الهرم الفاسد. الحائط الذي يتلقى الطعنات والضربات عن الآخرين. لكن الفساد في نفوس الباقين هو الشئ العسير على الإقتلاع.. هل تظن أن تلك التصرفات كان حكيم من ابتدعها.. مخطأ أنت لو إعتقدت هذا ..من قبل كان هناك سلامه، وقبله كان هناك رفاعى وغيرهم..كل هؤلاء دولة واحدة للفساد تتغير أسماهم لكن عقولهم ونفوسهم الفاسدة لا تتغير.

كلماتها تعني أنه لا أمل، فصمت قهرا وغيظا. من حسن حظه أن حكيم أو أى ممرض آخر لم يضايقة بصورة مباشرة. كان يرى فى أعينهم خوف ما مبهم منه .. هل رعاية الدكتورة سحر له هى السبب. كان هذا إحتمالا بعيدا. ربما ماحدث مع بدوي من قبل هو السبب. إن قتله كان بشعا غريبا، فهل تراهم ربطوا ماحدث لبدوي به. كان هذا الإحتمال هو الأقرب لقبوله.. فى الواقع كان هذا من حسن حظه.

لكن المعاناة مع الآخرين لم تنقطع. ووصل الأمر الى التسبب فى مقتل احدهم، وكان هذا عم مدبولي. صديقه العجوز الذي يؤنس وحدته في المكان.. كان يطيع جميع المرضين، وينفذ ما يطلبونه منه، رغم وهنه وشيخوته وضعفه، ظنا منه أن هذا ما يجعلهم يبقونه بالمستشفى ولا يطردونه للخارج.. لكنه في النهاية سقط فريسة للمرض بغتة فارتفعت حرارة جسده وراح يسعل بعنف فرقد بالفراش. لكن حكيم لم يرحمه. وما ان لاحظ تحسن حالته قليلا حتى طالبه بالقيام بما اعتاد عليه من تنظيف العنابر. لم يقو الرجل رغم مرضه على الرفض فنهض بوهن وراح يفعل ما أُمر به، وهو لا يقوى على رفع رأسه. سقط فى المياه التى كان ينظف بها بلاط العنابر مرارا، فراح جسده ينتفض مرضا.

وحين انتهى من تنظيف العنبر كان جسده هو الآخر قد إنتهى..فقد وعيه فتعاون المرضى الأخريين على ارقاده على فراشه وكان عماد أحدهم..وقاموا بتغير ملابسه وهم يلعنون حكيم الذى فعل به هذا في أعماقهم.. في المساء راح الجسد الضعيف الواهن

ينتفض من الحرارة المرتفعة للغاية والتى تجاوزت الأربعين درجة حتما. وأتى الصباح حاملا النهاية لرجل عاش عمره بالمستشفى ومات بسببه. ومات عم مدبولي.

جن جنون عماد حينها وقد رأى أن حكيم هو من تسبب في موته.. وما أن رآه قادما حينها ليرى ماحدث حتى وثب عليه محاولا تمزيقه. لكن حكيم لم يكن ضعيفا وفوجئ عماد بالضربات تأتيه من كل مكان، نحو كل جزء من جسده بيد حكيم وغيره من المرضين الذين تآلبوا ضده. شعر بالدماء الحارة اللاذعة في فمه وأحس بالضربات التي تزلزل روحه. في النهاية فقد وعيه وحين أفاق علم أنهم قد حبسوه في غرفة منفردة لخطورة حالته كما إدعوا. وكان آخر ما سمعه هو صوت حكيم يهمس فى إذنه فى قسوة:

-أنت رجل ميت يا أحمق. لا تنتظر أن تحيا طويلا بعد الآن. لقد انتهى أمرك. هذا وعد مني!.

****

13

أفاق فتمنى لو أنه لم يفعل. تمنى لو ظل في أغماءته للأبد. كان الألم لايحتمل وكل ذرة من جسده تئن وتصرخ. شعر أن جفنيه يزنان أطنانا فلم يقدر على فتحهما، واحتاج لساعات أخري كي يكتشف أن العين اليمنى يمكنها أن ترى بعض الضوء لكن اليسرى لم تفعل. كانت ذراعيه تؤلمانه بشدة وقد تحول قفصه الصدرى لأسياخ من اللهب تكويه. لقد هشم الأوغاد ضلوعه حين ضربوه؟.

شعر بالعجز، وهو يشعر بكرامته التي أهدرت ورجولته التى إستباحت.. تمنى لو كان ضربهم هذا أفضى لموته.. ربما لم يكن حينها ليشعر بالمرارة التى تلتصق بحلقه الأن.. لكنه عاش.. عاش لترتع مرارة العجز والهزيمة في نفسه، ولتنمو بذور الكراهية والإنتقام في نفسه..

لقد صار بينه وبين هؤلاء ثأر لن ينساه أبدا.. ويوما ما سوف يحصل على ثأره.

بعد ساعات من الألم والإنتظار دخل عليه أحد ما. أراد أن يتكلم فأعجزه الإعياء فلاذ بصمته. لكن ذلك الشرير لم يتركه فراح يضغط بأصابعه على عظامه ربما ليزيد من ألمه، فأفلتت صرخة ألم من فمه لم يقدر على كبتها. لحظات بعدها وأحس بطعم أقراص الدواء المرة في فمه فأراد أن يلفظها، لكن من دفع تلك الأقراص في فمه لم يدعه يفعل' وضغط على صدره فصرخ ثانية، وسمع ذلك الغريب يهمس في أذنه:

-ابتلع دوائك أو إحتمل هذا الألم للأبد.

كان الألم وحشا شرسا، لاقبل له به فابتلع الأقراص المرة مجبرا ومرة أخرى تحدث إليه الغريب الذى لم يتبينه قبل أن يتركه:

- حكيم يبلغك تحياته.

تمنى لو كان عقله صافيا ليعلم من كان هذا، ولماذا هدده بحكيم.. لكن لحظات من الدوار العنيف إكتنفته فجأة، بعدها زال الألم تماما، وذهب ثم لم يشعر بشيء.

في اليوم التالي تكرر الأمر نفسه. يستيقظ من نومه ليصطدم بآلامه التي لاتطاق وتمر ساعات بطئية من الانتظار قبل أن يأتى أحد ما ليعبث بعظامه فيطلق فى جسده ألسنه من لهب الألم. وبعدها ومع اللهاث والعرق يدفع ذلك الغريب الحبوب المرة نحو فمه مرغما إياه على تناولها ليخفت الألم بعد حين ويفقد وعيه.

وفى اليوم الثالث تحسنت قدرته على الرؤية بعينه اليمنى قليلا، لكن الألم لم يخفت..ورأى من دخل عليه هذه المرة ..دارت عينه نصف المفتوحة معه فلاحظ الأخير ذلك وقال ساخرا:

-أرى أن إحدى عينيك قد عادت لتعمل.عليك أن تستمتع بهذا الآن يارجل فلن يدوم هذا طويلا.

كان حكيم هو من يحدثه هذه المرة. حاول ان يدفعه ويبعد يده الممتدة بالدواء نحو فمه فلم يقدر، وبلا مبالاة دفع حكيم يده الممتدة.فجاء الألم رهيبا. وابتلع الاقراص المرة رغما عنه وسمع حكيم يقول:

-لقد انتهيت أيها الأحمق. كان عليك ان تفكر جيدا قبل أن تفكر في الاعتداء علي.

خفت الالم وعاد الظلام ثانية. ثم تكرر الامر لأيام طويلة. خفت الألم لكن ذهنه عاد مشوشا ولم يعد بقادر علي التفكير في أي أمر. وفي اليوم الذي استطاع فيه ثانية الجلوس بمفرده على حافة الفراش عاودته الهمسات والرؤى المخيفة. عشرات العفاريت التي تحيط به ومئات الوحوش التي تبغي الفتك به والهمسات المخيفة التي تطارده. راح يصرخ في جنون. وجاءه ممرض ما وحقنه بشيء ما ذهب بوعيه، لكنه ما ان أفاق حتى عاودته الرؤى الرهيبة، راح يصرخ طلبا للنجدة ليهرع إليه احد الاطباء هذه المرة وطلب من الممرض الذي يرفقته حقنه بمهدئ ما.. ثم يفقد وعيه ليفيق بعد ساعات إلى أوهامه التي حيرته وحيرت أطبائه..

أعطوه المهدئات والمنومات لتصير حياته رتيبة، يفيق ليرى تلك الهلاوس فيتناول دوائه ليفقد وعيه لساعات ثم يتكرر الامر.

لم تشعر الدكتورة سحر بالراحة مما يحدث..هناك امر مالا تفسير له في حالة عماد. لماذا تدهورت حاله هكذا ولماذا لم يعد يستجيب لعلاجه كالسابق. لاح لعقلها هاجس ما فذهبت إليه. كان في غيبوبته حينها فدفعت محقنا جلبته معها في وريده وسحبت بعض دمائه ثم ذهبت للمعمل. طالبتهم هناك بفحص نسبة العقاقير في تلك الدماء، وحين ظهرت نتيجة الفحص، علمت الحقيقة المريبة. كان دمائه مشبعة عن آخرها بالعقاقير المخدرة التي تسببت هلوسات. كان هذا يعني أن المرضين يتعمدون أعطائه تلك الأدوية لدفعه للجنون..

أخبرت الجميع وتم التحقيق مع جميع المرضين والأطباء المسئولين عن عماد وانتهى الامر إلى تغير المرضين المسئولين عن عماد بآخرين اكثر ثقة.. كان مؤسفا ان التحقيق لم ينجح في ضبط الفاعل الحقيقي بين المرضين وإن كانت علم الجميع من يكون.

تحسن عماد هذه المرة.. وحين عاد لصحته ثانية وعلم ماحدث له.. علم ما فعله حكيم معه وكيف كاد يدفعه لجنون لا شفاء منه.. وكان ثأر أخر نما بينهما فعلم انه لن يتركه وشأنه ابدا بعد كل مافعله..

مضت ايامه بعدها هادئة كمستنقع يحوي ماءا راكدا.

لم ينسى ولن ينسى أبدا ما حدث له من حكيم وما فعله مع عم مدبولي..

يوما ما سيخرج من المستشفى وسوف يبحث عنه لينتقم ..

يوما ما سيفعل..

كان متاكدا من هذا ..

****

الفصل الثالث

الشيخ الأسود

(قبل 100 عام)

1

ازدحم بهو القصر الفخم بالحضور. ارتفعت الضحكات وانتشر المرح. وُقرعت الكؤوس في بعضها أملا في صحة تدوم، وتُبادلت الانحناءات في تحيات حارة أو باردة. تنحي البعض ليتحدثوا حديثا سريا، يدرك الكل أنه لن يخرج عن توقع الخطوة التالية للإنجليز بعد أن أصدر الخديوي عباس حلمي الثاني، عفوه عن 9 من المتهمين في حادثة دنشواى الشهيرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبده. لن يرضي الأمر الإنجليز وكل الاحتمالات بعد ما فعله صارت ممكنة..

انه بداية العام 1908..

وكان الحدث كان أخرى صاخبة في قصر إسماعيل باشا مراد عبدالشكور. كان إسماعيل باشا رجلا مختلفا عن رجال زمنه. كان رجلا عصريا أوربي النشأة والتفكير ، كما كان يهوى الغموض والمفاجأت ويتقن تنفيذها. وكانت حفلة اليوم مختلفة.

فاليوم هناك المغنى الشهير الذي ستنتهي به السهرة "عبده الحامولي". وهناك أيضا الفاتنة الشامية التي سترقص بين الحضور فى هذا الحفل لتسلب لبهم بحلاوتها ورشاقتها. وفي النهاية هناك مفاجأة أعدها لضيوفه ولم يفصح عنها.

مالت على أذنه إحدى الفاتنات المتبرجات. وقد ارتدت فستانا لبني طويلا بلا أكمام وهمست بدلال:

-ألم يحن الوقت لتفصح لي عن مفاجأة الليلة يا اسماعيل باشا. أم مازال الامر سراً؟

لكنه رد عليها برقة وغموض دون أن تفارق ابتسامته شفتيه:

-لا أسرار حتما بين الأصدقاء يا جولنار هانم..لكن المفاجأة تفسد حتما لو كشفت قبل حينها.ألا توافقينني على ذلك؟..

.

ثم تحرك نحو ضيف جديد وهو يهز رأسه وعينيه بتحيات مقتضبة للحضور من حوله وعيناه تنتقل للساعة الضخمة فى صدر البهو.. بعد خمس عشرة دقيقة سينتصف الليل ليلقى على الحضور مفاجأته التى يعلم أنها ستبهرهم كثيرا وستصير حديث المجالس طويلا..

الموسيقى العذبة الهادئة تصدح في المكان وبعض الحضور من الأزواج والعشاق كانوا قد ذابوا في رقصات حالمة هامسة. وفى ركن قصي من الصالة توقف شاب وسيم يحدث زميلا آخر وعيناه معلقة بالفاتنات. يرمقهن بعينين جائعتين.وحتى اقترب منه أحد الخدم بلباسه الطويل المخطط الشهير.وهمس في أذنه بكلمات زادت وجهه احتقانا فوق احتقان الخمر الذي احتسى الكثير منه. وهو يسلمه قصاصة صغيره. طالع الشاب مابها على عجل.ثم التفت الى إحداهن وكانت ترمقه بإعجاب. فحياها بهزة رقيقة من رأسه قبل أن يستأذن صاحبه. ويسبقها إلى الشرفة تسبقه أمنيات غير بريئة.

لكن كل هذا توقف فجأة حين أعلنت الساعة الضخمة في منتصف بهو القصر منتصف الليل بدقات قوية. هنا تحولت العيون كلها لإسماعيل باشا. عدل الرجل من بذلته ال(سموكينج) السوداء، ورسم على شفتيه اكبر ابتسامة ممكنه، وتحرك نحو منتصف البهو تماما حيث قبعت الفرقة الموسيقية خلفه وقد توقفت عن عزفها، واستعد لأن يتحدث إلى ضيوفه حين لوح أحدهم نحوه بذراع مترنح تحمل كأس خمر فارغ:

-إذا فهذا وقت مفاجأتك يا باشا؟!.

-إننى هنا لأقدمها لكم جميعا يافوزى بك..

وصمت للحظة ليجذب انتباه الجميع قبل أن يعاود حديثه.

-اعلم أن الكل يترقب هذه المفاجأة التي أعلنت عنها في دعوات حفل الليلة،ووصلني أن البعض يهمس أنها فرقة بيلشوى روسية، واعتقد البعض الأخر أنها تلك الراقصة الشامية الصغيرة التى لا أذكر اسمها الآن.. في الواقع يؤسفني للغاية أن أخيب ظن من اعتقد كل هذا.. فالمفاجأة هذه الليلة مختلفة تماما. وأعتقد جازما أنها ستروق للكثيرين منكم..

قاطعته هذه المرة إمرأة متصابية فى العقد الخامس من عمرها ترتدى فستانا بلا أكمام قصير كشف عن الكثير من جسدها، وقد لطخت وجهها بأصباغ ثقيلة رممت ملاحة قديمة في وجهها، وبدت مترنحة للغاية من سكرها، وهي تهتفت بنزق:

-ربما أحضرت ملكة بريطانيا لتشاركنا الحفلة، دعونا نشرب نخب الملكة يارفاق.

ضج الحضور بالضحك، وانتظر الرجل لحظات حتى يهدأ الحضور قبل أن يكمل بصوت ينضح إثارة وتشويقا:

-ما رأيكم أيها السيدات والسادة فى السحر والسحرة. هل يؤمن أحدكم بتلك الأمور، وهل تعتقدون فى وجود سحرة حقيقين؟..

أجابه أحد الوزاء فى تلك اللحظة محاولا أن يبدو رده خفيف الظل:

-إنها العاب حواة يا اسماعيل باشا.خداع وخفة يد لا أكثر.

-هذا حق يا دولة الباشا، لو كنا نتكلم عن حواة في السيرك. لكنى اتحدث عن السحر الحقيقي. اتحدث عن اناس قادرين على فعل الخوارق وتغير طبائع الاشياء. يؤسفنى مما أراه على وجوهكم أن أعتقد أننى الوحيد هاهنا الذى يعتقد في وجودهم.

تعالت الهمهمات المرتفعة المتداخلة للحظات ،قبل ان يقول من بين الجمع أحدهم:

-وهل للسحر والسحرة صلة ما بمفاجأة الليلة؟..

-صلة وثيقه للغاية ،لكن في البداية هل سمع احدكم عن "اليستر كروالى" من قبل؟..

تبادل الحضور النظرات والهمهمات ثانية. بدا البعض وكأنهم لم يسمعوا بهذا الاسم من قبل وبدا على وجه البعض الآخر أنه يعلمه وقال أحد هؤلاء له:

-أعتقد أنك تتحدث عن الساحر الانجليزى العظيم. إنه أشهر السحرة في هذا العصر يا اسماعيل باشا.

-رائع أن يعلمه البعض، ولكن دعوني أخبر الآخرين الذين لم يسمعوا به بشيء عنه.

قالها وتحرك حركات مسرحية إعتادها وقال بصوت خفيض مؤثر:

-إن الجزء الأول من مفاجأتى ايها السيدات والسادة هو هذا الساحر العظيم الذى لبى دعوتي الليلة وحضر إلى قصري المتواضع كى يبهر الحضور بما يقدمه. إنه أشهر السحرة الحقيقين. إنني أحذركم أن تبخسوا حقه، فما يقوم به ليس أبدا ألعاب هواة وليس خفة يد وخداع . إن الأمور التى يقوم بها حقيقية تماما . لقد أبهر العالم كله بسحره وحان الوقت ليبهرنا بما يقوم به السيدات والسادة، دعونى أخبركم أن هذا ليس كل شئ هذه الليلة. لقد وصلني خبر شيخ أزهري محترم سمعت أنه يقوم بالأعاجيب هو الآخر. ولقد قبل هذا الشيخ الفاضل أن يأتى الليلة ليتحدى أشهر السحرة في العالم في قصرى المتواضع، ولهذا اتوقع ان نشهد الليلة صراعا فريد لم يره أحد من قبل. الساحر الانجليزى العظيم في مواجهه عجائب الشيخ الازهرى، فلمن الغلبة؟. هذا ما سنعلمه جميعا في نهاية هذه الليلة المشهودة.

وصمت وقد ارتفع الصخب والجدال بين ضيوفه، وجالت عيناه بينهم، وبعد دقيقة عاد ليتحدث بلهجة مسرحية:

-السيدات والسادة. دعونى فى البداية اقدم لكم ساحرنا العظيم. اليستر كراولى.

ومن احد الردهات الجانبية خرج الرجل. شق طريقه بين الحضور وابتسامة ثقة تزين وجهه. أفسح الجميع له وهم يرقبون ملامحه الحادة وشاربه الطويل الغريب، ورأسه الحليق تماما ونظراته الشيطانية الحادة. كان يرتدى حلة أنيقة ذات لون رمادى وقد ارتدى فى يديه قفازا اسودا طويلا. تحرك نحو منتصف البهو الضخم حيث اسماعيل باشا الذى صافحه بحرارة قبل أن يتوقف الى جواره للحظة وعيناه تتحرك بين الحشد ثم انحنى لهم انحناءة خفيفة محييا. ران الصمت والترقب على المكان للحظة وشعر الكثيرون بعدم الراحة. كانوا محقين تماما فالرجل يبعث بوجوده إحساسا خفيا بعدم الراحة. وبعد لحظات عاد اسماعيل باشا ليتحدث :

-والأن دعونى اقدم لكم الشيخ عبدالله المنياوى ضيفنا الآخر فى هذه الليلة.

تحولت العيون الى الناحية الاخرى حيث خرج من الممر المقابل شيخ ازهرى يرتدى الكولة والعمامة الازهرية التقليديه. تحرك هو الآخر بهدوء بين الحشود وقد خفض رأسه قليلا حتى توقف بجوار اسماعيل باشا الذى حياه هو الآخر بحرارة وتسمرت اعين الحضور جميعا بين الرجلين. كانت ابتسامة استخفاف تفصح عن نفسها بقوة على وجه كروالى وكأنما لايبالى بمتحديه. وفى المقابل بدا وجه الرجل هادئا بلا اى إنفعال عليه،قبل أن يفاجئهم الشيخ متحدثا بانجليزية سليمة أدهشتهم:

-اسمحوا لى ان اتحدث بالإنجليزيه كى يعى السيد كروالى كلماتى وقد علمت أنه لايفهم العربية. إننى أريد أن أخبره أن مايقوم به هو درب من دروب السحر الأسود إعتدنا هنا أن نحاربه. لقد سمعت كثيرا عما يقوم به. ولهذا أتيت اليوم الى هنا لأدحض ما يقوم به.

لم يصبر كروالى على ماقاله فأجاب من فوره بحدة:

-أتمنى أن يحتفظ الشيخ بآرائه حتى نهاية اليوم، أعتقد أنه سيكون أكثركم انبهارا حين يرى ما يمكننى أن أفعله.

عادت الهمهمات ثانية والعيون تنتقل بين الرجلين وبدأت المراهنات السرية بين الحضور، وبعد لحظات انتهت المراهنات وقد صبت أغلبها فى ناحية كروالي. أفسح بعدها إسماعيل باشا المكان للاثنين قبل أن يشير الشيخ عبدالله لكراولى وهو ينتحى هو الآخر جانبا أن يبدأ..

توقف كروالى فى منتصف المكان وأشار لبعض معاونية الذين ظهروا من بين الحضور. أطفأ أحدهم أضواء القصر جميعا إلا من كشاف وحيد أضاء منتصف البهو حيث وقف كروالى. وقال الرجل وهو يلوح بيديه في الهواء بحركات غريبة:

-هل تعلمون أن أجدادكم كانوا دوما أعظم السحرة فى التاريخ. لقد امتلك كهنة أمون ورع وتحتوت حكمة القدماء وورثوا فنونهم المذهلة وقواهم السحرية الغامضة وسادوا بها العالم أجمع.. إن تاريخ الفراعنة فى الحقيقية هو تاريخ السحر. أقول هذا قبل أن أقدم لكم فى البداية أمرا بسيطا، أتقنه كهنة آمون فى القدم..تحدي الجاذبية والارتفاع فى الهواء.

وأغمض عينيه وبدأ يتمتم بصوت خافت كلمات غامضة. واحتقن وجهه بشدة قبل أن يبدأ جسده فى الارتفاع عن الأرض. شهق البعض دهشة، وحبس البعض أنفاسه من الإثارة، وقالت آنسة جميلة وهي تخفى فمها بكف يدها الصغير:

-رباه. إنه يطير.

ظل الرجل على وضعه هذا لدقيقة قبل أن يهبط ثانية نحو الارض على قدميه، ثم يفتح عينيه وقد إمتلات جبهته بالعرق، وقال بثقة:

-كما ترون لاخدعة هناك فى مافعلته.لقد طرت فى الهواء كما شاهدتم جميعا.فما رأى شيخنا فى هذا؟

لم يجيبه الشيخ عبدالله ،واكتفى بالتقدم نحو منتصف القاعة وقال بهدوء:

-أضيئوا الأنوار.

عادت الاضواء لتضئ المكان ثانية.وجلس الشيخ على الأرض متربعا ثم صاح بقوة:

-بسم الله القوى القادر صاحب الهبات السخية والمنح الجلية والقدرات الخفية البهية. بسم اله

ثم خفض من صوته وهمهم بعدها بكلمات مبهمة. قبل أن يرتفع جسده عن الأرض. لم يرتفع ارتفاعا قليلا كما فعل كروالى. بل ارتفع لمتر كامل وهو فى كامل وعيه. ودون أن يبدو على وجهه أثر مجهود ما. ظل هكذا لدقيقتين والعيون معلقة به بإثارة ، وهو يدور برأسه بينهم قبل ان ينخفض ثانية.

ضجت القاعة بالتصفيق وهى لاتصدق مافعله الشيخ. واتسعت ابتسامة اسماعيل باشا اعجابا بالشيخ الهادئ. وبدا التوتر على وجه كروالى الذى قال بعد ان توقف التصفيق:

-أعترف أن الشيخ عبدالله قد قدم عرضا مبهرا لم أره من قبل..لكننى لم أخرج إلا القليل من جعبتى المليئة بالكثير.

وتأخر الشيخ ثانية ليفسح له المكان فأشار كراولى لمساعدية فهرع اليه أحدهم حاملا سيفا طويلا وتعاون آخرين على جلب منضدة خشبية وضعاها أمامه ..عاد كروالى ليبتسم وقال:

-والأن أخبرونى ..هل يعتقد أحدكم أننى لو قمت ببتر معصمى هذا سيعود ثانية الى مكانه.

صرخت إحدى الحضور فزعا وهى لاتتخيل ماهو مقدم عليه. فنظر نحوها وابتسم مطمئنا. ثم وضع يده اليسرى فوق المنضدة الخشبية وأشار لمساعده الذى يحمل السيف فتقدم نحوه بلا تردد وفوجئ الجميع بالسيف يهوى على كفه فيبتره:

تعالت الشهقات والصرخات.وفقدت إحدى السيدات وعيها من هول ماتراه..وبينما انحنى نحوها البعض ليرعاها. راح الآخرون ينظرون بتوتر لليد التى بتر كفها وراح

الدم ينهمر منها بغزارة ،والرجل مازال في مكانه منتصبا باسما لايبدو عليه أى ألم أو تأثر بما حدث ليده،بل راح يحركها أمامهم كانما يريهم أن الامر حقيقى بلا خداع ..

بعد لحظات انحنى مساعده والتقط اليد المبتورة ووضعها على المنضدة التى إقترب منها كروالى وقرب ذراعه المصابة من الكف وضع المساعد ملاءة سوداء عليهما وغطاهما..وسمع الجميع كروالى يقول :

-والأن دعونا نرى ما الذى يحدث.. هل تعود اليد المبتورة لمكانها؟.. هل تنتظرون أن يحدث هذا؟..

وبدت حركات عنيفة من اسفل الملاءة السوداء ومضت لحظات من الترقب قبل ان يخرج كروالى يده ببطء من أسفل الملاءة..كانت سليمة تماما من غير سوء..

كان هذا مبهرا كأقصى مايكون،وضجت القاعة بالتصفيق الذى إستمر لدقائق طويلة وكروالى يتابعها بثقة ومن حين لأخر ينظر باستخفاف نحو الشيخ عبدالله الذي تابع ماجرى محتفظا بهدؤه، وحين كفت الأيدى عن التصفيق تحرك مرة آخرى نحو منتصف القاعة فافسح كروالى له المكان . لم يتحدث الشيخ ،بل إعتلى الطاولة الخشبية التى أحضرها مساعدى كروالى والتى عادت نظيفة بلا دماء بصورة عجيبة ،فجلس فوقها ومدد قدميه قبل أن يشير لمساعد كروالى الذى يحمل السيف أن يهوى به على قدميه ..

توتر الرجل وزاغت عيناه للحظة وهو لايدرى ماعليه أن يفعله ..لكن كراولى هز رأسه له أن يفعل..فتحرك بتردد نحو الطاولة ورفع سيفه عاليا ورمق الشيخ نظرة أخيره كأنما يستيقن منه، إن كان يرغب في الإستمرار أم لا،لكن الشيخ ابتسم في وجهه مطمئنا فهوى السيف الحاد على القدمين فبترهما..

هوت القدمين على الارض ومعهما هوت المزيد من الاجساد المغشى عليها من الفزع ،وتابع الباقون مايجرى بذعر حقيقي.. هذه المرة لم يكن هناك نقطة دم واحدة..لم

يكن هناك انتفاضات عنيفة للقدمين المبتورتين ، واحتفظ الشيخ عبدالله بابتسامته على وجهه كأنما لم يقم بأمر مخيف..

ترك الجميع لذهولهم وحيرتهم وأعينهم تنتقل بين القدمين المبتورتين الملقاة على الأرض، وبين الرجل الجالس على الطاولة بهدوء. وبعد دقيقة أشار للقدمين بسبابته.. هنا دبت فيهما الحياة فتحركتا زحفا نحوه ثم ارتفعتا من فوق الارض وذهبت كل قدم مبتورة نحو منشأها.. أحاط الرجل كل قدم بكفه للحظة وحين رفع كفيه كانت كل قدم قد عادت لمكانها كما كانت من قبل..

لم يصدق الحضور مايرونه والشيخ يهبط الطاولة ليقف على قدميه سليما معافى. رمقوه بحيرة وخوف ودهشة وإعجاب ..وكان كروالى أول من تحدث معترفا بهزيمته أمام الرجل:

-من أنت ايها الرجل..أخبرنى أنك لست الشيطان نفسه

فاجابه الشيخ ببساطة:

-إننى الشيخ عبدالله المنياوي ..ظننتك تعلم هذا من قبل.. إنني لست الشيطان بالتأكيد. فأنت أدرى مني من يكون الشيطان.

****

2

عاد إلى بيته قرب الفجر، لم يجد الفخر مدخلا لفؤاده ولا تسرب الغرور إلى نفسه. ما قام به كان بعون الله وحده وفضله، ومنذ أتاه الله هذه النعمة وقد داوم على إفادة خلق الله منها ومحاربة حبائل الشياطين وأتباعهم بها.. طالما حارب الدجالين والأفاقين، ومدعى العلم، والسحرة والمشعوذين. حارب كل هؤلاء ودحضهم جميعا، وها هو اليوم قد غلب أحدهم مرة آخرى..

نعم كان كروالي ساحر قوى، وقد تأكد اليوم أنه يمارس اقوى فنون السحر الأسود،لكنه لم يبالى. فما بجعبته لايعلمه أحد غيره،وقواه التي منحه الله إياها،

بمعرفته سر الكلمات وطرق الاتصال بالجان، قد مهدت له طريق القوة التى لا يدرك مداها الا القليل. أبهر الحضور بمافعله .لكن تلك لم تكن غايته أبدا حين أتى. لقد اتى من اجل كروالى. من أجل معرفة مقدار ما وصل اليه الرجل من علم وقوة واتصال بالشياطين .وبالرغم من أنه قد فاقه اليوم إلا ان القلق لم يغادره. الرجل بالفعل على اتصال بشياطين الظلام، ومازال صغيرا، لم يتعد الثلاثين من عمره.ولو استمر فى سعيه الحثيث لإكتساب المزيد من القوة فسوف يصل حتما إلى مايصبو إليه، وربما صار يوما أقوى رجل فى العالم. وهذا ما يجب على من على شاكلته أن يمنعوا حدوثه

وأمام باب شقته رأى الجسد الراقد فى الظلام .انقبضت عضلات عينيه محاولة تبينه فلم يفلح .فتحرك رأسه لليسار حيث همس بحديث خفى لمخلوق خفي يلازمه كظله، ولايفارقه أبدا:

-من هذا؟..

-إنه بشرى يا مولانا.

شعر بالحيرة، فتقدم نحو الجسد الراقد أمامه نائما، وانحنى نحوه متفحصا..لم يتعرفه، فهزه برفق فندت عن الجسد النحيل همهمة خفيفة قبل أن ينتبه الرجل. فتح عينيه فلما اصطدمت بوجه الشيخ الهادئ اتسعتا عن أخرهما، وبحث متعجلا عن كف الشيخ، وبلهفة امسكها وقبلها وهو يهتف:

-مولانا الشيخ عبد الله المنياوى.إننى هنا منذ الصباح انتظرك..

-من أنت يا بني.. ولماذا تنتظر؟..

-أنا عبدالتواب المنياوى، بن الحاج عبدالقوي المنياوي..أحد أقربائك فى كوم الدكة. بلدتك يا مولانا.

مضت لحظات قبل أن يتذكر الأب، فترحم عليه بصوت مرتفع، وفتح باب شقته وتوقف عند الباب وعيناه تخترقان ظلام الشقة كأنما تبحثان عن عدو خفى وهو

يتمتم بكلمات خفية ولم يتقدم الا حين سمع صوت الجنى الذى يرافقه وهو يقول مطمئنا:

-لا أحد هنالك يامولانا. المكان آمن.

هنا تقدم لداخل بيته وأضاء مصباحا زيتيا وهو يقول لضيفه:

-أدخل يابني واجلس في مكان ما.. أخبرني هل أنت جائع؟.

-جائع للقائك وعلمك يامولانا

وعلى ضوء المكان تأمله. كان شابا ضئيل الجسد. رث الثياب بادي الضعف والوهن. كان شعره طويلا مبعثرا، وكانت رائحته غير طيبة. كان كل شئ فيه يصرخ بفقره وضعفه، فشعر الشيخ بالشفقة نحوه. لكن رفيقه الجنى همس فى أذنه:

-سله يا مولانا عن حاجته. هناك ما يخفيه.

فقال الشيخ الكهل بتؤدة له:

-وما هي حاجتك التي تنتظري من أجلها منذ الصباح؟.

خفض الرجل من صوته ورأسه وهو يجيب:

-علمك يامولانا وقدراتك. اسقني من نهلك يامولانا وعلمني،كما علم الخضر موسى.

-أى علم تطلبه يابنى. هل تسألنى العلوم الشرعية.

قالها الشيخ بحذر والجنى لايكف عن الهمس فى اذنه محذرا ..لكن الشاب اجاب وعينيه تبرقان للمرة الاولى:

-بل علم الغيب والكلمات يا شيخنا..لاحديث بالبلدة الا عن كراماتك ومعجزاتك فجئتك طالبا بعضا من فيضك هذا.

صمت الشيخ ولم يعقب. وبالرغم من هيئة الرجل الفقيرة وصعفة لكن عينيه حملتا في لحظة ما قوة لاحدود لها. وشعر أن ذلك الشاب يخفى تحت رداء ضعفه وعجزه

هذا مخلوقا آخرا. مخلوق يبحث عن منفذ يتغلب به على ضعفه وقلة حيلته. وبعد لحظات تكلم ثانية:

-وماذا ستفعل بعلمي لو حزته يابني.. هل فكرت بالأمر؟.

أجابه عبدالقوي على الفور:

-ساساعد الضعيف والمحتاج وأشد من أزر الفقير. أريد القوة لأكون ذراع من لا ذراع له، ورفيق من لا رفيق له. أريدها لأنجد بها غيري مثلما تفعل يامولانا.

لايدرى الشيخ عبدالله لماذا شعر بان تلك الاجابة ليست وليدة اللحظة، لقد تمرن ذلك الشاب عليها مرارا حتى حفظها وأجادها. كان هذا يؤرقه ولايريحه. هل يبحث الشاب عن القوة ويخفى مطلبه هذا خلف كلمات مطمئنة عن مساعدة الملهوف المحتاج؟. وعاد الجنى ليصرخ في أذنه :

-أبعده يامولانا. إنه يريد الشر. أبعده عنك. إنه يكذب.

لكن الشيخ لم يفعل. لم يكن ليطرد أحد من اقاربه من بيته ولم يكن ليرد طالبا للعلم مهما حدث. لن يصدر حكمه الآن على الفتى وسينتظر ريثما يرى ما يريبه منه، وحينها سيفعل. وقال للشاب بهدوء:

-ألك أعداء يابنى؟..

-الكثيرون يامولانا ؟..إن الضعاف أمثالي، يعج طريقهم دوما بمن يستهين بهم، ويؤذيهم لقلة حيلتهم.

-ألك أبناء وأهل؟..

-زوجة أكلها الفقر وابناء نهش المرض والحاجة أبدانهم وصحتهم.

-وهل تبغي المعرفة كي تغنى وتنتقم

تردد الشاب لكن عينى الشيخ النافذتين لم تتركاه ليفكر ،فقال:

-ومن يبغى الفقر يامولانا ويرفض الغنى.أما عن الانتقام فلن اؤذى أحداً الا لو فعلها معى.

-يابنى القوة التى تبغاها خطيرة .والقوة قد تدفع من لا يقدر على مغالبتها نحو طرق ومزالق لايتخلها ولايبغى ولوجها. أخشى انك تبحث عما لا طاقة لك به. عد يابنى لبلدك واعمل فى ارضك خيرا لك مما تبحث عنه.

اختلج قلب الشاب وارتعش بدنه وهو يخشى أن ينهار حلمه الآن ويلفظه الشيخ فقال متوسلا:

-يا مولانا، لاتردنى ولا تصرفنى عنك. لقد إنتويت ملازمتك لأنهل من علمك ولن أتركك حتى لو شئت ابعادي. سألزم باب دارك حتى تقبلني.

-أخشى عليك ضعفك. أخشى أن تحوز القوة فتغلبك وتأسرك بشهوتها.

-لست ضعيف النفس لأفعل يا مولانا.علمني ولن أخذلك.

-القوة ضعف يابنى ..القوة بلا استعداد دمار وهلكه.

-القوة مهابة يامولانا وإحقاق للحق ونصرة للمظلوم..

-إذا مازلت مصرا ..

- لا طريق آخر أمامي؟..

-إذا ليفعل الله أمرا كان مقدورا. إسترح الان يابنى فى تلك الغرفة وفي الغد نعاود حديثنا..

وهم الشاب بتقبيل يد الشيخ مرة أخرى وقلبه يتقافز في جوفه بسعادة لا توصف، لكن الشيخ منعه،ودخل حجرته وقلبه يرقص بها طربا..أما الشيخ فقد لزم مقعده بضيق وقد شعر بأنه أخطأ، وراح الجنى يوسوس له:

-لقد جانبك الصواب يامولانا ..إنه يبغى القوة فقط ولايبغى الحق كما يقول.

-لن امنحه الكثير إلا بعد ان أطمئن له.فلا تقلق. مازال أمامنا وقت لنعرف مقصده وغايته.

لكن الشيخ كان يدرك كم هو مخطئ في ما يقوله.. يطالب الجني بالاطمئنان، وهو نفسه لم يكن مطمئناً.

****

3

لاحظ الشيخ عبدالله المنياوى أن عبدالتواب لا يأكل كثيرا. فى الإفطار لم يفعل وفى الغداء اكتفى بكسرة خبز وجبن.فسُر الشيخ. كان لايحب النهمين الشرهين للطعام. إن شهوة الطعام هي أم الشرور لا يغلبها إلا قوي. وحين آتى المساء واكتفى الشاب بلقيمات صغيرة من الخبز الجاف قرر أن يبدأ معه. افترش الأرض المكسوة بحصيرة من الخوص. وجلس الشاب قبالته وبينهما استوى منقد معدني مشتعل بالجمر والبخور. وهمس الجنى فى اذن شيخه بالحاح

- مولانا ..بالله عليك لاتفعل هذا.. تمهل بعض الوقت قبل أن تبدأ

تجاهله الشيخ وحدث الشاب:

-فى البداية تعلم ألا تخاف..سوف ترى الكثير من الأشياء المفزعةالتي لم تعتدها. ستراها وحدك ولن يراها أحد غيرك .فإياك أن تضطرب أو تخشاها. وإعلم ان من تراه مهما بدا لك هولا مخيفا. هو مخلوق من مخلوقات الله مثلك تماما. ولا يملك مهما أوتى من القوة أن يضرك أو ينفعك الا باذن الله.

ابتلع الشاب ريقه بصعوبة من الإثارة ورمق الشيخ بفرح وقال بصوت مبحوح:

-ومالذى سأراه يا مولانا

-سترى الجان والعفاريت والمردة والشياطين والأطياف الخفية ، سترى كل هؤلاء.. بل وستراهم الآن. وبعد حين ستتعلم كيف تتصل بهم وتحادثهم.

ارتجف جسده إثارة وسأل:

-وهل سيروننى كذلك؟

يبتسم الشيخ بإشفاق ويجيب:

-إنهم يرونك بالفعل فى كل حين .. أنت هنا من يراهم للمرة الأولى.

-وهل هذا يغضبهم أو يضايقهم؟

-هذا يثير جنونهم وحنقهم بصورة لا تتخيلها. لقد كشفت سترهم وغطائهم، لقد صار بامكانك أن تتبعهم وتعرف أسرارهم وتشاركهم حياتهم. هذا أمر لا يحبونه، لأنهم لم يعتادوه .هنا ستصير مقصد شرهم وايذائهم. سيتوقون دوما لتدميرك وتحطيمك.

-وهل يفعلون هذا معك ؟.

-دوما يحاولون منذ اتصلت بهم .

-وكيف تحتمى منهم إذا، وتدفع شرهم عنك؟

-لو لاحظت لايكف لسانى فى اى لحظة عن ترديد شئ ما .. سوف تتعلم أن تحتمي من شرهم بالأوراد التي سوف ألقنك إياها، وبعض الطلاسم والأوشام التي تطبعها على جسدك و كذلك العزائم التي لا تتوقف عن القسم بها .

وصمت للحظة ليرى تأثير كلماته على نفس الشاب الصغير ..إعتاد أن يخبر من يطلب منه تعليمه السحر والاتصال بعالم الجان بمخاطر الامر ..فى الكثير من الأحيان يكتفى طالب العلم منه بما يقوله هذا وينصرف عن الامر. بعضهم يكمل حتى يرى الجان بأم عينيه. وحينها يدب الهلع فى نفسه فينصرف عنه هو الآخر .والقليل هو من يكمل. القليل للغاية. وعاد ليتحدث وهو يميل بجسده عبر النار والبخار المشتعل نحو عبدالتواب:

-يابنى الاتصال بعوالم الجان والشياطين هو لعب بالنار لابد أن يكتوى بها يوما ما من يمارسه..كل من فعل عانى يوما ما نهاية سوداء مريعة ..البعض انتحر ..البعض احترق ..البعض جن وذهب عقله..وآخرين ماتوا ميتة شنعاء لاتتخيل قسوتها.. إنه الثمن المريع للمعرفة.

يضطرب قلب الشاب فيهمس وشحوب وجهه يزداد:

-الكل يا شيخنا ؟..حتى أنت قد يحدث معك هذا؟..

-الكل يابنى ..لا أحد ينجو من لعنة كهذه..إننى أنتظر هذا المصير كل يوم،وحتما لم يحدث لى شئ من هذا فقط، لأن ساعتى لم تحن بعد..

وخفض عبدالتواب رأسه متوترا خائفا..لم يطلب أن يتعلم السحر كى يهلك..تعلمه لانه يبغى القوة ..يبغى المال ..يبغى السلطه .لكن مافائدة كل هذا هذا لو كان الهلاك مصيره فى النهاية..لكن عناده عاد يهمس إليه ..ربما تعمد الشيخ إفزاعه ليتراجع عن مطلبه؟.. كان أمرا محتملا ..فها هو الشيخ نفسه أمامه قد تجاوز الستين من عمره ومازال بصحته لم يصبه سوء، اليس محتملا أن يعيش هو الآخر مثله متمتعا بصحته وقوته حتى يصل لعمره هذا؟..

وقال للشيخ بإصرار :

-الأمل يستحق المخاطرة ياًمولانا..كما أنك أخبرتني أنك ستعلمني كيف يمكنني أن أقي نفسي من شرهم.

-بالطبع يا بنى سأفعل ..كما أطالبك ألا تنسى هذا عني.. إياك أن تقوم يوما بتحضير جان او شيطان دون أن تكون مؤهلا لصرفه. لقد هلك الكثيرون من قبل بسبب هذا.

هز عبدالتواب رأسه متفهما، فابتسم الشيخ عبدالله بإشفاق وعاد لتمتماته الغامضة لبعض الوقت، وراح الجنى الذى يلازم الشيخ يصرخ فيه معترضا بصوت لم يسمعه عبدالتواب :

-يا مولانا ستندم . الشاب لايبغى العلم والمعرفة. الشاب يبغى القوة. ألاترى الشبق فى عينيه؟..

لكن الشيخ عاد ليتجاهله.و تحدث الى عبدالتواب ثانية:

-سترى الان شيئا لم تره من قبل..سوف أستحضر بعضا من الجان المؤمنين لتراهم..إياك ان تفزع منهم..إياك أن تطيل النظر اليهم .. إياك أن تنظر الى عيونهم..وإياك أن تحاول التحدث إليهم. سترى خلقا مختلفا فحاول أن تعتاد مشهدهم.

وارتفع بعدها البخور فى المكان، وتعالى صوت الشيخ مرددا اورادا وعزائما مبهمة لم يفهما عبدالتواب. وبعد وقت قصير شعر بأنهم صاروا حوله. إضطرب قلبه وارتجف بدنه، لكنه تذكر تحذير شيخه فحاول أن يتمالك رباط جأشه. رأى عشرات الظلال تتحرك فى ظلام الغرفة حوله..رفع رأسه ببطء للأعلى فرأى قزما يلتصق بسقف الحجرة ويرمقه بعيون سوداء مخيفة وفم ملئ بالأسنان الحاده.أحنى رأسه لأسفل على الفور بتوتر فرأى تلك الفاتنة الطويلة التى توليه ظهره..كانت أنثى طويلة الشعر ، وقد هبط شعرها الحريري الأسود حتى قدميها..تابعها ببصره حتى التفتت إليه بوجها..كان وجهها طويلا ذا لون أزرق وكانت عيناها حمراوان كالدم وكانت ترمقه بغضب. تواثب قلبه فزعا وكاد أن يصرخ لكن عينا الشيخ المحذرة واجهته فكتم صرخته وصرف بصره عنها.

رأى عشرات الظلال الغريبة التى تبدو كالضباب والدخان فى كل مكان حوله وسمع همسات خافتة تثير الجنون. لكن إصراره على مواصلة الأمر لنهايته تغلب على فزعه، فقبع ساكنا منكمشا فى مكانه، فى انتظار أن يصرفهم الشيخ من أمامه. كان خائفا كما لم يخف من قبل، أهذا ماعليه أن يعتاده دوما؟. من العسير أن يتخيل أن تعتاد عينيه على شئ كهذا..لكن الشيخ الرابض فى مكانه بطمئنينة وسكينة، وهو يرى مايراه قد فعل ذلك، وإعتاد رؤيتهم، ولم يعد يشعر بالفزع منهم، فهل يصير يوما مثله؟..

راقبه الشيخ متجاهلا ما يدور حوله ،منتبها لما يبدية الشاب من مشاعر..وظل الشاب رابط الجأش حقا بصورة أثارت اعجابه..لم يتحمل الكثيرون جلسة كهذا، وكاد احدهم يوما ما وقد كان أحد أبناء الباشوات الذين تلقوا تعليمهم بالخارج، أن يفقد عقله ويجن حين رأى تلك الكائنات. لكن هاهو الشاب امامه لم يصرخ ولم يبالغ فى إنفعاله ولم يبحث عن مهرب. سوف يتعلم هذا الشاب وسوف يتقن الامر فى وقت وجيز . لكن عينا الشاب إتسعتا فجاة بفزع وهو يرمق شيئا ما خلف ظهره..

والتفت للخلف على الفور فهاله ما رأه ..

كان هناك ماردا ضخما مخيفا برأس به قرنين معوجين وأنف أفطس وأطراف تنتهى بمخالب ضخمة..كان ينظر للشاب بثبات وكان فمه يهمس بكلمات لم تصل لأذنى الشيخ عبدالله..توتر الشيخ عبدالله وتوتر الجان الحضور وساد الفزع..لم يكن هذا المارد ممن استدعاهم الشيخ فكيف أتى وظهر؟!.. لم يكن هذا وقت التفكير وعلى الفور شرع فى صرف كل الجان من حوله فالقي العزائم اللازمة لذلك..ومضت لحظات قبل ان يختفى الجميع من حوله وكان المارد الشيطانى آخرهم..

ظل قلبه ينبض بعنف. هذا أمر لم يحدث من قبل. وحين التفت الى عبدالتواب وجده منكمشا حول نفسه فى رعب وجسده يرتجف بفزع لامثيل له وقد غمر العرق وجهه وبدنه..نهض إليه وهزه فى قوة وهو يقول له:

-ماذا بك يابنى ..هل أصابك مكروه ما؟.. أخبرني بما تشعر به.

-أريد أن أنام ..

قالها عبدالتواب بوهن وصوت مرتجف مماثل لبدنه. وأمام فزعه لم يشأ الشيخ عبدالله أن يرهقه بتساؤلاته، فذهب به الى فراشه.. ثم راح يربت على رأسه وهو يتلو على أذنه آيات من القران الكريم..

تركه بعد ذلك، وعاد لصالة البيت وألقى بجسده على الاريكة الكبيرة بالصالة وقال بقلق محدثا الجنى الذى يلازمه:

-من كان هذا ؟

-أحد خدام بعلزبول..ظننتك تعرفته يامولانا.. إنه يدعي "طميش"

-وما الذى أتى بهذا الشيطان إلى هنا ،بل وكيف أتى دون ان استدعيه؟

-لا أدرى ..لكن كل الجان الذين أحضرتهم فزعوا منه كثيرا ..كان قويا وكان قادرا على ايذاء الجميع لو أراد.

إزداد الشيخ توترا وقال وقد تذكر فم المارد الذى كان يتكلم بصوت خفى :

-لقد كان يتحدث بشئ لا أعلمه..هل سمعته وعلمت ما كان يقوله.

-لا احد منا سمعه يا مولانا..لكن الشاب قد فعل..لقد كان يحدثه.

شعر الشيخ بالدهشة ،فقال مرددا:

-حدث الشاب؟! .. ولماذا يفعل..وما الذى يبغيه منه؟..

هنا قال الجنى بإقتضاب:

-سل الشاب ..إنه من يعلم ..لكنى لا اعتقد أنه سيخبرك بشيء.

وجم الشيخ فى حيرة وعقله يقلب عشرات الاحتمالات لما حدث.. بينما ظل عبدالتواب يرتجف في فراشه، رغم الغطاء الثقيل الذي يلتحف به. كانت كلمات المارد تتردد في أذنه بلاتوقف وهيئته المخيفة لاتفارق مخيلته.

كان يطالبه بالحصول على كتاب الدم. أحد كتب السحر العظمى. أخبره ان الشيخ يخفيه في حجرته وأنه سيعاونه في الحصول عليه لو شاء. وفي النهاية طالبه ألا يخبر الشيخ بحديثهما هذا.

كأن أمرا مفزعا لم يتخيل يوما أن يواجهه. ظل جسده ينتفض، ولم ينم تلك الليلة ابدا..

****

4

فى فجر اليوم التالى خرج عبدالتواب من حجرته شاحب الوجه متوعك البدن، وتكاثفت الهالات السوداء حول عينيه منبئة عن ليلة لازمه الأرق بها. كان الشيخ عبدالله المنياوي فى مكانه على أريكته بالصالة بانتظاره، محملا بهواجسه التي لم تفارقه لحظة واحدة منذ الأمس. ابتسم فى وجهه، وأفسح له مكانا بجواره وقال محييا وهو يشير له بالجلوس:

-هل تشعر انك أفضل الآن، وهل نمت بالأمس جيدا؟..

-الحمد لله يا سيدي. إنني بخير مادمت ملازما لك.

-الحمد لله على كل شيء. والآن أخبرني يا بنى ليطمئن قلبى. هل حدثك ذلك المارد الذى رأيته بالأمس بحديث ما؟

ارتعشت يديه للحظة و أبعد عينيه عن عينى الشيخ المثبتتان على وجهه فعلم الشيخ أنه سيكذب:

-إنني لم أسمع شيئا يامولانا غير تلك الهمسات المخيفة التى ملأت اذنى . كانت مخيفة واصابتني بالرعب. لكن أخبرني يا مولانا. من كان ذلك المارد المخيف. وهل كان أحد الجان الذين استدعيتهم

-بل كان ماردا رجيما. كان شيطانا يدعى طميش.

-شيطان؟!.

ولم يعقب الشيخ. كان يحنقه أن يكذب عبدالتواب ويخفي ما حدثه به ذلك المارد. فكر فى طرده من بيته وقد حدثته الشياطين التي لن تحضر محملة بالخير أبداً، فهل يخططون لأمر ما يستعينون فيه بهذا الشاب. أيفكرون في قتله بمساعدة هذا الشاب. ليت هذا ما يكون.

وعاد عقله لحديث الجنى له، فمنذ رأى عبدالتواب وهو يلح عليه في إبعاد الفتى عنه وطرده. كل ما يحدث الان يدفعه لإبعاد الشاب عنه، لكن فضوله راح يقتله لمعرفة ما يخفيه الشاب عنه. سوف يبقيه بجواره ولن يطمئن إليه لحظة ولن يمنحه أي من علمه الآن ولن يشعره بما يضمره له من مراقبة. ةوأفاق من هواجسه وعبدالتواب يسأله:

-هل تعني أنه كان الشيطان نفسه؟..

- كلا يا عبدالتواب. إنه احد اتباع بعلزبول. احد الشياطين القدماء لو كنت لم تسمع عنه من قبل . لست من استقدمته بالطبع، ولم اكن لأحضر لك شيطانا او احد أعوانه ابدا. انا حتى الآن لا أعلم كيف أتى هذا الشيطان؟..

-وهل حضر من أجل ايذائى؟.

سأله عبدالدايم بقلق فأجاب الشيخ بعد أن رمقه بنظرة ذات معنى وقال ببطء:

-بالطبع لن أتركه يفعل طالما لزمتنى ولم تخف عنى شيئا.

إضطربت صفحة وجه عبدالتواب للحظة، لكنه تمالك نفسه ببراعة وهو يقول:

-بالطبع لن أفعل ياشيخ عبدالله..وهل يمكنني أن اخفي عنك شيئا؟

رمقه الشيخ صامتا، ثم غادر المنزل بعد أن أخبره أنه سيتأخر اليوم بالخارج، ولن يعود للبيت قبل فجر الغد، كان هذا يعنى أنه لن يراه ثانية هذا اليوم..

وانتصف النهار وهو في البيت بمفرده. وبدات الهمسات تتردد فى أذنه. راح يتلفت حول نفسه في رعب باحثا عن مصدرها، هل يكون احد الجان الذين حضرتهم الشيخ بالأمس هو من يحدثه وقد نسى الشيخ أن يصرفه. ضاق صدره، ووجد نفسه يردد أية الكرسى برعب. توقفت الهمسات على الفور وحين هدأ روعه كف عن قرآءة القرآن، وشعر بالإعياء وبرغبة ملحة فى النوم تكتنف عقله. فاتجه الى الحجرة التى خصصها له الشيخ عبدالله ورقد على فراشه الصغير ونام من فوره. وهناك فى الحلم

رأى المارد مرة آخرى. بدا وكأنه في الجحيم والسنة الهب تتراقص من حوله، وعيناه تتوهجان كأتون مشتعل. وبصوت مفزع راح يحدثه:

-ابحث عن كتاب الدم أيها البشري الفاني. إنه وحده من سيمنحك القوة التي تفتش عنها. فتش عنه، وأهرب به.

هنا تغلب شبقه للقوة على خوفه فيصيح :

-لكنى لا أعلم أين هو ، ولا كيف يبدو.

-الشيخ اللعين يخفيه عنك وعن الجميع لأنه يدرك ما يحويه من قوة. إنه يحتفظ به لينتفع به وحده. إنه من يخفيه.

تتأجج لهفته للقوة. ويرى المخلوق هذه المرة مختلفا. يرأة صديقا ولا يعود يخشاه. ويقول بلهفة:

-وأين يخفيه الشيخ؟..

-سوف أخبرك. لكن عليك أن تقوم بأمور قبلها. الكتاب مرصود وله حراسه من الجان يحمونه.

ويخبره المارد الشيطاني بما عليه أن يفعله، ثم يفيق من نومه. الحماس يرتع في عروقه وشهوته للقوة في عنفوانها الآن وعيناه مصوبتان نحو حجرة الشيخ المغلقة. ويستعيد عقله ما عليه أن يقوم به. يدخل المطبخ ويبحث عما يحتاجه. يعود بالمنقد وقد اشتعل الفحم بداخله والبخور والطباشير. يغلق النوافذ كلها فتظلم الشقة. يرسم النجمة الخماسية في منتصف الصاله وهو يردد كلمات لايعيها لقنه إياها المارد في حلمه. يلقى البخور على النار خلالها فيترنح الدخان في رقصات شيطانية، كأنما تتلاعب به الشياطين.يرتفع صوته بالتعاويذ الشيطانية، فيزدحم المكان بالمردة والشياطين.

لم يكونوا كالجان الذين رآهم بالأمس..كانوا أكثر شناعة وإفزاعا .كان ليموت من قبل لو رأى شيئا مثل هذا..لكنه الأن لايخشاهم..شعر انهم أتوا من أجله

ولمساعدته..وحين إنتهى من تعويذته ظهر فى منتصف الدائرة المارد طميش الذي زاره بالأمس. وباصبع مخلبي يشير المارد نحو الباب فتحرك نحوه وفتحه.

ورأى الذعر فى عيون العشرات من الجان الذين يحرسون الحجرة وكتاب الدم وقد ظهروا جميعا أمام بصره .وحين تحرك للداخل دخل معه الشياطين التى أحضرها. اندفع نحو الفراش دون ان يبالى بالهمسات والصرخات التى تحدث حوله من قتال غير متكافئ بين جان وشياطين.

رفع حشية الفراش ووجد الخزانة الخشبية التى اخبره المارد عنها فى الحلم. فتحها فوجد الكتاب. أسودا كالليل. ذو ملمس مقزز ورائحة نفاذة لاتطاق. لا يدرى هل يتوهم ماحدث أم أنه بالفعل شعر بالقوة حين أمسكه. وتراجع خارجا من الحجرة وقد إنتهت المعركة البائسة والتى خسرها حراس الكتاب. إنصرف الشياطين الذين حضرهم. واختفى المارد طميش . هنا وضع الكتاب بين طيات ملابسه، وهرع نحو باب الشقة وفتحه ليندفع هاربا. كان عليه أن يختفي عن أعين الشيخ عبدالله وأعوانه من الجان، حتى يعى كيف يستفيد من الكتاب

وبعد أقل من الساعة حضر الشيخ عبدالله لاهثا مذعورا ليستطلع النبأ وقد أعلمه بعض الجان الذين يعملون معه بالخبر..رأى آثار الجان الموتى فى كل مكان بالحجرة..رأى الخزانة الخاوية على عروشها..ووجد نفسه يسقط على الأرض باعياء وهو لايصدق ما جرى ..ولم يرحمه الجنى الذى يلازمة وراح يصرخ فى أذنه موبخا:

-لقد خانك البشرى كما حذرتك يا مولانا..أخبرتك أنه يبغى القوة السوداء فلم تصدق.. لقد خذلتنا حين رفضت الاستماع إلينا.. لقد ضيعتنا.

-ابحث عنه وأخبرني أين ذهب؟..

يقولها ورغبة الانتقام تلهب جوفه، لكن الجنى لايجيب سؤاله ويستمر في تعنيفه:

- أضعت كتاب الدم يامولانا. لقد فقدت كل شئ يامولانا وكل هذا لأنك لم تستمتع الى ..

ويصرخ فى خشونة وصرامة:

-سألتك أين هو الأن؟. أخبرني لو تعلم أو أصرفك عني.

-لست أدرى..لا أراه ولا أرى الكتاب. لقد مات كل حراس الكتاب الذين كانوا يرشدوننا لمكانه. لا احد منا يمكنه تعقبه بعد الآن. لقد صار الكتاب حرا وقد استحضر حراسه من الشياطين.

لكنه لم يقبل هزيمته وقال في إصرار:

-سوف نبحث عنه وسوف نجده وسوف ننتقم ..أقسم أنا الشيخ عبدالله المنياوي على هذا.

***

5

رافقته مخاوفه فى رحلة هربه. تركته الشياطين فلم تعاود زيارته ومؤازرته، وروعته الهواجس فصار يتلفت حوله كل حين كالمجذوب بحثا عن عدو خفى قد يتبعه. يخشى أن يرسل خلفه الشيخ عبدالله من الجان من يفتش عنه ويتعقبه. لقد خانه وسرقه بل وتسبب كذلك فى موت بعض حراسه من الجان.حتما سيبحث عنه كي يسترد ما فقده، ينتقم. ليس أمامه غير أن يختفي بغنيمته كي يرى على مهل كيف يمكنه أن يفيد منها..

وجلس فى القطار المتجه الى بلدته بقلب يرتجف، وعينين متشككتين في كل من حوله. كان كلما شعر بالخوف والريبة تحسس الكتاب المخفى بين طيات ملابسة ليستقي منه قوى خفية تتشبع بها روحه' فتنقشع عن قلبه الوساوس وتزول المخاوف. هذا الكتاب بلاشك يحوى القوة كما أخبره ذلك المارد فى الحلم، أنه حتما كذلك وإلا ما سر إحساسه بالقوة هذا كلما لامسه؟!

مالا يعلمه الشيخ عبدالله المنياوى أتقن تمثيل دور الفقير البائس كى يرق له قلب الشيخ ويعلمه.كان مولعا بالقوة منذ صغره، وطالما تفكّر فى المجهول والعوالم الخفية

التى نعيش بينها ولانحس بها. قرأ المخطوطات القديمه عن السحر والخيمياء فلم تروى ظمأه.حاول عن طريق كتب الجان تحضيرهم غير مرة فلم يفلح .وحين يئس من محاولاته فكر أن يبحث عن أحدهم كى يعلمه ماخفى عنه. خاض رحلة بحث طويلة إنتهت الى الشيخ عبدالله بعد رأى من الافاقين والدجالين ما لايحصى..وهكذا كان عليه أن يحتال عليه كى يعلمه فنون السحر والإتصال بالجان..

كان قد سمع عن الكنوز القديمة التى تحفظها طلاسم يحرسها الجان والمردة. وتخيل ما يمكنه أن يحصل عليه لو عثر عليها وفك طلاسمها وتغلب على حراسها..قرأ عن قوى الظلام التى تمنح صاحبها البأس، وقرأ عن الاتصال بالشياطين وكيف يمنحون القوة لمن يعاونهم ويعاهدهم. قرر أن يصل اليهم مهما حدث وأن يطاوعهم مهما طلبوا.فالعطايا التى تنتظره حينها تستحق المشقة والمخاطرة.

رأى في البداية أن يزور زوجته ويرى إبنه الصغير . سيطمئن عليهما وسيبعدهم عن البيت ُكى لايطولهم غضب الشيخ عبدالله وأعوانه. وصل الى داره الكبيرة بقريته وأمر زوجته بجمع أغراضها وأغراض ابنها ذو الأعوام الثلاث. ثم ذهب بهم الى بيت أهلها بالقرية المجاورة لقريته. أمرها أن تلزم هي والطفل بيت أبيها ولا تبرحه أبدا..حذرها من الغرباء. وفى النهاية أخبرها الا تقلق عليه لو طال غيابه وتأخر عليها. إنه في رحلة قد تطول.

وفى قلب الجبل وفى إحداى المغارات البعيدة المهجورة. استقر .. جهز المكان بما يجعله صالحا للحد الأدنى للسكنى. طرد منه زواحفه السيارة والقوارض والخفافيش، وجلب إليه الكثير من أدوات السحر وكتبه وعظام الموتى، وشحوم المقتولين كما تقتضي الطقوس. ثم أخرج الكتاب من مكمنه للمرة الأولى وراح يتأمله. الجلد سميك للغاية مصنوعا من جلد عجيب مدبوغ بإتقان، وقد نحتت في قلبه الرموز الغريبة والطلاسم وفى منتصف الغلاف الجلدي تحسست كفه دائرة مجوفة فارغة. فتح الكتاب وطالعت عيناه بين دفتيه عشرات الرسوم والرموز والطلاسم..

ولم يفهم شيئا من المسطور. الكتاب بحروف عربية لكنها غير مفهوم. حاول فك الطلاسم ومعرفة معاني الرموز ففشل حتى طال الأمد دون أن يكتشف أسراره، فشعر بالعجز واليأس وخشى أن يكون قد تسرع فى سرقة الكتاب ومفارقة الشيخ. هل خدعه ذلك المارد ودفعه لفعلته الحمقاء تلك كى يبعده عن الشيخ؟. لكن لو فعل فما هدفه من ذلك؟.

ولو كان يبغي مساعدته كما أخبره فلماذا يتركه هائما تائها في حيرته هكذا؟.

وتمضي الأيام عليه بطيئة كسولة، وهو حبيس مغارته يؤرقه .ولا يرحمه الكتاب فيكشف له أسراره. يرقد على ظهره على الحصى خارج الكهف يرقب النجوم والكواكب فيتناهى الى أذنه صوت ياتيه من داخل الكهف. يفتش الكهف خائفا. فلايجد احد ويرى لعجبه ان الكتاب مصدر الهمهمات الخفية. يقترب منه فتتعالى الأصوات والهمسات الغريبه وما ان يلمسه حتى تختفى الأصوات مرة واحدة ليغرق الصمت والرهبة المكان، يحركه بين أنامله ويتحسس ورقه الغريب الذى هو حتما من جلد الموتى ويصرخ حانقا

"ألم يحن الوقت بعد لتُظهر عجائبك "..

لكن الكتاب كما هو لايجيبه ولايريحه

ويأتي النعاس فينام بعد أيام من الأرق يائسا عاجزا. وفى الحلم كان هناك المارد. لم يخشاه هذه المرة بل شعر بالغضب منه ووجد نفسه يصرخ فى وجهه:

-لقد خدعتنى أيها الشيطان. الكتاب أكذوبة لا جدوى منه..

وتتوهج عينا المارد بالناريتين، ويجيب بصوت مخيف:

-بل أنت من يجهل كيف يعمل. تملك القوة أيها البشرى ولاتدرى كيف تستعملها.

-إذا كيف أجعله أفعل؟.

هنا تتصاعد النيران واللهب من حول المارد لتبتلعه ويقول قبل أن يتلاشى معها.

-الدم أيها البشرى هو ما يجلو الأسرار. قدم له القرابين .

ويصحو من حلمه وقد صفا عقله مرة واحدة وقد أدرك طريقه وما عليه أن يفعله. وتحرك فى الصحراء فوق حماره الذى أتى به.

ورأى مسافرا فوق حمار آخر يبغى عبور الصحراء. اندفع بلهفة نحوه وحياه وأقسم عليه أن يبيت ليلته بجواره ليطعمه ويسقيه. كان المسافر قاطع طريق بائس يبغى ضحية ما. وحين تأمل هيئة الشاب الواهنة أدرك أنه لاخوف منه. لم يكن القدر قد ساق أمام قاطع الطريق ضحية ما منذ أيام فارتضى بهذا الشاب الذى يدعوه، وأمل أن يجد فى مسكنه ما يستحق أن يسلبه إياه.

أطعمه عبدالتواب فى كهفه لحم غزال إجتهد قبلها فى إصطياده .. وسقاه بعدها خمرا ملئ بالأعشاب المخدر ةبعد أن أوهمه أنه شراب منعش من جذور الأعشاب. شرب اللص بنهم ثم رقد على ظهره. وتعالى شخيرهوقد فقد وعيه. هنا جذبه عبدالتواب جذبه وأرقده في قلب نجمة خماسية صنعها فى أعماق الكهف، ثم رفع خنجره عاليا وهوى به على رقبتة ففصلها عن منبتها. انبثق الدم غزيرا كالفيضان، وبنشوة شيطانية، ملأ كفيه منه وفى الفجوة الدائرة على غلاف الكتاب سكب بعض القطرات..

وكالسحر استجاب الكتاب فى يده. إهتز بعنف وقد تشرب القطرات كلها كرمائل عطشى للماء. فكر أنه يبغى المزيد فوضع قطرات آخرى وأخرى حتى إستقر الكتاب فى يده.وحين فتح صفحته الأولى، وجد الطلاسم قد إنجلت والألغاز قد حلت. قرأ التعويذة الاولى فأدرك سرها. قبض على حجر ضخم يتوسط أرض المغارة فتحول الحجر لشاشة بلورية يرى على سطحها من يحب. رأى زوجته وإبنه فرق قلبه واطمئن. إذا فهذه التعويذة الاولى قد كشفت له الحجب فصار قادرا على رؤية من يحب. أراد أن يرى الشيخ عبدالله المنياوي فرأه للحظة على سطح الحجر قبل أن يتعكر السطح البلوري ويختفي الشيخ. هل شعر به الشيخ؟. ربما. هنا خشي أن يدرك الشيخ بوسيلة

ما مكمنه فقرر ألا يراه عبر الحجر البلوري ثانية وأن يكتفي بالاطمئنان على زوجته وابنه.

انها التعويذة الاولى فقط والكتاب مازال يحوى من التعاويذ التى لم يقم بها الكثير والكثير مما لايحصيه. وأدرك الان لماذا نعته المارد بكتاب القوة. عاد ليفتحه ليرى التعويذه التالية فقلب الصفحة الأولى. ولدهشته عادت تعاويذه مبهمة كما كانت. رمق الكتاب بدهشة وظن أنه بحاجة للمزيد من الدماء. اعتصر من العنق المبتور بعض الدماء وسكبها على الكتاب. فلم يتشربها أو يتقبلها كما حدث في المرة الأولى. جلب المزيد فسالت الدماء عن سطح الكتاب دون أن يتشربه.

هل يرغب الكتاب في قربان وأضحية أخرى ليبوح بالمزيد من أسراره، وهل عليه أن يقتل كل مرة كى يفك طلاسم تعويذة أخرى. كان مأزقا بالفعل.

***

6

عاد ليبحث عن قربان بشرى جديد. وهذه المرة كان رجلا بدويا يرعى غنمه. رواغه حتى أتى معه للمغارة ثم قتله. سكب الدماء على الكتاب فلم يتبدل شيئ. زاد من الدماء فانسابت من على غلافه نحو الارض الرمليه التى امتصتها على الفور بنهم.. فتح الكتاب وقد كاد أن يجن فلم يرى إلا طلاسمه المبهمه. مالذى تبدل؟، ولماذا لم يتقبل الكتاب هذا القربان كما حدث فى المرة الأولى. هل فقد الكتاب سحره أم أن هناك أمرا آخرا يبغيه الكتاب هذه المرة. وثارت نفسه وهو يحملق فى الروح البريئة التى أزهقها بلاجدوى. وبجسد مثقل بالحيرة والهموم حمل الجثه حيث وارها الثرى.

جرب أن يقرأ فى كتب السحر القديمة التى بحوذته عسى أن يجد بين أحشائها مايساعده فى فهم الكتاب فلم يجد للكتاب بها ذكرا. حاول أن يتلو عليه تعاويذ وعزائم تجلو السحر وتزيل الطلاسم فلم يجدى. بحث فى احلامه وقد راح ينام كثيرا عن المارد كى يهديه السبيلا فلم يصل إليه. راحت الأيام تمر عليه بطيئة رتيبة بلا

جديد حتى اعتراه اليأس وأيقن أنه قد فشل. وراحت رغبة ملحة توسوس فى نفسه أن يعود أدراجه الى بيته. وقد طمأنه قليلا أن أسرته لم يلاحقها أحد حتى الآن كما كان يخشى، ربما نسيه الشيخ عبدالله، وربما فشل فى الوصول إليه.

وفى هذا اليوم كان القيظ ثقيلا كالهموم، وراحت رمال الصحراء تتوهج امام بصره في مدخل المغارة لامعة ملتهبة. ولدهشته رآه قادما نحوه من بعيد غير عابئ بالحر ولا الرمال المشتعلة أسفل قدمه. فكر برعب أن الشيخ عبدالله قد وصل إليه عبر أعوانه من الجان بلا شك، فلا بشرى بقادر أبدا على عبور الصحراء فى مثل هذا القيظ بمثل هذه الطمأنينة كما يفعل هذا الشيخ، لكنه لم يكن الشيخ.

أيكون هذا القادم نحوه الأن عفريتا أم جانا أم ماردا شيطانا. وهل ينتظره داخل المغارة. أم يهرب منه. لكن إلى أين يذهب في تلك الصحراء. لم يكن يملك غير سكين حاد فأمسكه بترقب وقد قرر أن يدافع عن نفسه لو أضمر القادم الأذيً له.

مضت اللحظات ثقيلة حتى صار الغريب أمام باب الكهف. توقف ليلتقط أنفاسه وهو يضع كفه فوق بصره محاولا تبديد ظلام المغارة والنظر الى من بها. وراح عبدالتواب يراقبه بأنفاس محبوسه وقلب لا يعرف السكينة. بدا الرجل عجوزا هرما من التجاعيد الكثيفة التى نحتها الزمن على وجهه. وكان يرتدى جلبابا أبيضا واسعا وخفا جلديا كما يعتمر عمامة بيضاء فوق رأسه وقد اتكأ على عصا خشبية سوداء في كفه الأيسر. من يكون وكيف وصل الى هنا ولماذا أتي؟. تنهش الأسئلة عقله دلف العجوز فتحة المغاره فتلاشى الضوء من حوله، وتنهد قبل أن يتحدث..

-أما من مقيم هنا يأوى الغريب؟.

أجاب بصوت مضطرب:

-من أنت أيها الغريب؟. وماذا تريد؟

- غريب آخر ضيعته أحلام كأحلامك!

كلمات عجيبة وشعور غريب بالانقباض يخنق عبدالتواب والغريب يدخل أمامه يصحبه تيار بارد من الهواء من المستحيل أن يأتى من اى مكان فى هذا القيظ. لم يشعر بالراحة أبدا امام الغريب الذي توقف أمامه يتفقده مبتسما، ولما طال الصمت قطعه الغريب قائلا:

-أهارب أنت الأخر تبحث عن مأوى ..أم شقى معلول النفس تبحث عن نفسك؟

-من أنت ؟..وماذا تبغى منى؟..

قالها عبدالتواب متجاهلا أسئلة الشيخ وقد منع نفسه بصعوبة من أن يقول له "وماشأنك أنت بى" ..لكن الشيخ هو الأخر تجاهل أسئلته وهو يجلس فى أحد الأركان ويقول متأوها:

-يالقيظ الصحاري. كم الرحلة شاقة كما كل مرة، وكم صار المرء ضعيفا فلا يقدر عليها كالسابق.

ينظر إليه عبدالتواب بغضب ممزوج خوف..وفى النهاية صاح فى وجه الرجل:

-من أنت ياهذا وماذا تبغى منى ؟..

يبتسم الشيخ ويقول ببساطة :

-بل أنت الذى يريد ..لكن لابأس ببعض الماء البارد لو كنت مصراً على معرفة ما أطلب.

وجد نفسه يحمل اليه قنينة ماء، تناولها الغريب بيد معروقة طويلة الأظفار وشرب منها بنهم قبل أن يعيدها اليه فارغة ويتنهد بارتياح قائلا:

-حلو هو الماء المارد. لا أمل لي به في أسفاري الطويله.

-من أنت؟

-ألا يحمل لسانك سؤالا غيره يا فتى؟..

-سأسألك غيره حين أحصل على إجابته. من أنت؟.

-ادعونى بماشئت من الأسماء وإمنحنى ما أحببت من الألقاب..أنا أى شئ تتخيله أي شيء تحبه أوتخافه. انت تدعي عبدالتواب، أليس كذلك؟..

هنا يرتج عبدالتواب..يرمقه بعيون متسعة جاحظة وأيد ترتعش خوفا. كيف عرف أسمه، إنه ليس بشريا حتما.. ويزداد رعبا حين يصل تفكيره لتلك النقطه فتتسع إبتسامة الرجل وهو يهز رأسه موافقا كأنما يجيب على افكاره التى تدور بخلده "نعم.. أنا لست بشرى".

هل يهرب؟ ..لكن الى أين ؟. وينهض الشيخ ثانية متكئاً على عصاه ويغمغم:

-تبحث عنى وحين آتيك ترغب فى ان تهرب منى .. عجيب حالكم أيها البشر ..

يتراجع عبدالتواب للخلف ويقول مرتجفا :

-من أنت ؟. هل أنت الشيطان؟..

ويضحك الغريب ضحكة صاخبة تظهر اسنانه البيضاء النضيده ،ويميل نحوه قائلا:

-وماذا لو كنت هو..أليس الشيطان هو من سوف يهبك القوة والغنى اللذين تبحث عنهما؟..

يراقبه بحذر ويتحرك الغريب للداخل..وتتصاعد فى انف عبدالتواب رائحة كبريتية عنيفة يصدرها الرجل.. يرى الغريب النجمة الخماسية الكبيرة المطلسمة والتى مازالت تحوى دماء جافة للقتيلين اللذين قتلهما منذ أيام فيهز رأسه برضا،ويلتفت إليه باسما ويقول بجذل:

-أرى أنك مخلص فى عملك أيها البشرى..يمكنك أن تحوز على ما تصبو إليه ،لكنك تطرق الدرب الخاطئ..

نجح الغريب في اشعال الاثارة في جوفه. تجاهل خوفه ورهبته وتابعه وهو يتفقد جدران الكهف وأرضيته. انحني الغريب نحو الجراب الجلدي الذي يحوى كتاب الدم.

ففكر عبدالتواب أن يمنعه لكنه قوى مجهولة منعته. أمسك الغريب بالكتاب ونظر اليه بشوق غريب وقد توهجت عيناه. وكأنما لا يصدق أنه يحمله. وبعد حين رفعه أمام أنفه وتشممه بقوة، وقال بنشوة:

-كم أوحشتنى ياصغيرى. يوما ما ستعود إلى موطنك.. يوما ما ستعود إلى آبائك ليرعوك ثانية. لكن هذا ليس الآن. لم يحن الوقت بعد. مازال على كلينا أن ينتظر!.

ثم التفت نحو عبدالتواب الذى يرمقه بحيرة، وقال له:

-تملك القوة يافتى ولاتدرى ماذا تفعل بها. كم أنت شقى أيها البشرى

هتف عبدالتواب وعينيه معلقه بالكتاب وقد تناسى مخاوفه:

-وماذا أفعل به. إنه يرفض أن يبوح بمكنونه.

-الدماء وحدها ليست مفتاحه. ربما تصلح للبداية لكن هناك أمور آخرى يحتاجها ليتكلم.

-لقد قدمت أضحيتين له لكنه لم يبح الا بالقليل .

-فتش عن الشيخ الأسود. إبحث عنه تظفر بالاجابات. إنه بغيتك أيها البشري.

"الشيخ الأسود؟" ردد بحيره ..من هذا الشيخ الأسود وأين يجده .. ومرة آخرى اجاب الغريب عن تساؤلاته دون أن ينطق بها قائلا:

-عليك أن تبحث يافتي. كفى كسلا ودع كهفك وتحرك. ابحث عنه لتحظى بأحلامك.

قالها وناوله الكتاب ..شعر عبدالتواب باليد المرتعشة التى تسلمه الكتاب كأنما تفعل هذا رغما عنها .. ثم وجد الشيخ يتجه للخارج مزمعا الخروج وعصاة تطرق الأرض الصخرية، قائلا:

-والأن أعود للصحراء والرمال ثانية. أما للغريب من راحة؟!

وغادر الكهف وراح يبتعد ببطء أمام عينيى عبدالتواب الذاهلتين حتى إختفى..العجيب أن الرائحة الكبريتية العنيفة ظلت بالكهف لفترة طويلة دون أن تختفى وظل سؤال عبدالتواب معلقا فى جدار الزمن بلا إجابة

-من كان هذا؟..

***

6

طالت الرحله دون أن يدرك مقصده، وتعاظمت الحيرة والقلق والتيه والغربه والتعب. جاب عبدالدايم البلاد من أقصاها الى أدناها. لم يكف لسانه لحظة واحدة عن التساؤل. هل يعرف أحدكم الشيخ الأسود ؟!..

كان البعض ينظر إليه حينها بريبة وشك وتعجب قبل أن يرد عليه أنه لايعرف شيخا كهذا. وكان البعض الأخر يرشده الى أقرب شيخ أسود البشرة يعرفونه. لكن أي منهم لم يكن هدفه. رأى فى قرية بالبحيرة شيخا ضريرا أسودا. كان قمئيا قبيحا فلم يحبه، وكان يعمل بالدجل والسحر.. ومنذ اللحظة الاولى كشف زيفه وادعائه، وقد رأى الكثيرين من أمثاله. سأله الرجل عن حاجته فأجابه بإقتضاب أنه يبحث عن الشيخ الأسود. هنا ضحك الرجل كاشفا عن أسنان سوداء قذرة نخرة ،وقال متهكما:

-وهاهو الشيخ الأسود أمامك بكل جوارحه إلا بصره. هل أتيتنى لأعد لك عملا يذهب بأعدائك للجحيم نفسه، أم تراك ترغب فى التخلص من زوجتك. يمكننى أن أساعدك فى هذا ولا تقلق ،فلست وحدك من يرغب فى هذا ،هناك الكثيرون غيرك، أم تراك تفكر فى...

هناك لم يحتمل عبدالتواب كل هذا الهراء الذى يسمعه فقاطعه قائلا:

-هل سمعت عن كتاب الدم؟..

-ولا كتاب الماء !..

-إذا فلاحاجة بى لك ..

-إنتظر يارجل ..هل هو كتاب للسحر ؟

لم يجبه وإنصرف حانقا وقد بدد الكثير من وقته فى زيارة آخرى لا جدوى منها ..

لم يكف الكتاب حينها عن إصدار همساته الخفية التي يصدرها من حين لآخر. إعتاد تلك الأصوات المخيفة فلم تعد تدهشه..ومن حين لآخر كان يخرج قطعة الحجر التى إقتطعها من المغارة ويلمسها بكفه لتصير مرآة يرى خلالها زوجته وابنه، فيتختلج قلبه شوقا. ويتمنى لو أمكنه العودة، لكن رحلة البحث لم تتم ولن يعود إلهما قبل أن ينهيها.

وفى أسيوط وفى إحدى المغارات في قلب الجبل ذهب للقاء شيخ أسود يحكون عن كراماته وقدراته. فوجده أنثى. عجوز شمطاء سوداء، كريهة الشكل والرائحة. لم يحبها، لكنه ومنذ الوهلة الاولى أدرك أنها ساحرة بحق وليست مدعيه أو دجاله كغيرها. دخل علها مغارتها ارتجف من نظراتها التى تفحصته وقد شعر أن تلك النظرات تنفذ إلى أعماقه فتعريها. أراد أن يخفى عنها غرضه الحقيقى من الزياره لكنها كانت هى من تكلم:

-لديك من الأسرار الكثير أيها الشاب، وقلبك مثقل بالحيره.

انعقد لسانه فلم يدري بما يجيبها. وواصلت الحديث:

-لست الشيخ الأسود، ولا أدرى حتى كيف يكون. لا أحد منا رآه ولا أحد يدري كيف يكون. إنه أسطورتنا الحية التى لانعلم أرضها. إنه سيدنا جميعا الذي لا نعرفه. البعض يدعوننى بالشيخ الأسود ربما لخوفهم منى أو ربما لأنى زنجيه. لكنني لست الشيخ الأسود. أنا جواهر العرافة. لاتنس هذا الاسم أيها الشاب. تعلم أن تتذكرني.

كيف عرفت كل هذا دون أن يتحدث ..هل هناك من يخبرها بما حدث معه أم أن عقله صار كالكتاب المفتوح يقرأه من يشاء. المارد قد فعل من قبل والرجل الغريب فعل وها هى تفعل. لاذ بصمته وإنتظر أن تكمل..

-أرنى الكتاب الذى لم يره احد منذ أجيال.

هنا تردد. مادامت ليست هى الشيخ الاسود فلماذا إذا تبغى رؤية الكتاب . وجد نفسه يتراجع للخلف أمام أناملها السوداء الغليظة الشبيهة بالمخالب والتي إمتدت نحوه. ظل يرمق اليد الممدوة دون ان يجيب طلبها فسحبتها ثانية وابتسمت قبل أن تطلق ضحكة كحشرجة الموت وتقول :

-لا أحقد عليك أيها الشاب لإمتناعك عن إعطائى الكتاب. لو كنت مكانك لفعلت. الكتاب أيها الشاب خطير ومن يعرف كم يمنح لا يتمنى غيره. إياك أن تأمن أحد يعرف عنه شئيا. إياك أن تفرط فيه. إياك أن تخبر عنه أحدا غير الشيخ الاسود.

وتكلم للمرة الاولى:

-لكنى لا أجده.. شهور طويلة مضت وأنا أبحث عنه ولا أعثر عليه.

-إبحث عنه وستجده. إن الكتاب معك وحتما ستجده. كلاكما يبحث عن الأخر فأصبر.

أراد أن ينصرف وقد إنتعش ببعض الأمل حين عرفت ما بجعبته وحين أكدت له أن الشيخ الأسود ليس خرافة وأنه حتما سيجده، لكنها استوقفته قائلة:

-يوما ما ستحوز القوة فإذكرنى. سيكون لى طلبا تنفذه من أجلي حينها، لكني لن أخبرك به الأن. فقط عدنى أن تحقق طلبى حينها .

لم يرغب فى التورط فى وعد لايدرى كنهه فتردد. إبتسمت عن فم ملئ بالفجوات وقد خلا من الأسنان إلا من سن نخرة،وقالت:

-سأعطيك فى المقابل شئ ينفعك للغاية . خذ هذه ولا تفتحها الآن.

قالتها ووضعت فى كفه لفافة صغيرة من الصوف مربوطة بخيط رفيع .. تأملها بحيره وحذر فقالت :

-الشيخ عبدالله وأعوانه يتبعونك يافتى ويوما ما قد يصل أحدهم إليك قبل أن تصل لسر الكتاب وقبل أن تصير قويا لتحمى نفسك.. لو حدث هذا ووصلوا إليك فك الخيط والق تلك اللفافة في وجوهم وسوف تقيك شرهم..

نظر للفافة مرة أخرى وأدرك انها لا تخدعه وقد علمت بمن يطارده بل ومدته بالقوة التي قد تحميه منهم. وضع اللفافة بجيبه ورفع رأسه بعدها نحوها وقال:

-أعدك ياجواهر أن ألبي طلبك حينها..

-لاتنسني أيها الشاب. لا تنسى كغيرك.

وطاف بعدها بكل مكان. لم يقابل بعدها شيوخا سودا ولم يجد من سمع عنه. زار الاقصر واسوان ووصل الى الواحات البعيدة فى الصحراء حتى حدود السودان بلا جدوى.وحين نسي كلمات جواهر العرافة ويئس من العثور عليه قرر العودة الى القاهرة خائبا. سيعود لعائلته وسيكف عن البحث عن هذا الشيخ اللعين وبل وسيعيد الكتاب للشيخ عبدالله فى مقابل أن يكف عن مطاردته وتعقبه

ركب القطار من أسوان وإختار مقعدا بجوار النافذة ونام ..وحين أستيقظ بعد ساعات أدرك أن القطار صار قريبا من قنا. نظر حوله فوجد شاب أبيض كالثلج فى مثل عمره يجلس بجواره، ويرتدى بذلة سوداء وطربوشا أحمرا طويلا. بدا كأحد الموظفين الكبار أو أحد طلاب الجامعات.كان يرمقه بسكينة فشعر عبدالتواب بالريبه. إنكمش فى مقعده فإبتسم الشاب وقال :

-يبدو عليك التعب والإعياء. ظللت نائما لخمس ساعات وقد ارتفع غطيطك عاليا. أنت تجيد النوم يا هذا.

شعر ببعض الخجل فحك عينيه بظهر كفيه وقال:

-بالفعل إننى متعب للغاية. لكنني الآن أفضل..

-أرى هذا.. وأرى أنك فى طريقك لبلوغ راحتك.. رحلة طويلة تلك التى خضتها يا عبدالتواب بالفعل.. رحلة طويلة مرهقة لكنها تستحق.

اتسعت عيناه فى ريبة..كيف عرف هذا الشاب هو الأخر سره؟ هل صار العالم كله يعلم ما الذى يبحث عنه. لكن حيرته هذه المرة لم تطل .إذ قال الشاب له باسما:

-آه ..إننى أعتذر حين فاجأتك بمعرفتى أحوالك واسمك دون أن تعلم من انا . لقد نسيت أن أقدم نفسى لك في البداية

وصمت للحظة وأكمل:

-أنا الشيخ الأسود.!

الفصل الرابع

لعنة الثانية والثلاثين

(قبل أعوام سبع)

بالخارج لملمت الشمس بقاياها واختفت بتؤدة خلف خط الأفق مخلفة بعض أشعتها الواهنة في قلب الأفق. ومن المئذنة التي تبعد عن البيت عشرين مترا، ارتفع آذان المغرب مخترقا غياهب الفضاء داعيا الخلق للصلاة.

وفي داخل المنزل كانت أم عماد قد انتهت من إعداد الطعام.. ثم اتجهت لحجرتها لتمارس هوايتها الوحيدة التي تجيدها دوما .. الانتظار ..

اتصل عماد بها منذ ساعات وأخبرها أنه سيتأخر في عمله قليلا.. كان يكذب وكانت تعلم ذلك. لابد أنه الآن مع منى. حبيبته. كان يكذب عليها كي لا يضايقها، وهو يعلم أنها لا تتناول طعامها من غيره. لكن ما لا يعلمه أنها سمعت همساته بالأمس، وهو يحدث منى ويخبرها بموعدهما اليوم. لم تخبره بما سمعته، واكتفت بالدعاء له ورجته ألا يتأخر، فوعدها ألا يفعل .. لكنه دوما يفعل. سيتأخر ككل مرة، ولن يأتي قبل الثامنة أو التاسعة، وككل مرة ليس امامها غير انتظاره.

لقد كبر الفتى وصار عاشقا، وبعد حين لن يطول، ستكون له حياته المستقلة مع حبيبته التي اختارها قلبه. سينسل من بين يديها هو الأخر، كما حدث لأخته، حين تزوجت قبل عامين، ورحلت مع زوجها للخليج حيث يعمل. سيتزوج عماد هو الآخر، وقد يذهب مع زوجته بعيدا، وستبقى هي بمفردها في البيت تجتر ذكرياتها وحياتها بملل الشيخوخة وضجر العجز، في انتظار موت يخفف عنها وطء الحياة..

تحركت بتثاقل وجرت قدمين منتفختين بالماء لتسير نحو حجرتها. صار قلبها ضعيفا، ولهذا صارت قدميها متورمتين بالماء، كان عليها أن تتناول الكثير من الأقراص كل صباح ومساء. في الواقع لم تجدي العقاقير كثيرا، بل جعلتها تشعر بالإعياء طوال الوقت.

جلست على طرف فراشها للحظة قبل أن تخرج البوم صور عتيق كان أسفل الوسادة. فتحته وتأملت الصور حبيسة الأغلفة البلاستكية المتآكلة، قبل أن تتنهد

وتخرجها كلها من محبسها، وتنثرها على الفراش لتتأملها. رفعت إحداها وقربتها من بصرها، كانت صورة غير ملونة تجمعها بسالم. زوجها الراحل ووالد أبنائها.

كان يرتدى فيها قميصا مقلما، وبنطال ضاق عند الفخذ واتسع في نهايته..كان يحيط كتفيها بذارعه ويبتسم للكاميرا، وقد استكان رأسها إلى صدره باطمئنان من لا يخشى الغد. ابتسمت بمرارة وتذكرت كم كان الغد قاس بعدها. وانتقلت بعينيها إلى صورة أخرى..كانت لابتسام وهي في الخامسة، وقد راحت تلتصق بساق أبيها الذي كان يرفع رضيعه في ذلك الحين عماد وهو يضحك..كانت الصورة في القناطر الخيرية، وكانت هي من صورهم بالكاميرا العتيقة التي ما زالت تحتفظ بها في دولابها. كانت تلك الصورة هي الأخيرة لزوجها قبل أن تحلالفاجعة التي أودت به. قبلت الصورة بشفتين يابستين وازدادت دموعها انهمارا، وهمست كأنما تحدث زوجها:

- كم أفتقدك يا حبيبي.

ظلت الصورة بقبضتها ورقدت برأسها على الفراش وأغمضت عينيها الدامعتين وراحت تتذكر..

تذكرت الفتى الذي طرق قلبها قبل أن يطرق باب بيتها ليتزوجها. كان وحيدا كزهرة برية في قلب الصحراء. أخبر أباها أنه بلا أب، أو أم، أو أهل يعرفهم. لكنه راق أباها فقبله، وتزوجا. دام زواجهما عواما ست فقط، لكن ذكرياتها معه في تلك السنوات كانت كعمر بأكمله.

مات سالم في يوم ميلاده، حين بلغ الثانية والثلاثين من عمره. مات بعد أحداث غريبة بدأت فجأة، ذهبت بعقله قبل أن تذهب بعمره. مات في الثانية والثلاثين من عمره وقد اخبرها قبل ذلك أن من المصادفات في عائلته أن والده قد مات في الثانية والثلاثين من عمره فجأة، وكذلك فعل جده. يومها كان يضحك وهو يخبرها أنه يسميها لعنة الثانية والثلاثين، وأنه يخشى أن يكون هو الأخر فريسة لها يوما ما.

يومها احتضنه بجزع وهي تطالبه أن يكف عن فأله المشئوم هذا، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة لا أكثر. لكن الأمر لم يكن مصادفة ، ومات هو الآخر في الثانية والثلاثين من عمره تماما..

وطوال أعوامها التالية عاشت في رعب لا ينتهي وهي ترى ابنها عماد ينمو أمام بصرها يوما بعد يوم والحيرة تنهشها، هل تدركه هو الأخر لعنة الثانية والثلاثين كما لحقت بأبيه وأجداده. لم يكن هناك من سبيل لتدرك الحقيقة. وظلت أسيرة للحيرة والقلق حتى اعتل جسدها وحاصرته الأمراض التي هدمته..

لكنها لم تخبر عماد عن تلك اللعنة الغامضة التي تجري في دماء عائلته. لو كان مقدرا له أن يكون ضحيتها يوما ما، فلتحدث فجأة دون أن يؤرقه انتظارها. ليعيش حياته الطبيعية كأقرانه دون أن يذوب احتراقا وخوفا في انتظارها، فكم كان الجهل رحمة وكم حملت المعرفة في جوفها الشقاء.

فتحت عينها وإعتدلت ورفعت رأسها للسماء ببطء تناجي الخالق وتدعو من أعماقها أن يجعل موتها قبل يوم ابنها.

همت بالنهوض لكن الدوار فاجأها، فعادت لتجلس على الفراش..شعرت بروحها تغادر جوفها،وأنبئها قلبها المرتجف والعرق البارد الذي تفصد من جبهتها أن مستوى السكر في دمها قد انخفض حتما كثيرا. لقد تأخرت في تناول الطعام والسكر وحش لايرحم أخطاءً كهذه. تحاملت على نفسها لتنهض كي تتناول بعض الحلوى التي تحتفظ بها في الكمود. نهضت بالفعل لكن الدوار عاد بتوحش في هذا الحين فمادت الأرض أسفل منها وترنحت، أمسكت بالقائم النحاسي للسرير لتستند عليه،لكن جسدها أبى أن يطاوعها ويستقر، فهوت أرضا رغم تشبثها بالقائم الذي هوى معها..راحت تلهث والدوار يكتنفها ويكاد أن يغيبها عن وعيها ..كانت تعلم أن السكر لو واصل انخفاضه أكثر من هذا فقد تفقد وعيها للأبد، ولهذا راحت تجاهد غيبوبتها وتزحف نحو الكمود..

بلغته فالتقطت منه قطعة من الحلوى ألقتها في فمها ثم أغمضت عينها وهي تمتص حلاوتها ببطء. مرت دقائق من الإعياء والقلب يخفق بسعار. قبل أن ينحسر الدوار ففتحت عينها. رأت القائم النحاسي الذي انهار معها فزحفت نحوه. أمسكته بيدها ورفعته فسقط من جوفه مفتاح نحاسي غريب تردد دوي اصطدامه بالبلاط صاخبا. ثم سقط من القائم ورقة مطوية حال لونها واصفر. رمقت المفتاح والورقة بحيرة وهى تفكر إن كانت هي من خبأهم في هذا القائم أم لا. اعتصرت ذاكرتها لكنها لم تذكر أنها قد فعلت هذا يوما ما. إذن من فعل؟. بالتأكيد ليس عماد أو ابتسام. هل يكون زوجها الذي رحل عنها قبل 25 عاما هو من فعل.

عاد قلبها ليدق بقوة وهي تدرك أن شيئا ينتمي لزوجها ظهر الآن.. تحسست المفتاح وتأملته..كان ممتلئا بالنقوش الغريبة المنمنمة. لم تستطع تميزها. التقطت الورقة المطوية وقلبتها بين أصابعها .كانت صفراء مهترئة متآكلة الحواف. فتحتها لترى ما بها فشعرت بشيء حاد كالدبوس يخترق جلد إبهامها.. كان الألم حادا فصرخت.. وانفجرت من سبابتها دماء كثيرة. تشربتها الورقة الصفراء على الفور بنهم شيطاني. ألقت الورقة بحنق لتتفقد إصابتها.

كانت عيناها تتأمل الإصبع الدامي فلم تلحظ الخيوط السوداء المظلمة التي راحت تنبثق من العدم على الجدار خلف الفراش..لم ترى الثعبان المشتعل الذي ظهر فجأة في قلب الجدار حول جمجمة مشتعلة بعيون نارية مخيفة وقرنين ملتويين. لم ترى هؤلاء الأشباح الذين خرجوا فجأة من الفراغ من خلفها. وهم يرمقونها بقسوة بوجوه مسطحة لاتحمل إلا فما مظلما مفتوحا عن آخره..

ثم هتفوا فجأة بترانيم مخيفة فانتبهت. وحين استدارات برأسها للخلف والفزع يقتلها لتري ما يدور صرخت صرخة واحدة. كان هذا هو كل مافعلته قبل أن تفقد وعيها.

ولم ترى أبدا كل تلك الأجساد الدخانية التي راحت تغوص في بدنها وتختفي فيه.

****

2

أدرك عماد وهو يفكر في أمه أنه تأخر كثيرا. كانت عقارب الساعة تعدو سريعا نحو العاشرة مساء وقد خلت الشوارع الباردة من المارة. سقطت فوق رأسه قطرة من مطر، فرفع رأسه نحو السماء المظلمة الملبدة بالغيوم والسحب. كان يحب المطر ويهوى السير فيه، لكن ليس في وقت كهذا. كان في مزاج أبعد مايكون عن الرغبة في الاستمتاع بأي شيء. كان في مزاج لايشتهى البهجة..

كانت هناك منى، وكانت هناك مشاكلها مع أمها التي ترغب في تزويجها بابن أختها الطبيب الثرى الذي يعمل في دبي والذي يتقاضى في شهر واحد ما يتقاضاه أباها في عامين. أخبرته منى أنها ملت كل ما يحدث. وفي النهاية أخبرته أن عليه أن يفعل شيء ما ليصمت الجميع، كان يعي ما تطلبه منه..تعال وتقدم لخطبتي..اذهب إلى أهلي وأخبرهم أنك تريد أن تتزوجني..افعل شيئا ما يغلق هذا الباب المفتوح الذي يتسرب منه كل يوم ألف عريس وخاطب..

ابتسم لها مشجعا وهو يحتضن أناملها الطويلة الرفيعة بين أصابعه، ويقبلها. وهمس لها مطمئنا:

-لا تقلقي يا حبيبتي. سوف أطرق بابكم قريبا. ولن يكون هناك المزيد من الخطاب.

استسلمت يديها الباردتين لأحضان كفيه، لكن عينيها ظلتا جامدتين وقالت:

-إذا أخبرني متى تنوي أن تفعل؟..

يقرب أناملها من شفتيه وينفخ فيهما بعض الهواء الدافئ من صدره قبل أن يجيبها:

-أريدها أن تكون مفاجأة.

-تعلم أني لا أحب المفاجآت. أخبرنى الآن بموعد أخبر به أمي كي تكف عني.

-أخبري أمك أنها لو لم تكف عن إلحاحها وملاحقتها لك، فسوف أقتلها..

وتسحب يديها من بين كفيه، بغضب وتصيح اعتراضا:

-أنا لا أمزح يا عماد..يبدو أنك لاتفهم ولا تدرك كم أعاني..

كان قد قرر أن يتقدم وقد حاز على بعض النقود، تكفيه لخطوبة محدودة..لكن كان عليهما أن ينتظرا عامين آخرين قبل أن يكون مستعدا للزواج.. أخبرها بما انتواه فارتسمت البسمة على شفتيها لأول مرة مزيحة توترها وهمست بعيون استعادت بريقها:

-لتكن أعواما ثلاث أو أربع، هذا لايهمني.. اخطبني الآن، وبعدها تزوجني متى شئت.. فقط أخرس كل هؤلاء الخطاب وامنع أمي عني.

وصل إلى عمارته التي يقطن فيها فوجد المدخل مظلما.. دلفه شاعرا بالدفء، وصعد لشقته..كانت مظلمة هي الأخرى ..هل نامت أمه كل هذا الوقت فلم تلحظ الظلام؟. تحسست يداه الحائط بحثا عن مفتاح الإضاءة.. أضاء المكان، فوجد أمه جالسة في الصالة على الكنبة المواجهة لباب الشقة..كانت ترمقه بعيون جامدة ثابتة وأجفان لاترمش. ارتجف حين رآها هكذا، لكنه سرعان ما ابتسم وهو يغلق باب الشقة، ويغمغم بإحراج:

-مساء الخير يا أمي.. لماذا تجلسين في الظلام هكذا؟..

جاوبه الصمت، فشعر بالقلق وظلت على جلستها ساكنة جامدة..اقترب منها وهو يقول لها معتذرا :

-أعلم أنك غاضبة مني لكنني لم...

وقطع كلماته حين أمسك كفها ليقبلها..كان باردا كالثلج ،فرمقها بقلق قائلا وهو يتحسس جبهتها التي كانت باردة كذلك:

-يا إلهي ! ماهذا؟. أنت باردة للغاية. هل تشكون من مرض ما؟

مرة أخرى لم ترد عليه وظلت على صمتها وجمودها. تفقدها ببصره بقلق دون أن يترك يدها الباردة.. هزها برفق وهتف بها:

-أمي تحدثي إلي وأخبريني هل أنت بخير؟..هل تشعرين بشيء ما..تحدثي إلي أرجوك

هنا تحركت مقلتها المتحجرتين نحوه، وفتحت فمها وتحدثت، لكن ماخرج من فمها لم يكن صوتها أبدا ..كان صوتا آخرا غير صوتها..صوت غليظ غريب جعله يثب للخلف في هلع..

-لقد رحلت أمك أيها الأحمق.. رحلت للأبد وصارت ملكا لنا الآن. إياك أن تنعتها بأمك بعد الآن. إنها لم تعد أمك.

رمقها بعيون مذعورة، وقد عادت أمه لصمتها وهي ترمقه بعيون جامدة لا حياة فيها. ظل متسمرا في مكانه يرقبها بخوف وحيرة للحظات قبل أن يتمالك نفسه ثانية ويحدثها هامسا بصوت مرتجف:

-ماذا هناك يا أمي. ولماذا تتحدثين هكذا؟. ما الذي يحدث؟!.

ظلت على جمودها للحظات قبل أن تعاود الحديث بنفس الصوت الغريب:

-ألم أخبرك أن هذا الجسد لم يعد ينتمي لأمك؟.. لقد رحلت أمك كما سترحل أنت الأخر. كلكم ترحلون طوال الوقت ونبقى نحن. سوف نكون نحن فقط في النهاية.

واطلقت ضحكة مخيفة رددتها الجدران بصدى مرعب.أحس عماد بذعر لاحدود له في تلك اللحظة. وشعر أن تلك التي تحدثه ليست أمه حقا. لا يدري لماذا خشي من أمه هكذا في تلك اللحظة . فكر أن يفر من أمامها لكنه أحجم وقد شعر بالخجل من نفسه لأنه فكر في تركها وهي هكذا. لايهمه ما ألم بها أو ما تعانيه، في النهاية هي أمه وعليه حمايتها ومساعدتها..

واندفع الأدرينالين في دمائه بجرعات كبيرة أزارته على مخاوفه، تقدم نحوها وأراد أن يحتضنها ..لكنه ما أن لمسها حتى امتدت يدها نحو فأطبقت على كتفة بقوة رهيبة آلمته كثيرا، قبل أن تدفعه بعيدا.. وجد جسده يطير فجأة في الهواء لمسافة كبيرة قبل أن يصطدم بالحائط المقابل فيتكوم أسفله في ألم ورعب.. شعر بتهشم عظامه كلها.

وراح قلبه يتواثب في صدره وهو يرى أمه تتحرك نحوه وابتسامة مخيفة ترتسم على شفتيها وما زال الصوت المخيف هو ما ينبعث من حنجرتها:

-أحمق أنت الآخر كآبائك..لماذا ترفض أن تصدق أن أمك قد رحلت، ولم تعد تنتمي لعالمك الفاني.. لقد ذهبت أمك ولن تعود.. حان الوقت لتتعود هذا.

وامتدت يدها نحوه ثانية، فحاول أن يفر، لكنه لم يقدر، رفعته من قميصه بقوة هائلة، فوجد جسده يرتفع في الهواء ثانية، قبل أن تلقيه نحو جدار آخر..هذه المرة آلمته ساقه اليمنى وقد شعر أنها قد تهشمت بلاشك..لكن خوفه سحق ألمه وهو يفكر في الهرب. راحت أمه تضحك وهو تنظر إليه بشماتة، وجسده يئن ألما وفزعا.. وأحس بهواء ساخن يصفع وجهه دون أن يدرى مصدره.

ومرة واحده قفز جسده واندفع نحو الباب وهو يصرخ.. حاولت أمه اللحاق به لكنه هذه المرة نجح في أن يسبقها..وفتح الباب بسرعة وخرج إلى السلم المظلم وهو يطلق صرخاته ومن خلفه ترددت صرخة ساخطة من فم أمه ..فُتح باب الأستاذ محروس في الطابق الذي يعلوه وهرعت نحوه جارتهم أم محسن، وبعد حين لحقه الحاج رضا الذي يسكن أسفله.

كان يرتجف وعشرات الأسئلة الحائرة تلقى على مسامعه..لكنه اكتفى بأن أشار نحو شقته. وغمغم بصوت اقرب للبكاء:

-أمي!.. لا أدري ماذا حل بها.. لقد هاجمتني.

اتسعت أعينهم بدهشة، ثم اندفعوا للداخل.. كانت أم عماد تجلس على الكنبة بهدوء بارد، وبدت الشقة في فوضى عارمة، وقالت لها أم محسن بحذر وعيناها تتحركان في محجريها بقلق:

-ماذا بك يا أم عماد ..ولماذا تضربين عماد؟.

لم تجيبها. فدنت منها أم محسن بحذر، والحاج رضا والأستاذ محروس يراقباهما بحذر.. وما أن لمستها أم محسن، حتى رفعت أم عماد رأسها نحوها، وأطلقت صرخة كالفحيح في وجهها، وقد بدت ملامحها شرسة للغاية، وهتفت بها محذرة :

-إياك أن تلمسيني أيتها البشرية اللعينة.

نبض قلب أم محسن هلعا، وتراجعت بظهرها للخلف، قبل أن تتعثر في السجادة فتسقط علها وهي تصرخ وكذلك فعلت أم عماد. وراح كل شيء في الشقة يرتجف ويهتز كأنما تحركه أياد خفية..فكر الحاج رضا في أن يفر من هذا الجحيم لكنه خشي ان يُتهم بالجبن، بينما راح الأستاذ محروس يقرأ بصوت مرتفع الآيات الأولى من سورة البقرة..

ظلت أم عماد تصرخ للحظات، قبل أن تطلق ضحكات ساخرة زادتهم رعبا..هنا استجمع عماد شجاعته فاندفع نحوها ليسكتها..قاومته لكن الحاج رضا والأستاذ محروس أدركاه ليساعداه..راحت تصرخ بين أيدهم احتجاجا وهي تضربهم،وصاح الأستاذ محروس فهم وهو يقاوم كفها الذي يبغي عنقه:

-أدخلوها حجرتها بسرعة ..علينا أن نقيدها إلى الفراش..

تعاونوا بجهد على إرقادها بالفراش وظلت تصرخ وتدفعهم بذراعيها بقوة وعنف وتخمشهم بأظفارها متى إستطاعت أن تصل الى شئ منهم ..وصرخ الحاج رضا فى عماد وهو يشعر بالدم يسيل من ذراعة بعد أن جرحته:

-أحضر أى شئ نقيدها به ياعماد ..أسرع يارجل

تركهم عماد واندفع نحو المطبخ وبعد لحظة عاد بحبل غليظ. نجحوا في النهاية أن يقيدوها رغم مقاومتها الهائلة التي لايعرفون من أين أتت بها. لكنهم ما أن انتهوا حتى فوجئوا بها تصرخ بنفس الصوت الغليظ المخيف..

-لن يفيد هذا أيها الحمقى، ولن تقيدوننا للأبد.. سوف نتخلص من هذا القيد فى وقت ما، وحينها سوف تدفعون الثمن.. سوف نمرح جميعا حينها.

وترددت من فمها ضحكة ساخرة أخرى، فارتجفوا وهم يرمقوها بوجوم..

****

3

-لا حل إلا الشيخ كريم ..دعوا لي الأمر وانظروا كيف سينتهي كل هذا السخف.. أنتم لا تعلمون كم هو الرجل مُبارك وكيف هو "سره الباتع"

هكذا هتفت أم محسن وهى تمد عنقها من حين لآخر عبر الصالة. لتنظر إلى جسد أم عماد المسجى على الفراش. رمقها عماد بحيرة وهو لايعلم من هو الشيخ كريم هذا الذى تتحدث عنه وما هو الشئ الخارق الذي يبشر به..لكنه أحجم عن الحديث وعقله يشتعل تفكيرا في ماجرى منذ قليل من أمه..

وقال الحاج رضا وقد راح طوال الوقت يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم:

-هذا الأمر يتعلق بالجان. هذا واضح لا التباس فيه..هناك جان يتلبسها وهو حتما من فعل كل ما قامت به. ألم تروا كيف كانت تتحدث، وكيف تبدل صوتها..هل رأيتم كيف قاومتنا. صدقونى إنه جان وليس أمرا آخرا.

وابتلع عماد ريقه بصعوبة وقلبه يرتجف فى صدره ..أى جان هذا الذي يتحدث عنه الحاج رضا..الأمر لايحتمل كل تلك التعقيدات..ربما كان هناك تفسير لما حدث وربما كان هذا التفسير أبسط بكثير مما يسمعه. راح عقله يفتش عن هذا التفسير لكنه عجز، ووجد الأستاذ منصور يقول هو الاخر :

-أخشى أنني أوافق الحاج رضا في كل ما ذكره..لقد شهدت شيئا كهذا من قبل..كان ابن أختي ملبوسا بأحد الجان، وقد قام حينها بأشياء مريعة تشبه كثيرا تلك التي حدثت الآن.

وافقته أم محسن كذلك، وهى تهز رأسها وهتفت:

-ومن أين جاء هذا الجان..إنها "تعيش في حالها" ولا تؤذي أحدا

أجابها الحاج رضا :

-من يدرى يا أم محسن..ربما سكبت ماءا مغليا في المرحاض أو حوض الغسيل، ربما سقطت فى الحمام وربما غنت أو صرخت فيه ..أعتقد أنهم يأتون هكذا.. لقد رأيت شيخا يتحدث عن هذا في أحد البرامج التلفزيونية.

شعر عماد بالحنق من هذا الهراء الذي يدور حوله، وتمنى لو يسألهم لو يتركونه الآن بمفرده ليفكر فى مصيبته تلك..كان يرغب فى الوحدة ليفكر فيما عليه أن يقوم به.لكنه أمسك لسانه ولم يفعل خجلا.. وسمع الأستاذ محروس يحدثه قائلا :

-لماذا تصمت يا عماد ولا تتحدث. أخبرنا بما تفكر فيه لنشاركك الرأي.

فتح عماد فمه ليتحدث، لكن صرخة مخيفة من أمه أخرسته على الفور وقد ارتجفت أجسادهم جميعا لها..هنا نهضت أم محسن وتحركت نحو عماد ثم توقفت أمامه وقالت بحزم:

-اسمعني جيدا ياعماد، هذه أمور لاتعرفها ولا تفهمها.لهذا اترك الأمر لي وسوف أجلب الشيخ كريم..لو كان هذا جانا أو شيطانا رجيما حتى ، فهو خير من يطرده أو يحرقه لو لزم الأمر..وافقني فيما أريده وسنذهب سويا له فى الصباح لنأتي به لها.

رمقها عماد بحيرة قبل ان يهز رأسه بيأس بحركة مبهمة تعني الموافقة..وبعد ساعة تركه الجميع، قضى ليلة ليلاء مع أمه التي لم تكف عن الصراخ والتهديد والوعيد له.. رقد على الكنبة المواجهه لحجرتها ليراقبها وقد قرر ألا ينام، لكن البرد والسكون والملل غلبه فنام بعد ساعات..

ومابين اليقظة والنوم، شعر بحركة ما تدور من حوله. استيقظ عقله مرة واحدة، وفتح عينيه ليصدم بعيني أمه التي مالت نحوه وقد سقط شعرها المبعثر حول وجهها وهي تبتسم كالشياطين. كاد قلبه أن يتوقف فزعا، وهو يفكر كيف فكت قيودها، وما الذي تنوى فعله به .. وهتفت في وجهه بصوت كالفحيح:

-هل ظننت أن تلك الحبال السخيفة ستعوقني وتحميك مني. والآن قد فشلت حيلتك وحان وقت الحساب أيها الطفل الشقي. هيا اخبر أمك كيف تريد أن يكون عقابك؟. هيا أخبرني. إنني انتظرك.

حبست أنفاسه في صدره، وعيناه تدوران في محجريهما برعب. أراد أن يتكلم لكن فمه الجاف كالحطب لم يطاوعه، وواصلت هي حديثها المفزع وهي تتحسس وجهه بأنامل باردة قاسية:

-إنني جائعة للغاية ياعماد..أشعر أنني لم آكل منذ قرون بعيدة.. إنني أتوق للطعام بشدة.. هل تعلم أي طعام أشتهيه الآن؟.. خمن!.

انتزع الكلمات من حنجرته بصعوبة، وهو ينكمش على نفسه أكثر وهمس بفزع وهو يشير بعينيه نحو المطبخ:

-هناك الكثير من الطعام بالمطبخ . تناولي منه ما شئت.

اتسعت عيناها بشدة حتى صارتا تملأن وجهها كله وهمست في أذنه:

-وماذا عنك .. ماذا لو كنت أشتهي لحمك؟!. أتضن بهذا على أمك؟!.

عيناها صارتا بلون الدماء وانتفض جسده هلعا حين فتحت فمها بعدها باتساعه..رأى الأسنان التي استطالت وصارت أكثر حدة.. شم الرائحة العفنة التي انبعثت من فمها والتي ذكرته برائحة القبور، وانحنت على رقبته لتقضمها وقد عجز جسده عن التحرك مدافعا عن نفسه، أو محاولا إبعادها عنه..لم يكن أمامه إلا أن يصرخ..ونجحت صرخة في الإفلات من فمه في النهاية، وقد لامست أسنانها عنقه..

ثم استيقظ..

هب من رقدته والعرق يغمره، ورأسه يدور بلاتوقف في المكان مفتشا عن أمه. مازالت أمه على فراشها تصدر تلك الأصوات الغريبة، وما زالت قيودها كما هي.. كان حلما إذا.. جلس على الكنبة ثانيه وراح يلتقط أنفاسا عميقة ليهدئ من روعه ومضى وقت طويل قبل أن يهدأ قلبه.. ولم ينم ثانية..

وفي اليوم التالي صحبته أم محسن إلى عمارة حديثة بالسيدة زينب. وأمام أحدي شقها الفاخرة توقفوا وقرأ عماد اليافطة التي تعلو الباب:

الشيخ كريم عبد الوهاب

معالج روحاني وعالم أعشاب

دخلا الشقة الأنيقة فتحركت نحهما فتاة في مقتبل العمر ترتدي بنطلونا ضيقا، وبلوزة قصيرة فجرت الأنوثة فيها..لم يتوقع ما يراه وقد تخيل أن يدخل شقة قديمة بها أرائك خشبية كئيبة وإضاءة خافته، تستقبلهم فيها امرأة بدينه قذرة، وهي تحدثهم عن كرامات الشيخ، وتحصي لهم فضائله.. كان كل شئ مختلف تماما عما دار بباله قبل أن يأتي المكان. تحدثت أم محسن إلى الفتاة ذات الابتسامة العملية.بينما اتجه هو نحو احد الأركان وجلس وراح يراقب الآخرين الذين بادلوه النظرات الفضولية..بدا المكان كعيادة طبيب أكثر مما أوحى بمكان شيخ يعالج من المس الشيطاني وغيره..احتفظ بصمته، وراحت أم عماد تتحدث اليه بلاتوقف عن الرجل وما يقدر على فعله.

مضت الساعة قبل أن تشير إلهم الفتاة الجميلة بإصبع ملطخ بالأصباغ أن دورهم قد حان، فتحركوا نحو حجرة الرجل. وكما توقع عماد كان الشيخ مختلفا عما يظنه.كان في قد تجاوز الخمسين من عمره ذو شعر ناعم أسود ينسدل على جهته، ولحية خفيفة سوداء تتخللها خصلات بيضاء، وعيون سوداء واسعة نافذة تثير التوتر، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة مريحة. كان يرتدى حلة أنيقة سوداء ورباطة عنق رمادي، وقد أسدل فوقها عباءة بنية زادته وقارا.. جلس خلف مكتب أنيق هو الأخر كالمكان كله، تعلوه مبخرة كهربائية مشتعلة يتصاعد منها البخور. وعلى الحوائط ظهرت بعض الأيات القرآنية ذات الخطوط المتشابكة المتداخلة، وفي ركن آخر كان هناك بعض الأقنعة الغريبة المخيفة و الغريبة. وقد غرقت الغرفة بأكملها في رائحة البخور العطرية القوية.

ظل الشيخ كريم يتبعهما ببصره وابتسامته لا تفارق وجهه، وحين جلسا قال لهما بصوت رخيم هادئ:

-مرحبا بكما في مكتبي المتواضع. أتمنى لو أمكنني مساعدتكما.

تحدثت أم محسن ..قصت عليه كل ما حدث والشيخ يتابعها باهتمام دون أن يقاطعها وحين انتهت التفت إلى عماد وسأله:

-إذا فهي أمك يا أستاذ عماد ؟.. إنه أمر مؤسف بحق، لكن لا تقلق لن يدوم هذا العبث الشيطاني طويلا وستشفى منه بإذن الله..

-لا أتمنى غير هذا.

غمغم عماد، وعاد الشيخ ليتحدث:

-أخبرني يا أستاذ عماد.. هل ماحدث لها يحدث لأول مرة وهل حدث أمر مماثل لأحد غيرها في العائلة؟.

-إنها المرة الأولى التي يحدث فيها أمر مماثل.

-وهل تشكو أمك من كوابيس سيئة.. قطط سوداء تزورها في أحلامها. حيوانات سوداء كالكلاب مثلا تطاردها في نومها.. عيون مخيفة ترقبها أو أصوات مخيفة تسمعها وهي بمفردها؟.

-لم تخبرني بشيء من هذا أبدا.. لكن هذا لا يعني أنه لم يحدث.. ربما حدث معها وأخفته عني.. إنني لا أدري حقا

هز الشيخ رأسه متفهما وهو يلقى ببعض البخور في المبخرة الكهربائية فتصاعدت سحب الدخان وعاد ليسأل:

-وهل تواظب أمك على الصلاة؟.

-بالطبع تفعل، أمي متدينة للغاية ولا تترك فرضا واحدا. إنها أيضا تصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع.

-وماذا عنك؟.. هل جربت أن تقرأ يوما عن الجان و طرق تحضيرهم أو محاربتهم.

-لم أهتم يوما بتلك الأمور، ولم أفكر فيها أبدا.. إنها خارج اهتمامي تماما.

صمت الشيخ كريم وخفض عينيه للحظات قبل أن يعاود حديثه:

-الأمر كما هو واضح، يحوى روحا شريرة أو جانا ما، أو لنقل أنه مس شيطاني لو تحدثنا على نحو أكثر دقة.. لقد صارت تلك الأمور تتكرر كثيرا هذه الأيام.. إنها نهاية الأيام كما يبدو.

-هل أنت قادر على مساعدتها؟.

اتسعت ابتسامة الرجل وحرك كفيه وهو يعبث بلحيته، وأجاب:

-هذا هو عملي ولهذا جئتني. . سوف أعمل على علاجها من كل ما تعانيه.. لا يهم في هذا إن كان من يفعل بها هذا عفريتا أو شبحا أو جنا أزرقا حتى.. بإذن الله سوف أذهب عنها كل هذا وستشفى مما بها.

كانت عينا الشيخ كريم واثقتين، وشعر عماد بالراحة من كلماته وثقته. أحس أنه وفق كثيرا في القدوم إلى الرجل الصحيح. ووجد نفسه ينظر إلى أم محسن بامتنان، ويبدو أنها قد أدركت ما يجول بخاطره فقالت على الفور وهي تبتسم:

-أملنا في الله وفيك يا شيخ كريم كبير، لقد أخبرت عماد أنك لن تخذلنا.

وخفض الشيخ كريم رأسه بتقوى، وغمغم :

-الأمل كله بيد الله وحده ..إنما نحن أسبابه يا سيدتي.

قال عماد وقد غمره الأمل:

-إذا ماذا علينا أن نفعل الآن؟.

-يجب أن أراها في البداية.. هذه هي الخطوة الأولى.. سيكون هذا بعد صلاة مغرب اليوم لو كان هذا مناسبا.. فقط اتركوا العنوان مفصلا عند داليا، مساعدتي بالخارج

ومعها الأتعاب، وسوف أكون عندكم في الموعد الذي حددته.. كونوا بانتظاري ولن أتأخر.

****

4

حضر الشيخ كريم في موعده تماما بعد صلاة المغرب مباشرة، وطلب على الفور أن يرى أم عماد. كانت أم محسن وعماد والحاج رضا بانتظاره..وتقدمته أم محسن نحو حجرة أم عماد. عبق المكان برائحة عضوية عفنة وشت بأن أم عماد قد أطلقت العنان لفضلاتها. لم يبد على وجه الرجل أي تأفف واتجه نحوها بلاتردد دون أن يولي اهتماما لأم محسن التي راحت تعتذر عن تلك الرائحة الشنيعة.. جذب مقعدا خشبي من احد الأركان وجلس أمامها. وبينما راح ينظر إلها متفحصا راحت أم عماد ترمقه ببرود ولامبالاة. بعد لحظات أغمض الرجل عينيه، وراح يردد في سره كلمات مبهمة وقد وضع كفه على جبهتها. مضت لحظات من الترقب، وعماد يتابع بعينه ما يفعله الرجل حتى شق الصمت صوت أمه . وخرج من فمها نفس الصوت الغليظ المخيف:

-من هذا الأحمق، وما الذي يفعله هنا؟. هل أتيت بمهرج ليرى أمك ياعماد؟

قالتها لعماد وأطلقت ضحكة صاخبة مخيفة .وقبل أن يتحدث عماد أشار اليه الشيخ كريم ألا يفعل .. وبينما استمر الرجل في تراتيله الخافتة دون أن ينصت إلها، واصلت هي في حديثها:

-أنت تمزح أيها المهرج بحق..ما هذا الهراء الذي تمتم به ..ارفع صوتك بما تقوله ليسمعوك وليضحكوا معي ..إنه مهرج ..مهرج يا حمقى.

قالتها وعادت لتضحك ثانية..وبينما توتر عماد، فتح الشيخ كريم عينيه وقال لها بثقة وهو يرسم بكفه في الهواء حول رأسها دوائر وخطوط وهمية متشابكة:

-أشعر بخوفك مني، وأفهم ما الذي تروم إليه بنعتي بالمهرج..أنت تعلم أنني سوف أخرجك من جسدها. أنت تدرك أني قادر على فعل ذلك.

لكنها ردت عليه بتحد، وقالت:

-أنت واهم. وأعدك أن تدفع ثمن تحديك لي. أنت ترتجف بداخلك وتعلم أنك عاجز أمامي. هيا اخبرهم بهذا ولن أؤذيك كثيرا ..أفعلها لأصفح عنك.

وجم الشيخ كريم ولم يرد. رمقها للحظة، ثم نهض من مقعدة والتفت نحو عماد وقال وهو يخرج من الحجرة:



-لقد انتهيت.. دعنا نكمل حديثنا بالخارج.

لكنها عادت لتتكلم بمكر:

-تسمي نفسك الشيخ كريم..أليس كذلك. لديك فتاتين. يمكنني أن أراهما. الكبيرة فاتنة بشعرها الطويل الأحمر، والصغرى تشبه أمها التي طلقتها منذ عشرة أعوام..

انتفض الشيخ كريم فجأة،وتسمر في مكانه للحظة، وبان على ملامحه الفزع لأول مرة وقد اختفت ثقته بنفسه. رأى عماد كل هذا في وجهه فإضطرب هو الآخر، وانتظر أن يبدأ الشيخ كريم بالحديث ليفسر له مايجرى. مضت لحظات من الترقب ظل الشيخ كريم خلالها يرمق الحجرة بتوتر قبل أن يشيح وجهه ويقول:

-أغلق الحجرة عليها ..لا أريد أن تزيد من توترنا بحديثها هذا. إن من يستحوذ عليها شرير جدا وماكر للغاية.

وصلهم صراخها وضحكاتها المكتومة عبر الباب المغلق، فأكمل بقلق:

-إنه جن قوى كما لم أرى من قبل. أعتقد أنه أحد أمراء الجن الأحمر. إنهم من يمتلكون القوة ليفعلوا شيئا كهذا.

ارتجف الجميع لوقع كلماته في قلوبهم، وغمغم عماد بصوت مختنق:

-وهل يمكنك التغلب عليه؟.

عادت الابتسامة الواثقة إلى وجه الشيخ كريم واسترد وجهه حمرته، وقال:

-سوف أخرجه منها بالطبع؟ لكن هذا سيتطلب بعض النفقات، والإعدادات والمساعدة من آخرين.

أجابه الحاج رضا وهتف وهو يلوح بكفه:

-افعل أى شيء ولا تلق بالا للنقود. اطلب ما شئت ياشيخ كريم وسوف نعطيك، لكن أطرد هذا الملعون من جسد أم عماد..

لم يكن هناك مايضيفه عماد كان ليدفع عمره نفسه ثمنا لشفاء أمه..لذا فقد هز رأسه للشيخ كريم مؤكدا ما قاله جاره، فقال الشيخ كريم بارتياح:

-على البركة..لكن هناك شي ما يجب علينا أن نقوم به أولا.

رمقه الجميع بتساؤل، فأخرج من حقيبته الجلدية الصغيرة محقنا وأمبولا زجاجيا كسر عنقه وسحب ما به من سائل وهو يقول:

-سأعطيها مهدئا ما..يجب أن نجعلها تنام قليلا..كما يجب علينا أن نقوم بتنظيفها. لن نتركها لتتعفن في فضلاتها هكذا.

رمق عماد المحقن بتشكك ولاحظ الشيخ كريم هذا فقال له مطمئنا:

-اطمئن أنه مهدئ طبي يدعى فاليام. إنها بحاجة له كي تهمد ثورتها.

قالها واتجه نحو حجرتها ثانية مكملا:

-ليساعدني أحدكم، أحتاج لمن يقيد ذراعها.

****

5

غابت أم عماد عن الوعى تماما بعد أقل من نصف الساعه من حقنها بالمهدئ. وتعاون عماد وأم محسن على نقلها للحمام، وتنظيفها، بدلوا ملابسها، بآخرى نظيفة، وإقترحت أم محسن أن يلبسوها كافولة من تلك التى يستعملها كبار السن والمرضى

فوافق.. أعادوها بعد ذلك ثانية للفراش لكن دون أن يقيدوها إليه هذه المرة..كانت تغط حينها في نوم عميق .ولم يبد عليها أنها ستفيق قبل ساعات، لذا فضل عماد ألا يقيدها الآن..

غادرته أم محسن وجلس عماد على طرف فراش أمه يتأملها بأسى.تمنى لو يعلم هل تعود كما كانت ثانية، أم تراه قد فقدها للأبد. تمنى لو استطاع البكاء ليريح لوعته قليلا..مضى وقت طويل وهو بجوارها سابحا فى أفكاره السوداء، حتى إنتبه الى صوت تليفونه يتردد رنينه بغرفته، فذهب إليه. كانت منى من يتصل به..تنهد قبل أن يرد، وقد تذكر أنه لم يكلمها طوال الوقت. توقع ثورتها وهو يجيبها ولم يكن مخطئا فى هذا. وصرخت فى وجهه على الفور فور أن أجاب الإتصال:

-أخبرني أنك تمزح معي. هيا أخبرنى أن هذا هو غرضك من تجاهلى طوال اليوم، وتجاهلك إجابة اتصالي بك، أم تراك تهرب مني بعد حديث الأمس..هل هذا قصدك ياعماد ؟.

كان أخر ما يريده الأن هو الشجار، وحاول أن يتمالك أعصابه معها كى لايثيرها، فيزداد غضبها، وقال بهدوء:

-إنها أمى يا منى. لاتعلمين حتما ما أصابها.. لكن هل يمكنك أن تهدأى قليلا لأخبرك بكل شئ

وصله عبر الهاتف صوت تنفسها البطئ ومرت لحظات من الصمت قبل أن تقول:

-هل هى بخير ؟.

قص عليها كل شئ بإيجاز، لاذت بالصمت ولم تعقب، فقال لها بحذر:

-لماذا كل هذا الصمت؟..

-أنت لاتخترع كل هذا كي تهرب مني بعد حديث الأمس بينا؟. أعني أنها ليست حجة لتتفادى التقدم لخطبتي؟!.

كتم أنفاسه غيظا لحماقة ماتقوله ورد ببطء:

-وهل يمزح المرء فى أمور كهذه. هناك أم محسن يمكنك أن تسألها، وهناك الحاج رضا، لقد شهد الأمر هو الآخر.

شعرت أنها قد آذته بشكها، وأن كلامها كان سخيفا يخلو من اللياقه. كان عليها أن تشعره بمشاركتها له فى مصيبته تلك، لا أن تتهمه بإختلاقها. وزفرت نفسا عميقا وغمغت:

-وكيف هى الأن. هل تحسنت؟.

-إنها نائمة. أتمنى أن تظل هكذا طوال الليل، فأنا أتوق أنا الآخر للنوم بشدة. وبالكاد أمنع جفناي من السقوط.

-هل يمكننى أن أزورها بالغد لأطمئن عليها. سوف أجلب أمى معى.

إعترض على إقتراحها على الفور، وقد رفض أن تشهد أمها أمه على هذا الحال..لذا هتف على الفور:

-لا داعي لهذا أبدا. الأمر لايستحق العناء. أعدك أن أخبرك حين تتحسن ويعود اليها إدراكها كي تزوريها كما تشاءين، لكن ليس الآن.

-كما تريد. لكن عليك أن تحظى ببعض النوم الآن وسوف أطمئن على كليكما بالغد.

أنهى المحادثة وهو يشعر بارهاق لاحد له..خلع حذائه وألقاه بإهمال بجوار الفراش ورقد عليه بملابسه دون أن يغيرها..كان يتوق للنوم جدا ويشعر انه على وشك أن يفقد وعيه من الإرهاق.. وبالفعل لم تمض لحظات حتى تعالى صوت شخيره ..

وفي الثلث الثاني من الليل، بدأت الأحداث الغريبة فى حجرة أمه..توهجت الحجرة المظلمة بضوء أحمر دموى رهيب. ضوء شيطاني مفزع.. وعلى الجدار الخلفى لفراش أم عماد توهج الرسم الشيطانى ثانية.. ثعبان ناري يلتف حول نفسه وقد ارتفع رأسه، وتوسط الفراغ الذي صنعه بجسدة جمجمة نارية العينان لها قرنان على جانبها،

وأسفل الرمز الشيطاني بدأت كف شبحية تنطبع على الجدار وتتنقل من بقعة لأخرى نحو السيدة الراقدة في اغماء عميق حتى وصلت لرأسها. هنا ظهر لها جسدضبابى ورأس بلا خلجات وعينان حمراوان كالدم ..راقب الجسد الشبحى المرأة الراقدة للحظات قبل أن ينحنى نحو أذنها ويحدثها بلغة لا يعرفها البشر.

تململت أم عماد وهمهمت بكلمات مبهمة لكن عقلها الذى كان أسيرا للمهدئ القوى الذى حقنوها به لم يستجب. بدا وكأنه غير قادر على اجابة ذلك النداء. لكن الشبح المفزع لم ييأس، ورمقها بنظرة غاضبة قبل يرفع كفيه عاليا في الفراغ، ويبدأ فى ترتيل تعويذة ما. تعويذة مريعة لا يعوزها القوة.

بحق ناسوت، وقدرة أحنوت آمركم أن تنخعوا.. بحق ملباخ وقوة أشطيباخ أفيقوا. أزوت المغلوب يناديكم فلبوا. هبوكم بالا تاطشو. كوما تادو أحون، أحون، أحون.

فوى اللحظة التالية امتلأت الجدران بعشرات الخيالات التى راحت تهمس فى إيقاع موحد وهي تردد التعويذة من خلفه، وبعد دقيقة كانت أم محسن قد نهضت من رقدتها بحركة آلية وجلست على طرف الفراش وقد ارتفعت مقلتى عينيها لأعلى وعلى شفتيها ابتسامة مخيفة. راحت هى الأخرى تردد التعويذة المخيفة مع الظلال المخيفة، قبل أن ينتهى كل شيء فجأة..أختفى الشبح .وإبتلع الجدار الظلال التى على سطحه، وتوقفت الهمسات ولم يعد الرمز الشيطانى الذى على الجدار موجودا..

لقد أفاقت أم عماد وكان هذا كافيا كي يبدأ المرح ثانية..

غادرت حجرتها، دون أن تبالى بالظلام الحالك بالصالة، وتحركت مباشرة نحو حجرة عماد. فتحت الباب ودلفت بهدوء قبل أن تتحرك نحو الفراش الذى رقد عليه عماد فى نوم عميق. جلست على طرفه ومالت نحو أذنه ثم بدأت تهمس..

مضت لحظة قبل أن يتحرك عماد من الفراش ..وبينما إستمرت هى فى همساتها بدأ جسده فى الارتفاع عن الفراش. هنا بدأ عقله الباطن يشعر بالحيرة من هذا الوضع

الغريب الذى لم يألفه، وبحث كالمحموم فى ثنايا خبراته المتراكمة عن خبرة كهذه ربما عرفها من قبل، فلم يجد..وحين شعر أن الأمر يفلت من يده، هرعت رسله نحو وعي عماد النائم لتوقظه ليرى ما عليه أن يفعله..

فتح عماد عينيه ليجد نفسه على إرتفاع مترين كاملين من الفراش ولا يفصله عن مروحة السقف الساكنة إلا مترا واحدا. هز رأسه للناحيتين بجنون وهو لايصدق ما يحدث له، وهو يصرخ برعب حقيقى:

-ما الذى يحدث هاهنا. أين أنا؟.

رأى أمه التي رمقته ببرود وقد غربت مقلتيها فبان بياض عينها، وهي تردد تعويذتها المريعة. كان هذا أكبر من أن يحتمله فراح يصرخ. راح يصرح وهو يحاول بكل قوته أن يفلت من قوى خفية ترفعه فى الهواء وتمنعه من السقوط..لكن جسده إستمر فى الإرتفاع ببطء نحو السقف ورأى فى هذه اللحظة كيف بدأت مروحة السقف فى الدوران. تضاعف الهلع في نفسه، وارتفع صراخه اليائس، وظلت امه ترمقه بثبات وفمها لا يتوقف عن الهمهمة الخفية ..بدت وكانها تلعنه بتعويذة ما.

إزدادت سرعة المروحة أكثر وأكثر، وبدا يشعر بهوائها البارد يضرب جسده الذي يقترب منها حثيثا . فأحس بفزع لم يشعر به من قبل، ووجد نفسه يفكر بجنون كيف يحتمل ما هو مقبل عليه حين تبدأ أذرع المروحة الحادة فى تمزيق لحمه وجلده، وتهشيم عظامه..

راح يستجديها أن تتوقف، وقد دنا جسدة من الأذرع المعدتية العملاقة، حتى كاد أن يلامسها، ثم أطلق صرخة أخيرة وهو يتمنى، أن ينتهى الامر بسرعة وألا يطول عذابه.

يقولون أن قطع الرقبه لا ألم فيه ،وقرأ من قبل مقالة تؤكد أن ذبح الطيور هو الطريقة المثلى لقتلها دون ألم حقيقى..قرأ أن العصب الحائر بالرقبه هو أول ما تلمسه حد الشفرة، وأنه حينها، وفى أقل من جزء من الثانية يرسل رسله لمراكز الألم

في المخ أن تكف عن عملها وأن تهدأ. هذا ما يقوله العلماء لكن هل عاد أحد للحياة بعد ذبحة ليؤكد هذا الهراء؟ ..

فى اللحظة التالية كانت النجدة قد وصلته. وظهر الأستاذ محروس وقد جذبه صراخه فإندفع إلى شقته لنجدته. لم يفكر فى طرق الباب بل راح يضربه بكتفه على الفور حتى انهار الباب، تجمع حوله آخرين من سكان البيت.الحاج رضا وابنه إسماعيل وطه وأم محسن وإبنتها وزوجها. وكان الأستاذ محروس أول من وصل الحجرة ورأى الهول..

كان عماد معلقا فى الهواء وجسده يندفع بإصرار نحو المروحة التى راحت تدور بجنون لم تفعله من قبل كأنما تشتهي بجنون تذوق اللحم البشري والدماء. وشاهد كذلك أم عماد التى تجمدت بمكانها بطريقة غريبة وهي تتابع ما يحدث ببرود وتتمتم كلمات غريبه .. للحظة تسمر فى مكانه ذاهلا..لكن صرخة من فم عماد أيقظته من سباته فتحرك وفعل الشئ الوحيد الصائب ..إرتمى على جسد أم عماد فسقط بها أرضا..وكالسحر هوى جسد عماد هو الآخر نحو الأرض على الفور بعد أن لامست الشفرات الحادة للمروحة شعر رأسه. كان من حسن طالعه أنه سقط على الفراش فلم يتأذى كثيرا. بعدها راحت المروحة تبطئ من دوارنها ببطء، بينما اشتعل مصباح الإضاءة وتعالت صرخات أم عماد الوحشيه وهى تدفع الأستاذ محروس بيدها بعيدا عنها..

ومرة أخرى تكالب الجميع عليها للسيطرة على جنونها. لم يبالوا بجنونها ولا صرخاتها أو احتجاجها، وتعاونوا على تقيدها ثانية، تابعهم عماد بعيون زائغة، دون أن يقدر على فعل أى شئ .ظل يرتجف فزعا، وأذرع المروحة الحادة لا تفارق ذهنه. كان يعيش كابوس يأبى أن ينتهى.

****

7

في صباح اليوم التالي جلبت له أم محسن بعض التناول فتناول منه القليل.. فكر في أمه التى لم تتناول الطعام منذ يومين، فدخل عليها حجرتها حاملا بعض الشطائر، ورفعها أمام بصرها قائلا:

-هل ترغبين فى تناول شئ ما..

رسمت ابتسامتها التى لاتنتمي اليها، وقالت وهى تمط رقبتها نحوه:

-ربما أكون جائعة ،لكنى أتوق الى شئ آخر غير طعامك السخيف هذا.

-أطلبى ماشئت، وسوف أحضره لك.. هل تريدين لحوما.. جبنا.. أنت تحبين المكرونه، هل تريدين أن أطهوها لك بعضها.

-أريدك أنت !.. ظننتك أدركت هذا.

اهتزت الصينية في يده، فتراجع فى توتر، وعادت لتضحك مرة آخرى ضحكتها المجنونة الصاخبة. خرج من حجرتها بعد أن أغلقها خلفها ثانية، وهو يحاول ألايستمع لصرخاتها أو تهديداتها..

وجاء الشيخ كريم فى المساء بعد صلاة العشاء كما وعد. كان أنيقا كعادته، واثقا من نفسه بشدة كأنما هو ذاهب فى رحله.. وفوجى عماد بمن أتى معه.

كانوا عشرة كلهم من الزنوج. ثلاث رجال ضخام، وسبع سيدات فى منتصف العمر تقريبا، وكلهن يتسمن بالبدانه. ارتدى الرجال حلة موحدة سوداء، وإرتدت السيدات فساتين سوداء طويلة، كشفت عن أذرعهم كاملة رغم الطقس البارد. راحوا يتحركون أمامه في الصالة بسرعة، وهم يدخلون معداتهم وأغراضهم. رمقهم بحيرة وهو لا يدرى من هم وما الذى يفعلونه، وتسرب الشك فى قلبه حين رأى الدفوف التى حملها أحد الرجال. هنا التفت نحو الشيخ كريم ليفهم منه ما الذى يجرى..لكن الأخير بادره بالإجابة :

-إنهم فرقة افريقيه من نيجيريا تمتلك موهبة حقيقة فى طرد الجان أو الارواح الشريرة، وكثيرا ما أستعين بهم فى أعمالى. سترى بعد قليل كم هم بارعون في عملهم.

-هل سيقومون بطقوس وثنية مثلا؟

-ليس وأنا موجود يا رجل. هل تمزح؟. طقوس وثنية في حضرة شيخ يعالج بالقرآن. لقد شططت في تفكيرك حتما.

نصبت سيدتان في تلك اللحظة قائما خشبيا في منتصف الصالة وراحت آخرى تثبت عليه بعض الستائر الملونة. وأحس عماد أن الأمر يشبه أمرا يعلمه. شيء ينتمي للجزعبلات والتخاريف الشعبية، فهتف مستنكرا:

-هل سيقومون بعمل زار؟..

أسرع الشيخ كريم بالإجابه التى يبدو أنه ذاكرها مرارا:

-ليس بالصورة التي تتخيلها. إنها طقوس مختلفه تماما أبعد ما يكون عن الدجل. إن طقوس طرد الأرواح الشريرة أو الجان أو المس الشيطاني، أو القوى السفلية متنوعة بشدة. والجميع في كل مكان يقوم بها.. هنا يقوم بها الشيوخ، وبالغرب المسيحي هناك القساوسة تحت اشراف الكنيسة والفاتيكان نفسه، وفي اليهودية هناك الحاخامات، وفي البوذية والكنفوشيسيه يقوم بها الكاهن، وفي المجتمعات البدائية يقوم بها ساحر القبيلة.. كل هؤلاء يمتلكون الطقوس الناجحة للغاية لو شئت رأيي. إن استخدام نصوص ورموز دينية معينة، أو طلاسم وكلمات سحرية مناسبة، قد تكون بقادرة على إجبار الكيان الشرير الذي يستحوذ على جسد ضحيته على مغادرة هذا الجسد.. كُلٌ يقوم بالأمر بطريقته، وكُلٌ قد يكون ناجحا في عمله هذا. إن ما يعنينا في النهاية أن نبرئ الضحية، وليس نوع الطقوس المستخدمة في هذا.

قالها وأشار نحو إحد السيدات البدينات والتى بدا أنها أكبرهن عمرا. ابتسمت له حينها، واومأت برأسها لهما حين لاحظت الإصبع الذى يشير الهما. بينما إستطرد الشيخ كريم وهو يومأ برأسه لها هو الآخر محييا:

-هل ترى هذه ..إنها (ماتا كولاباكاتو). أدعوها ماتا للتيسير. لقد ظل أجدادها لقرون، هم أشهر سحرة أحراش السافانا. تعملت فنون السحر منهم، لكنها لم تكتفي

بميراثهم. لقد درست الأمر وحصلت على شهادات علمية في محاربة الأرواح الشريرة. الحق يقال أنني وقعت على كنز كما يقولون حين إستطعت إقناعها بالعمل معى. إنها بارعة للغاية فيما تقوم به، ولم تفشل مرة واحدة في عملها..

شعر عماد أن عقله يرفض الأمر كله، وتداعت لذاكرته فتاوى قرأها من قبل حول تحريم الزار وكيف يعد شركا بالله.. نظر اليهم ومازالوا فى حركتهم الدائبة، لإعداد المكان، وفكر فى طردهم .لكنه تذكر كيف صارت أمه، فأحجم.

ظهرت أم محسن ورحبت بالشيخ كريم ونظرت الى الزنوج الذين يدورون حولها دون أن يبالوا بوجودها، وراحت تتابعهم بفضول وحماس..مضت دقائق من الصخب قبل أن يصير المكان مهيأ..

اطفئت الأنوار واشتعلت الشموع وخرجت سحب البخور الكثيفة من معقلها وإرتفعت في المكان موسيقى إفريقيه مميزة كانت الطبول هى مركزها، ثم صرخت ماتا فجأة، وقد أولت ظهرها للنصب القائم في منتصف المكان والذي علته الكثير من الأقنعة الغريبة المخيفة، وقد إمتلأ وجهها بالخطوط الطوليه الحمراء والبيضاء والزرقاء، وراحت ترقص رقصات مجنونة وهي تدور حول النصب، يتبعها الزنوج الأخرون. تراجع عماد، وبسملت أم محسن وحوقلت، ومازال الشيخ كريم فى تمتاته المبهمة وهو يرقب ما يجرى بهدوء.. وبعد دقائق قليلة من الصخب أشارت ماتا إليهم ورأسها لايكف عن الدوران فى الهواء تتبعه جدائلها الكثيرة الطويله ،فهتف الشيخ كريم فى عماد :

-لقد حان الوقت ..دعونا نحضر أمك

دخلوا حجرتها فرمقتهم بخواء وإستسلمت لأيدهم التى حررتها من قيودها..ثم تعاون كريم وأم محسن وأحد الشباب الزوج على إخراجها للخارج..

تكاثفت سحب البخار وإزدادت حدة الطبول، وراحت الفتيات الزنجيات يدرن فى هستيريا حول النصب، ثم انضم الشاب الأسود الذى يمسك أم عماد ومعه عماد

الذي يسندها من الناحية الأخرى.. شعر عماد بالغثيان بعد لفتين وهو يسند أمه لكنه إستمر ..وراحت أغنية بربرية تتردد تجاوبها أصوات تخرج من حناجر بدائية. صار الأمر جنونا. شعر عماد أن أمه قد خف ثقلها وأنها صارت لاتحتاج اليه في دورانها فجرب أن يترك ذراعها، فراحت تدور بمفردها وبسرعة مماثلة للجميع..

كانت تبتسم الأن في نشوة وتصرخ كالأخرين ،ولايدرى هل كان يتخيل مايراه بفعل الدخان والظلام أم أنها بالفعل تردد مع الأخرين تراتيلهم وأغنيتهم البدائيه التي لا يفهمها..

تراجع للخلف ووقف بجوار الشيخ كريم الذى راح يرقب ما يجرى دون أن يشاركهم أو يتدخل، وكاد أن يبتسم حين رأى أم محسن هى الأخرى وقد إندمجت فى الرقص كالآخرين، وراحت تدور هى الأخرى وجسدها البدين للغاية يترجرج بلاتوقف..

كان الجنون يضحك منتشيا الأن، وقد فقد المنطق عقله.. وراحت عشرات المطارق تضرب رأسه بلاتوقف كأنما ترد على تلك التى الطبول التي تُقرع بالخارج، وبعد نصف الساعه همد كل شئ فجأة ، ثم سقط الجميع على الأرض بغتة بما فيهم أمه وأم محسن كأنما فقد الجميع قواهم مرة واحدة..

لكن ماتا لم تفعل وكذلك أحد رجالها الذى إندفع نحو قفص خشبى وفتحه وأخرج منه غرابا أسودا راح ينعق بلاتوقف. التقطت ماتا الغراب بيد ،وبالأخرى رفعت خنجرا غريبا ذو حد مسنن ونهاية ملوية، من حزامها ودون تردد هوى الخنجر على رقبة الغراب فسقط رأسه على الأرض وإنطلقت من رقبته نافورة من الدم ،فألقت ماتا الغراب فى حجر أم عماد وصرخت وكذلك فعلت الأخريات.

راح الغراب ينتفض فى حجر أم عماد التى لم تتحرك حينها، وهي تنظر اليه ببرود..

وصمت الجميع بترقب، وبدا الصمت مخيفا على ضوء الشموع ودخان البخور.. وإبتلع عماد ريقه وهو يتساءل فى سره "ماذا بعد؟"

وفى اللحظة التالية أتت الإجابة على تساؤله الصامت..نهضت أمه فجأة ورفعت ذراعيها لأعلى فسقط الغراب الذبيح على الأرض ،وراحت تضحك.. توتر الجميع حين أنطفاءت الشموع فجأة وساد ظلام مخيف في المكان كله.. ثم راح صوت أجنحة تخفق في الفراغ. ومن قلب الظلام انبعثت الصرخات الفزعة. كان كل من بالمكان يصرخ برعب لا حدود له

حاول عماد أن يشعل المصباح الكهربائي لكنه لم يستجب لمحاولته، فأخرج من جيبه هاتفه المحمول وأوقد شاشته وعلى ضوء شاشته الخافت رأى الهول ..كان الغراب الذبيح فى تلك اللحظة يطير بلا رأس وهو يضرب بجناجية وجوه الجميع والزنوج يتدافعون ويصدمون ببعضهم في الظلام بلا هدى، للفرار من عدو وهمى. وجه الضوء نحو امه فرأى ابتسامتها المخيفة. ثم راحت صفعات من أيد خفية تضرب وجه الشيخ كريم وضيوفه، فراح يصرخ هو الآخر وهو يخفي وجهه ليحميه.

وهتفت أمه فى اللحظة التالية بصوت مخيف :

-حمقى..كلكم حمقى..

وحين حرك عماد ضوء شاشة محموله نحو الجدار شاهد الرعب، كان الحائط يمتليء بالظلال المخيفة. ظلال شبحية من الدخان وأياد ومخالب تخرج منها وتضرب الجميع بلا توقف. هنا اصطدم به أحد الزنوج فسقط أرضا وسقط تليفونه المحمول من يده.. شعر بالرعب وهو يتخيل أن تقتنصه تلك الظلال هو الأخر. ولم تتوقف الصرخات الفزعة لحظة واحدة.. الكل كان يصرخ ويتألم. وتصاعد في الهواء رائحة شيطانية لجلود ولحم بشري يحترق.

ومرة واحدة فتح باب البيت دون أن يدري من فعلها. وعلى الضوء المتسرب من السلم رأى الأبدان التى تلقى للخارج كأنما تركلها أقدام ضخمة. كانت أجساد الزنوج عارية تماما وقد مليئة بالكدمات والحروق والجروح والدماء. لكن أي منهم لم يلتفت إلي اصاباته أو عريه وهم يولون الأدبار هاربين، وكان أخرهم الشيخ كريم الذى ما أن

لامست قدماه السلم حتى راح يجرى عاريا هو الآخر لايلوى على شئ.. وبعد الدقيقة عاد الصمت، ثم اشتعل المصباح الكهربائى فجأة فأضاء المكان..

صار المكان خاليا الا منه وأم محسن التى فقدت وعيها، وأمه التى مازالت منتصبه كما هى وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها..كانت ترمقه بسخرية، وإبتلع ريقة بصعوبة وتصبب العرق من جبينه وهو ينتظر الخطوة التالية..هل تؤذه هو الآخر ..لكنها إكتفت بأن قالت بصوت كالفحيح :

-حمقي.. أنتم مجرد حمقي لا أكثر.

قالتها وسارت نحو حجرتها بهدوء كأنما لم تفعل شيء. وزفر بيأس وهو ينحنى نحو جسد أم محسن ليوقظها.

****

8

انتشرت الأخبار والشائعات فى الحي كله، راح الكل يتحدث عن المس الشيطاني المخيف الذي أصاب أم عماد، حتى علمت أم مني هي الأخرى بالخبر، فتحدثت إلى ابنتها بظفر. لقد انتهي أمر عماد. راحت بقسوة تلقى على مسامعها كلمات كالأحجار تمزق قلبها ومشاعرها. وجدت منى نفسها تتركها وتلوذ بحجرتها لتتصل بعماد. تجاهل اجابة اتصالها فى المرة الأولى والثانية. لكنها ألحت، وأتصلت به مرة أخرى فأجاب. وأتاها صوته مرهقا متعبا لكنها بادرته :

-أريد أن أقابلك الأن. الأمر عاجل.

حاول التملص منها وهو في أسوأ حال ممكن، وغمغم:

-ألا يمكننا تأجيل الأمر؟..

صرخت فيه:

-لقد ذكرت أني أريد أن أراك الأن. سأقابلك الآن وليس في وقت آخر.. يجب أن أراك الأن لنتحدث.

-الا يمكنك أن تخبريني فى الهاتف بما يدور في عقلك؟..

-أريد أن أراك الان ياعماد ..ولن أتحدث إلا أمامك..كفى تحطيما لأعصابى وقابلنى الان.

كانت تصرخ..وكان صوتها يرتجف وهي تبكى. لكن ماذا عن أمه. لم يكن ممكنا أن يتركها هكذا بمفردها.كانت تجلس في تلك اللحظة على الكنبة المقابلة له متربعة، متجمدة كالتماثيل، ولولا تنفسها البطئ لظن أنها ماتت. لن تقبل حتما أم محسن أن تعتنى بها لو طلب منها هذا بعد ماحدث لها بالأمس فى جلسة الزار، ومن العسير أن يتركها الأن ..لذا أجاب منى:

-لايمكننى يا منى أن أخرج الآن. لا أستطيع أن أترك أمى بمفردها..

-إذا سوف آتيك أنا لنتحدث في بيتك. هذا افضل. إنني بالفعل أرغب في الاطمئنان على أمك.

كان هذا آخر ما يرغب فيه..لم يكن ما حدث لأمه عيبا يدعو للخجل، لكنه لايرغب أن تراها منى هكذا..خشى أيضا أن تبادر امه بتصرف ما من تصرفاتها الشاذة فتفزع منى، أو تثير نفورها منها.. لذا صاح رافضا الإقتراح:

-هذا غير ممكن الآن يا منى..أعدك أن نتقابل فى الغد.

-كلا لن نفعل.. سوف أتي لمنزلك الأن..يمكنك أن تطردنى لو شئت، لكنك لن تستطيع أن تمنعنى من القدوم

قالتها واغلقت الهاتف كى لاتستمع لإعتراضه..

ألقى عماد الهاتف من كفه نحو الكنبة المقابلة بحنق.. أحنقه اصرار منى على القدوم لبيته في هذا الوقت العصيب. رمق أمه وهو يفكر ما الذي يمكنه أن تفعله مع حبيبته

حين تأتي رغم أن أمه منذ الأمس ظلت هادئة كطفل وديع..لم تصرخ كعادتها، ولم تطلق الضحكات الساخرة، بل ولم تغادر مكانها من فوق الكنبة التى تجلس القرفصاء عليها، جامدة متصلبة كتمثال فرعوني قديم. تمنى لو إستمرت هكذا حتى تنتهى منى من زيارتها. من السهل أن تتقبل غرابة تصرفاتها، لكن من العسير أن يطالبها بتقبل تصرفاتها الشاذة المجنونة لو عادت لثورتها وجنونها. ووجد نفسه يدعو الله فى سره أن يتم الأمر على خير ..

أتت الطرقات الخفيفة التى تصدرها أنامل رقيقة على خشب الباب، فنهض من فوره ليفتح الباب، والقى نظرة سريعة على أمه قبل أن يفعل ليطمئن لهدوئها..دخلت منى ورأى آثار نحيبها على أهدابها المبتلة وعيونها المحمرة..دلفت الصالة وابتسمت بشحوب وهى تحيي أمه من بعيد:

-كيف حالك يا ماما؟ لقد أوحشتني.

ابتلع عماد ريقه بقلق منتظرا ردة فعل إمه..لكنها لم تتحرك، فأسرع يقول لها وهو يجذبها من ذراعها ليجلس معها فى ركن بعيد من الصاله:

-انها لاتجيب أحدا كما ترين. دعينا نجلس هاك ونتحدث..

جلسا على مقعدين خشبين والتفت الها عماد بجسده بينما اطرقت هى رأسها للأسفل وهمس:

-والأن ماذا هناك ..

لم ترفع رأسها وقالت بشئ من الحزم:

-ما الذى تعانيه أمك بالضبط ياعماد..أخبرنى بالحقيقة من فضلك ولاتخفى شيئا.

وجم للحظة مفكرا وقد علم لماذا هي ثائرة، ولماذا لم تنتظر للغد. لقد سمعت حتما بما حدث لأمه. قرر أن يخبرها بالحقيقة، وليترك لها حرية إتخاذ القرار بعدها.

انتهي من قصه فربتت على كفه بتعاطف، ورمقت أمه الساكنة للحظة باشفاق، وغمغت:

-أليس محتملا أن تكون مريضة بمرض نفسى ما.. لماذا لم تفكر فى ان يراها طبيب ما؟..

كان إقتراحا فكر فيه من قبل..لكنه استبعده حين تذكر ما جرى من امه وخاصة بالأمس..مازالت صورة الغراب الذبيح الذى عاد يطير ثانية ويضرب بجناحيه الجميع فى مخيلته، ولايبارحها قط. المرض النفسى لن يفعل هذا أبدا. المرض النفسي لن يحرك غرابا مذبوحا..إن ما يحدث هو شئ شيطانى مخيف..

-لا أعتقد أنها تعانى من مرض ما.. الامر مختلف تماما.

ران الصمت للحظة، وهى تفكر فى كلمات أمها، ثم طرحت عليه الإحتمال المخيف الذى أخبرتها به أمها، قائلة:

-وماذا لو لم تبرأ أمك مما بها؟. ما الذي سيحدث حينها؟.

-ساحاول ثانية وثالثة ورابعة حتى أنجح..لن أتركها بالتأكيد هكذا ولن ألقى بها للشارع

أرادت ان تسأله "وماذا عنى ؟.."، لكن امه تحدثت حينها للمرة الاولى .. وصرخت فيه بجزع مزيف:

-هل تريد ان تلقى أمك فى الشارع أيها عاق ..انظرى يا فتاة ما الذى ينويه..سيلقى بأمه المريضة فى الشارع. لكنه لن يفلح. لن يتخلص مني هكذا. إنني معه للأبد، ولن اتركه أبدا.

ثم ضحكت فرددت الجدران صدى الضحكة المخيفة. وارتجفت منى حين سمعت ما قالته، وإتسعت عيناها برعب وهى تحبس انفاسها وتراقبها بحذر..بينما هتف عماد فى قلق وهو لايفكر إلا فى منى في تلك اللحظة:

-إهدأئى يا أمى بالله عليك..إننى لم أقل أبدا أننى سالقيك فى الشارع.ولم يروادنى تفكير ما فى فعل هذا أبدا.. هنا تحركت أمه نحوه ومالت نحوهما وقالت هامسة:

-لكن هذا لن يرضى خطيبتك أو امها ..الم تخبرك أمك يافتاة أننى قد جننت وأننى لن أشفى..إن هذا صحيح بالفعل.. لقد جننت وسوف أظل هكذ. سوف ألزم عماد للأبد ولن يتزوجك ما دمت حية. اليس هذا ما جئت من أجله. ها أنا أجيب تسأولاتك. عودى لامك واخبريها أنك توافقين على العريس الذى جلبته لك. هيا أخبرها ياعماد أنك ستلزم امك المريضة ولن تتركها ولن تستطيع أن تتزوجها. أنت تفكر في هذا الآن. أخبرها بالحقيقة ولا تخجل مما تفكر به.

راحت منى تنتحب برعب فاحتضنها عماد، وصرخ فى امه :

-إصمتى بالله عليك ..سوف اتزوجها رغما عن الجميع .. لاشيء سوف يمنعنى عن هذا.. سوف أتزوجها مهما حدث.

-هذا لن يكون أيها الأحمق

قالتها أمه، فأظلم المكان فجأة. ولم يعد هناك أى ضوء .حتى الضوء المتسرب من النوافذ تلاشى هو الآخر كأنما حجبه ستار كثيف خفي. وفى اللحظة التالية تعالت الهمهمات الوحشية والزمجرات المخيفة من كل مكان، راحت امه تهمس بكلمات لها رنين مفزع، فشهقت منى برعب وهى تلتصق به اكثر وصرخت بصوت مخنوق:

-عماد ..ماذا يحدث واين ذهب الضوء؟. إني خائفة. أخرجني من هنا.

شعر بالرعب وقد تذكر ما حدث بالامس، لو تكرر الأمر مع منى فقد تموت هلعا. راح يبحث بجنون فى جيبه عن تليفونه ليضى به المكان..هنا غمر المكان ضوء أحمر مخيف زاد من رعبهم..لم تكن أمه أمامهم فى تلك اللحظة.. كانت قد اختفت من المكان تماما..لكن ما أتى بالهول كان عشرات الظلال لكائنات مخيفة بأذرع طويلة تتمدد كالمطاط، ورؤس طويلة للغاية يتبدل شكلها باستمرار، وهى تزحف بجنون على الجدران. ثم راحت صرخات مفزعة تنبعث من العدم..

كان هذا اكثر مما يحتمل قلبها وشعرت منى أنها ستموت هلعا. تمنت لو يحدث هذا كي لا ترى شيئا .وفى اللحظة التالية وجدت رأس حماتها يتدلى أمام وجهها من أعلى في وضع معكوس، وقد تعلقت ارجلها في السقف. رأت الإبتسامة المخيفة على شفتيها، والشعر المبعثر المتدلي نحو الأرض. وشاهدت الفم الذى فتح عن آخره وقد انبعثت منه رائحة عفنة قادمة من الجحيم نفسه. ثم سمعت الأم المخيفة وهى تفح قائلة:

-والان ما رايك . هل يمكنك حقا إحتمال هذا؟..

لم يكن يمكنها أبدا ان تحتمل كل هذا الرعب. كان الجواب معلوما وليس بحاجة لكل ماحدث. فقدت وعيها وكذلك فعل عماد بجوارها. وظلت أمه تطلق ضحكاتها المجنونة لوقت طويل

****

8

ابتسم ممدوح دون أن يستطيع أن يمنع نفسه من فعل هذا حين أخبره عماد بما جرى منذ ساعات له ولمنى من أمه. كان قد ترك منزله وجاء اليه ليقضى ليلته عنده. صار يخشى أمه الان كالشياطين، ولا يأمن أن ينام فى بيت يضمهما سويا. وقال ممدوح بإثارة دون ان يمنع ضحكاته:

-هل تعنى أن أمك تسلقت الجدار وزحفت على السقف فى وضع مقلوب، ثم رأيتم رأسها فجاة مقلوبا أمام وجوهكم؟..

-لا أدرى ما المضحك فى هذا غير أنك أحمق

قالها عماد بغضب فأسرع ممدوح يقول معتذرا:

-إننى لا أسخر يارجل. فقط تخيلت الأمر، فلم اتمالك نفسى..الامر مفزع لكنه ويثير الضحك في الوقت نفسه.

لايدرى عماد كيف يكون الفزع طريفا هكذا ليثير الضحك. يبدو ان ممدوح قد أصابه الخبال..لم يرد عليه وهز كتفيه بضيق لكن ممدوح تكلم:

-والآن ماذا تنوى أن تفعل؟.

كان الكل يسأله هذا السؤال كأنما الإجابة. وتنهد بحيرة قبل أن يجيب :

-لا أعلم. كل ما أعلمه أننى بحاجة الان للنوم لأسبوع كامل. سوف انام هنا وحين أستيقظ سأفكر فى الأمر ثانية..

رمقه ممدوح للحظة قبل ان تتسع عيناه وتبرق وهى تجاهد أكوام الدهون فى وجنتيه وهتف وفكرة مجنونة تلح على عقلة:

-حسنا..ما رأيك لو تدع الأمر لى هذه المرة..سوف أتصرف أنا.. فقط اعطنى مفتاح الشقة ولا تقلق. أعتقد أنني علم ما علي أن أفعله.

شعر عماد بالقلق وهو يحاول أن يسبر أغوار ممدوح بلا جدوى .وقال بتوتر:

-ما الذى تنوي فعله بالضبط ..الأمر لايحتمل حماقات بالله عليك

-لاتقلق.. ستصحو لتجد أن ا أمور كلها قد عادت لنصابها.

-إنها أمى يا ممدوح . رغم كل شيء. هي أمى ولن اقبل ان يصيبها مكروه ما.

لكن ممدوح بدا واثقا وتحدث بإثارة وحماس :

-وأنا كذلك أعدها أما لى. وأنت تعلم هذا ..فقط ثق بى وأعطنى المفتاح..

تبادلا النظرات للحظة وعماد يفكر فى أن يرفض..كان ممدوح صديقه منذ أعوام طويلة. لكنه لايثق كثيرا في تصرفاته الحمقاء الغبية. كان يشعر احيانا أن جبال الدهون التى تحتل جسد ممدوح قد زحفت نحو عقله هو الاخر فأكسبته الغباء. لم يكن ليثق فيه فى أمر هام كثيرا. لكن الإرهاق والتوتر والحيرة هو ما دفعه لموافقته. فأخرج من جيبه مفتاح الشقة وناوله إياه وقال له مهددا:

-سأسلخك حيا لو اصابها مكروه.

راح عماد في نومه وممدوح غارق في التفكير..كان يفكر بالشيخ ميمى والشيخ وحيد . صديقاه بالمسجد. وكانت القصة بسيطة

فالشيخ ميمى وبعد أن حصل على الدبلوم عمل التجارة، تاجر فى كل شئ من ملابس وأقمشة وأجهزة منزلية وغيرها. وحين راح يتوسع فى تجارته دون ان يسعفه رأس مال كاف ،خسر الكثير فكف عن التجارة وراح بالكاد يستعيد نقوده التى بالسوق. أطلق لحيته فى ذلك الحين وعاد ليتردد على المسجد ثانية، ولازم شيخ سلفى متشدد ،فتعلم منه القشور، التي راح يرددها بعد ذلك فى حلقات العلم وقد منحه البعض حينها لقب الشيخ ميمى. هنا عاد ليفكر بالتجارة ثانية، دون أن يعلم احد من أين أتى برأس المال الضخم الذى إفتتح به متجرا ضخما للملابس الجاهزة. تحدث البعض عن النقود التى يجمعها من الناس ليستثمرها لهم وقال البعض الآخر إنها أموال الخليج التى توزع على الشيوخ ليوزعونها على الفقراء.

لم يكتف الشيخ ميمى بحلقات العلم وإلقاء خطب الجمعه. بل توغل فى امر آخر. علاج الممسوسين وإبطال الاعمال السفلية الشريرة وإخراج الجان. وذاع صيته فى تلك الأمور كثيرا ولهذا فكر ممدوح فى أن يلجأ له ..

أما الشيخ وحيد فلا تختلف حكايته كثيرا عنه. أنهى الدبلوم هو الأخر، وراح يبحث عن عمل ما وقد كره العمل بالزراعة كأبيه، وقد رآها جهد بلاطائل. جرب بعض الوظائف فلم ينجح. أصابه الاكتئاب لشهور قبل ان يخرج منه وقد أطلق لحيته وإرتدى الجلباب القصير وصار يستخدم السواك فى كل وقت، ثم صعد المنبر ليخطب فى الناس ..

كانت خطبه عتيقة لاروح فيها، أخرجها من كتب التراث العتيقةالتي هجرها الجميع، وراح يرددها بلا فهم حقيقى أو دراسه. من العسير أن تسأله عن امر ما فى الدين ويعطيك إجابة محددة أو مقنعة ..والإجابات السهلة عنده هى التحريم. إن كل مايجهله ولا يعلمه حرام. تحدث البعض عن علاقته بالامن وكيف لايتم اعتقاله

كالاخرين. قالوا انه مكلف بالابلاغ عن الشباب المتدين الذى يرتاد المساجد . لكنها فى النهاية ظلت ظنون لم يثبتها أحد ..

اشتهر هو الأخر بمحاربة الجان كما يزعم..بل وكتب كتبا يدعى (السيف البتار فى قتال الجان) وراح يتحدث كثيرا عن بطولاته فى مجاله. كانت هناك عشرات الحكايات التي يرددها بفخر دون ان ينسى مهاجمة الجهلة المدعين من شباب الشيوخ الذين يلجون هنا أمرا لايفقهونه ..

ذهب ممدوح للقائهما فى محل ميمى على ناصية الشارع حيث إعتادا أن يسهرا سويا. أخبرهما بما حدث لأم عماد فتبادلا النظرات فى تفهم قبل أن يخبراه أنهما سوف يساعدانه. تحركا نحو بيت عماد وسألهما ممدوح بفضول:

-لكن كيف يدخل الجان أجسادنا ..وكيف يعيشون بداخلنا ..إننى افكر فى هذا الامر كثيرا ولا ادرى كيف يحدث .

أجابه وحيد بثقة:

-الجان قادر على الدخول فى الجسد من مواضع شتى ..فتحتى الانف أو الفم أو فتحة الشرج أوالأذنين.. أن اى ثقب فى الجسد صالح لولوجهم. انهم يعيشون فى تجاويف القلب والعقل ويسيرون ويتنقلون فى مجارى الدم..

-لكن اليس ممكنا أن يخرج الجان من جسدها ليدخل جسدا آخرا بجوارها كجسدى مثلا؟

أجابه الشيخ ميمى هذه المرة :

-هذا محتمل ..لكننا ننتبه لهذا ولا نسمح به..

وصلوا لشقة عماد وفتح ممدوح الباب. كانت الصالة مغلقة ساكنة.. لكن ضوءا أحمرا غريبا راح يتسرب من أسفل باب حجرة أم عماد. هنا التفت الى الشيخين الشابين وقال بخوف:

-ماهذا الضوء؟..

لكن الشيخ وحيد رمقه بغضب وهو يضع اصبعه امام شفتيه المضموتين ويصدر هسيسا يأمره بالصمت ..صمت وإن لم تفارق عيناه باب الحجرة التى يتسرب من اسفله الضوء الأحمر الذى يرى مثله من قبل. هل عليه ان يتراجع الان، عاد ليفكر.

بدأ كلا الشيخان في ترديد أيات من القران إلتماسا للحفظ. هكذا يعملان دوما. وشاهد ممدوح الشيخ ميمى وهو يدور فى الصالة بشئ من الترنح كأنه سكران، وهو يلمس بكفه الجدران ومن حين لآخر تتسع عيناه كأنما يرى شيئا خفيا لايراه غيره .. أراد حينها ان يسأله عما يراه، لكنه تذكر النظرة المحذرة التى رمقه بها وحيد فأمسك لسانه.. ومضى بعض الوقت قبل ان يتحدث الشيخ ميمى:

-البيت يحوي شر كبير فى كل مكان ..أستطيع أن أشعر به.

نظر اليه الشيخ وحيد ولم يعقب. ثم اشار الى الحجرة التى مازالت تومض بذلك الضوء الأحمر الرهيب:

-ماريك لو ندخل ..

هز ميمى رأسه موافقا فإتجها اليه ومن خلفهما سار ممدوح..طرق ميمى الحجرة طرقات قوية وصاح بصوت قوى:

-السلام عليكم ..

جاوبه الصمت فكرر تحيته ثانية وفى الثالثة وحين لم يأته الرد همس وهو يفتح الباب :

-توكلنا على الله ..

فتح الباب فرأوا ما اثار فزعهم ..كانت أم عماد تجلس على الفراش وقد غمر الحجرة من مصدر خفى ذلك الضوء الاحمر الرهيب. لم تكن بمفردها. فبجوارها كانت هناك

نسختان منها متطابقتان تماما. كانوا ثلاثة من ام عماد وكانت اعين الثلاثة تشتعل باللهب.

شهق ممدوح فزعا. وتوتر الشيخ ميمى وو حيد وهما يشهدان امرا لم يشهداه من قبل، وقد زاد الضوء الاحمر الشيطانى من توترهما فتبادلا النظرات الخائفة وردد الشيخ ميمى :

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

راح يرددها بخوف حقيقى بينما فكر الشيخ وحيد فى ان يهرول هاربا من المكان كله وقد شعر ان ما يراه ليس ككل مرة ..هذة السيدة بها شئ شيطانى حقا، وليس ادعاءا كما يحدث كل مرة..

حركت النسخ الثلاث من ام عماد رؤوسهم نحوهم ورمقوهم للحظة بعيون زجاجية ميتة قبل ان يطلقوا ضحكاتهم الساخرة وتصيحون بصوت واحد كالفحيح :

-المزيد من الحمقى ..مرحبا بكم فى اجحيم.

كانت هذه لحظة الفرار ،فتراجعوا للخلف والشيخ ميمى يهتف برعب:

-دعونا نغادر هذا المكان الملعون

كان ممدوح أكثرهم رعبا وهلعا وخاصة حين راى الفزع الذى تجلى على وجه رفيقيه. لكنه تذكر أنهما هاهنا لطرد الجان عن جسدها. فلماذا يهربان إذا. لذا دفعهما نحو الحجرة بيديه الضخمتين وهو يغالب خوفه ويقول:

-إلى أين ..ألن تخرجوا ذلك الجان منها ..الم تأتوا من هنا من اجل ذلك؟..

دفعه وحيد محاولا التملص من يديه المتشبثة بملابسة وهو يصيح:

- ألا ترى إنها شيطان؟!! إتركنى يا احمق . دعنى أذهب

لكن ممدوح بالرغم من رعبه أدرك أمرا آخرا..إنه اكثرهم بدانة وأقلهم خفة فى الحركه. ولو تركهما يهربان ربما تعثر حينها فى شئ ما ووجد نفسه بمفرده معها.كان هذا آخر ما يتمناه لذا تشبث بهما اكثر وهو يصرخ :

-لن تذهبا الى اى مكان قبل ان تعالجها ..

وتحركت الكيانات الثلاث التي تحمل شكل أم عماد نحوهم فصرخ ميمي وو حيد وهما يحاولان التخلص من قبضة ممدوح المتشبثة بهم. لكن فزعه كان اقوى منهما. فلم يفلتهما. وحين تراجعوا للخلف ثانية كى يبتعدوا تعثروا فى بعضهم البعض فسقطوا أرضا. هنا أدركتهم النسخ الثلاث من أم عماد ووقفت كل واحدة منهن فوق أحدهم وهي ترمقهم بخواء. راحوا يصرخون في جنون ، بينما صاحت النسخ الثلاث في صوت موحد مخيف المخيف:

-إذا فقد اتيتم لإخراجنا من جسدها. الشيخ ميمى الجبان والشيخ وحيد الافاق. محاربي الجان الأتقياء الذين يهزمون الجان ويحرقونهم طوال الوقت. أليس هذا ما تتقناه. لقد جئتكم اليوم ببعض الجان لأرى كيف تهزمونهم.

وضحكت بسخرية، ودوت الصرخات من خلفها. وبرزت الظلال السوداء على الجدران قبل أن يخرج منها ظل مخيف بأطراف طويلة وانامل دقيقة ووجه ممسوح لاشئ فيه الا فجوة الفم والعيون الحمراء .. ثم تبعه أخر فى ركن أخر وثالث ورابع وخامس. اصطفوا أمام الجدار في غضب حقيقي فانكمش الثلاثة حول انفسهم رعبا ورددت ام عماد ساخرة:

-هؤلاء بعض الجان. هل حاربتم مثلهم من قبل؟.

كان الثلاثة فى فزع لاحدود له الأن. بال وحيد على نفسه، وإنتابت ميمى نوبة صرع عنيفة، بينما فقد ممدوح وعيه ..

وحين أفاق الثلاثة كانوا ملقيين فى أحد الشوارع المظلمة. كانت العلامات الدامية والحروق تملأ اجسادهم. وكان وجهي ميمي ووحيد موسومين بشعار شيطاني مثلث

في منتصفه عين محترقة. لكن شيئا مهما قد تبدل في وحيد وميمي. لقد فقد كلهما عقله. ورأى ممدوح وهو يعدو من أمامهما في فزع كيف يرمقانه في جنون.

****

9

كان ممدوح أحمقا. وقد كادت حماقته أن تؤدي بحياته. لقد فقد ميمي ووحيد عقلهما ورغم ذلك لم يشعر عماد بالشفقة الحقيقية علهما. في النهاية هما كانا نصابين يتخفيان خلف لحيتهما وقد نالا جزاءا كان ينتظرهما يوم ما.

توجه الى حجرته وحاول الاتصال بمنى مرارا لكنها لم تجبه. عاوده شعوره بالارهاق فقرر أن يغفو قليلا. وحين أستيقظ وجد لدهشته أن السمش قد ودعت السماء، وقد حل الظلام. أضاء ضوء حجرته وخرج. فاصطدمت عيناه بباب حجرة امه المفتوح. تذكر أنه قد تركه مغلقا. هل تراها إستيقظت..

تحرك بحذر نحو الغرفة، فلم تكن بها. شعر بصوت ما يأتي من المطبخ رغم ظلامه فاتجه إليه ودفع بابه برفق وهو يضيء المصباح. كانت أمه هناك تفترش الأرض وهي تأكل. ثم شعر بالغثيان الشديد وهو يرى ما تأكله..

مئات الصراصير مختلفة الاحجام كانت تسير في صفوف منتظمة كالمنومة مغناطيسيا نحو أمه التى راحت تلتقطها من الأرض باناملها وتدفعها نحو فمها ثم تسحقها بأسنانها مصدرة صوتا مريعا، قبل أن تعود لتلتقط غيرها. شعرت به فالتفت اليه بفم ممتلىء وإبتسمت له. ومن بين أسنانها رأى الصرصار الضخم الذى هرسته الأسنان فسالت دمائه البيضاء على شفتها. كان الدوار والغثيان الذي أحسه لاحدود له، وبالكاد وصل الى الحمام قبل أن يفرغ ما في جوفه. تقيأ كل شيء في معدته، حتى شعر أنه سيتقيأ أحشائه نفسها في المرة القادمة. كان يعيش كابوسا يرفض أن يغادره. راح يتنفس بعمق كي يغالب الدوار الذى يشعر به وبعد دقائق عاد الها ثانية. مازالت على حالها، ومازالت اكوام الصراصير الحية تاتى الها من كل صوب كأنما يجذبها

مغناطيس ما.. ابتسمت له ثانية وعادت لتتحدث بصوت غليظ، وهى تشير نحو الأرض الممتلئة بالحشرات:

-لقد أعدت ماما الطعام يا فتى ..ألن تاتى لتشاركني العشاء ..

شعر بالعجز فصرخ بيأس:

-ما الذى تريدنه منى؟.. أخبريني قبل أن أصاب بالجنون. ماذا تريدين؟

هنا تركت ما بيدها وتبددت إبتسامتها وقالت له هذه المرة بصوت مغاير للصوت الغليظ الذى صارت تتحدث به.. كانت هناك اصوات آخرى ممتزجة تخرج من حنجرة امه فى تلك اللحظة ..

-عد للسيد وحرر أزوث.. إنه ينتظرك.. حرر أزوث تنتهي آلامك.

لم يفهم الهراء الذى تقوله..وأشعرته الاصوات الممتزجة بالدوار والإعياء. ظلت تردد جملتها حتى سئم من كل هذا فراح يعدو مغادرا البيت كله. شعر بالعجز وأن قيامته قد أتت وأنه عالمه قد انتهى. يؤلمه ما آل إليه حال أمه، ويحنقه عجزه عن مساعدتها..ليته يعلم طريقا ما يسلكه كى تبرأ مما بها

وبعجز لا حد له رفع رأسه للسماء وهتف متضرعا "رحماك يا الله "

ارتفع فى تلك اللحظة آذان العشاء.. فساقته قدماه نحو المسجد. توضأ ثم صلى ركعتين قبل العشاء، أطال السجود فيهما، ووجد نفسه يناجى ربه باكيا ويردد:

- "ربى إنى قد مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين "

صلي صلاة العشاء بعدها وحين انتهى جذبه جاره الحاج رضا وهو يشير لركن قصى فارغ من المسجد. تحركا نحوه وحين بلغاه سأله الشيخ رضا:

-كيف حال أمك اليوم

-لايبدو أنها ستتحسن..أشعر أننى افقدها فى كل لحظة تمضى دون أن اجد حل ما لها..

ربت الحاج رضا على كفه وقال:

-لهذا أحدثك الأن .. ولهذا طلبت من الشيخ عبدالباسط عوض أن يوافينا هاهنا الأن ..بالمناسبة هل سمعت عنه؟

لم يكن يعرفه لكنه خشى ان يكون كالاخرين. يدعى العلم بالأمر وهو دجال أو نصاب أو جاهل. لكن الشيخ رضا عاجله بما يطمئن قلبه:

-لا تقلق. إنه ليس دجالا هذه المرة كالشيخ كريم هذا. إنه رجل صالح بحق ويقوم بتلك الأمور بلا مقابل أبدا، إنه فقط يبتغى وجه الله بما يقوم به. انتظر حتى تراه وستدرك ما أقوله..

تنهد عماد بيأس وهز كتفيه، وغمغم بصوت لم يسمعه الحاج رضا :

-أتمنى هذا..

نهضا بعدها ليوديا ركعتى السنة وحين إنتهيا كان الشيخ المسن فى إنتظارهما.. كان عجوزا امتلا وجهه بالتجاعيد التي تشي بعمره الذي جاوز السبعين حتما. كانت لحيته بيضاء كالثلج بلا سوء، وكذلك كان شعر رأسه القصير. وفتر ثغره عن ابتسامة عذبة بدت وكأنما تلازم وجهه ولاتفارقه..كان يرتدى جلبابا ابيضا طويلا و قد لف رأسه ب (شال) ابيض. حياه الحاج رضا ثم طلب من عماد أن يخبر الشيخ بما حدث لامه.

راح عماد يقص حكايته، والرجل يستمع إليه بإهتمام. ولم يقاطعه أبدا.

إنتهى عماد فران الصمت للحظات قبل ان يبدأ الرجل حديثه. كان يتحدث الأن بوجه غير الذى جاء به وقد تعكر مزاجه :

-لا أدري ما الذي ينبغي علي قوله لكن الأمر خطير. إن مافعلته أمك مع ذلك الافاق المدعو كريم وفرقته النصابة أو هؤلاء الأطفال المهرجين ميمى ووحيد لايقدر عليه الا عفاريت الجآن أو بعض المردة مجتمعين. الامر أكبر من أن يقوم به فرد واحد من الجان أو غيره.

وصمت ولاحظ عماد أن كفه الممسكة بعكازه لاتكف عن الارتعاش وان الأخرى بها بعض الضمور. وقال الحاج رضا بحيرة:

-وما الفرق بين الجان والعفاريت يا مولانا.

-كلهم أصل واحد لكنهم مراتب مختلفة، فكلهم في أصله جان..لكن الجان لو توحش وإشتدت قوته، صار عفريتا، ولو غلبه شره وإزداد فجورا فهو شيطان..

إرتجف جسد عماد، وغمغم باحباط:

-أيعني هذا أنه لا أمل في خلاصها من ذلك العذاب.

عادت الابتسامة لوجه الشيخ عبد الباسط..أرادها مطمئنة أكثر منها حقيقية..وقال مجيبا:

-لم أذكر في حديثي أبدا أنه لا أمل..لكني أعتقد مما قصصته أن الأمر أكثر قوة من قدراتي ..لقد تجاوزت السبعين من عمري ووهنت صحتي، ولن أحتمل أن يحدث معي ماحدث مع الآخرين لو تغلب أولئك الملاعين علي.. سامحني على كلامي هذا، إثارة كهذه لن أقوى عليها. إن قلبي أضعف من أن يحتملها.

هنا تحدث الشيخ رضا فقال:

-والحل يا شيخ عبدالباسط ..لابد أن هناك حل ما..لن نترك المرأة هكذا دون أن نفعل شيئا من أجلها..

-ومن قال اننا سنفعل..إنني فقط أرى أن نستعين برجل أخر، أعتقد أنه قد يكون أكثر فائدة مني هذه المرة

-أيعني هذا أنك لم تشاركنا في الأمر

قالها الشيخ رضا معترضا وأجاب الشيخ عبدالباسط بلوم:

-ياحاج رضا..أنا لم أعلن اسحابي من الأمر ..سوف أشارك في الأمر بالطبع ولن أتركم..كل ما عنيته أنني أريد مساعدة آخرى..شخص آخر نستطيع معا ان نواجه شرا كهذا..

سأله عماد بحذر وقد تسرب اليأس لنفسه ثانية :

-هل تقصج أن تستعين شيخ آخر؟..

هز الرجل رأسه نافيا وأجاب:

- ليس شيخا هذه المرة. بل هو طبيب. طبيب نفسى عجوز لو شئت الدقه

رمقاه بعيون مملوءة بالدهشة والذهول. لكنه أكمل وهو يستعد للنهوض:

-دعونا لا نضيع الوقت ولنذهب إليه الآن. إنه يعيش في فيلته بالمقطم. هيا بنا.

****

10

يحمل المقطم فى المساء مشاهدا مخيفة تثير الكثير من الهواجس في النفوس..كانت السماء مكفهرة مثقله بسحبها الرمادية الثقيلة وراحت رياح صحراء المقطم الباردة تزار فى كل مكان حولهم مستمتعة بفرض سيطرتها على الخلاء والظلام، تجاوزوا بسيارتهم منطقة المقابر بكاءبتها وبرودها، واتخذ سائق التاكسى الذى يستقلونه طريقا جانبيا، ومضى وقت ليس بالطويل قبل أن تلوح من بعيد أضواء الفيلا المنعزلة فى الصحراء. توقف التاكسى أمام الباب الحديدى المزخرف فترجل الشيخ عبدالباسط من السيارة وتحرك على عكازه ببطء نحو الباب وضغط زرا على الجدار القائم بجواره..لحظات وارتفع صوت ذو رنين معدنى متساءل، فأجاب بهدوء:

-الشيخ عبدالباسط العوضى.

لحظات وهرع من الباب الذى فتح شيخ طاعن فى السن. كان يعرج قليلا لكن صوته حمل ترحيبا حقيقا:

-مرحبا يا مولانا الشيخ ..مرحبا بك.

-أهلا بك ياإسماعيل .. كيف حالك أيها العجوز؟

-بخير لكنه الروماتيزم اللعين والبرد. أدعو لى يا مولانا بالشفاء.

-شفاك الله أيها العجوز. لابد أن الدكتور محمد بالداخل..لا أظنه يغادر الفيلا في هذا الصقيع.

- وهل تعتقد أنه يبالي؟. لو أراد الخروج وسط عاصفة ثلجية لفعل بلا تردد. أنت تعلمه خير مني يا مولانا. لكنه بالفعل بالداخل منذ الصباح ولم يغادر الفيلا اليوم.

-حسنا. قدنا إليه.

وترجل الجميع من السيارة ودخلوا الحديقه التى تعوى الرياح الباردة بين جنباتها بينما انتظرهم السائق فى حجرته البواب الدافئة. كانت وداد بانتظارهم أمام باب الفيلا الداخلى وقد أخبرها البواب بقدومهم. رمقتهم بنظرة باردة مستنكرة كأنما تقول لهم مؤنبة "أن هذا ليس وقت الزيارة؟". هزت رأسها ببطء تحية للشيخ عبدالباسط، وأشارت لهم بالدخول فتبعوها. ظل الشيخ عبدالباسط محتفظا بإبتسامته وفور أن تركتهم متجة للأعلى لتخبر الدكتور محمد بقدومهم، حتى مال عليهم هامسا:

-لاتدعوا برودها هذا يزعجكم. لقد تعودت هذا منها منذ ثلاثين عاما. نفس النظرة المؤنبة التى تخبرك فيها دوما ان الوقت غير مناسب للزيارة. حتى أنني لا أدرى حقا ما هو الوقت الذي تعده مناسبا للزيارة.

سأله الحاج رضا وعيناه تجوبان ارجاء الفيلا المبهرة التى تمتلئ بالتحف الفنية والتماثيل الجرانيتيه الفخمة واللوحات الفنية القيمة:

-وهل هى زوجته؟..

-بل هى مديرة منزله منذ اكثر من ثلاثين عاما..

-ظننتها زوجته ..إن ملابسها ونظرتها لاتوحى أبدا بانها خادمته

هنا مال عليه الشيخ عبدالباسط ثانية مستندا على عكازه، وقال محذرا:

-إياك أن تنعتها بالخادمة أبدا. إنها تكره تلك الكلمة تماما وتثور لو نعتها احد بها. إنها مديرة المنزل وهذا هو عملها..

هز الحاج رضا رأسه بحركة مبهمة وهو يرى انه لافرق بين الشيئين.. في النهاية وظيفتها ان تخدم صاحب المكان وضيوفه..

اما عماد فقد سحرته الفيلا وخلبت لبه تماما. وراحت عيناه تنهل من حلاوتها وأناقتها، رأى أنها لاتختلف عن القصور والفيلات الفخمة التى يراها فى الافلام، ووجد نفسه يقارن بينها وبين حلمه فى الحصول على شقة صغيرة فى منطقة أرقى قليلا من الحى الذى يقطنه فابتسم بمرارة. كم هي بسيطة أحلامه لو قورنت بما يراه. وإنتبه لصوت الدكتور محمد الذى كان قد جاء دون ان يشعر بقدومه:

-أرى أن الفيلا قد أسرت صديقنا الشاب كما تفعل مع الجميع في المرة الأولى.

أحس بالخجل فنهض ومد يده بارتباك نحو الدكتور محمد ليحييه وهو يغمغم بتلقائية:

-أعتذر لفضولي. لكن المكان بالفعل مذهلة..

جلس الدكتور محمد حينها ووضع ساقا فوق ساق وغليونه فى فمه وقال ببساطة:

-لاحاجة بك للأسف. فهذا مايقوله الجميع عنها. وهذا ما يسعدنى أن أسمعه عنها. ربما يرضي هذا غروري.

كان الرجل أنيق ووسيم للغاية. لم يتخط العقد الخامس من عمره كما يبدو، وإن احتفظ شعره بلونه الأسود الحالك. كان يرتدى حلة رمادية كاملة من الصوف ورباطة عنق لبنية وفي يده كان هناك غليونا مشتعلا . شعر أنه أمام مستشرق إنجليزى أو احد بروفسيرات جامعاتها العريقة. ادهشه إهتمامه بأناقته وإحتفاظه بملابسه الكاملة رغم أنه بمنزله. وحتما لاينتظر أن يأتيه فيه أحد ما في مثل هذا الوقت.

تحدث الدكتور محمد الهم بعد ان رحب بهم قائلا ومديرة المنزل تقف بجواره:

-أعتقد ان مشروبا ساخنا يبدو ملائما لهذا الطقس البارد؟. ألا توافقوني؟.

وافقه الجميع فأشار لمديرة منزله بإعداد الشاى من أجل الجميع فإنصرفت فى صمت. التفت بعدها الي الشيخ عبدالباسط قائلا بشئ من المرح ليبدد التوتر البادى على ثلاثتهم:

-أرى أنك صرت تاتى الى فيلتى المتواضعة ايها العجوز هذه الأيام اكثر مما تذهب الى بيتك. ما رأيك لو تنتقل للحياة هنا.

-أعتقد أن لفظ العجوز تنطبق عليك يا دكتور أكثر منى ..ليتنى أعلم ما الذى تتناوله لتبدو شابا هكذا بالرغم من انك تكبرنى بأعوام

-أكباد الاطفال الصغيرة ممزوجة بعيون العذارى. جربها وسترى كيف تستعيد شبابك .

بدا حديثا طريفا ضحك منه عماد والحاج رضا. يمتلك هذا الطبيب حسا طيبا للدعابه. فكر عماد وهو يرمقه بإعجاب. وعاد ليفكر إن كان منظره الموحى بالثقة حقيقيا أم سينخدع به كما حدث مع الشيخ كريم..

دوت فرقعة مكتومة لقطعة من الخشب تحترق فى قلب المدخنة المشتعلة، وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوء بعد أن نفث بعض سحب الدخان من غليونه:

- حتما لم تغادروا فراشكم في هذا الصقيع والمطر من أجل زيارة الطبيب العجوز؟. دعوني أخمن. إنه أمر يتلعق بالجان أو المس. هل أنا مصيب؟.

سعل الشيخ عبدالباسط ومسح فمه بمنديله القماشي وقال :

-في الواقع إننا نأسف لازعاجك يا دكتور فى مثل هذا الوقت المتأخر. لكن عماد يعانى من مشكلة لامجال لتأجيلها.

هز الدكتور محمد رأسه بتفهم وقد إعتاد مثل هذه الأمور ..صار نادرا ان ياتيه أحدهم فى الصباح ليساله المساعدة فى حل مشكلة ما. كلهم يأتيه بأمور عاجلة لا تحتمل التأخير فى المساء..من حسن حظه أنه يهوى السهر وإلا إضطر لمغادرة فراشه فى كل مرة.

وعاد الشيخ عبدالباسط ليتحدث مستطردا:

- أعتقد أن عليه أن يقص عليك حكايته بنفسه بدلا مني كي لايفوتني شيء.

التفت الدكتور محمد إلى عماد وقال له باسما:



-إذا أخبرنا يا سيد عماد بما في جعبتك؟ إنني أنتظر.

ومرة آخرى حكى عماد بكل شئ حدث مع أمه ..أخبره بالشيخ كريم والزار السخيف الذى صنعه من أجل أمه والمحاولة البائسة لميى ووحيد..وما فعلته أمه به هو ومنى..حاول الا ينسى أى شئ حتى لو كان صغيرا..إنتهى فإبتسم الدكتور محمد وغاص فى مقعده أكثر وهو يشير الهم كي يتناولوا أكواب الشاى الساخن التى جلبتها لهم وداد منذ لحظات، ثم قال بشئ من السخرية:

-إذا فقد قابلت الشيخ كريم.. أما متأكد أنك لم تعتقد لوهلة أنه نصاب أو دجال. إنه يصلح بلا شك أن يكون ممثلا. ليته فكر في هذا. سيربح حينها أكثر مما يجنيه من النصب والاحتيال ولن يكون بحاجة لإستغلال الأبرياء.

-بالفعل لم يبدو كدجال أو نصاب. لقد صدقته .

-إنه دجال عصرى..الصورة الحديثة لكل موضه جديده. هناك رجال الأعمال الشباب. هناك الدعاة الشباب. هناك الممثلون الشباب. فلماذا لايكون الدجال شابا عصريا يرتدى حلة كاملة برباط عنق بدلا من الجلباب المتسخ واللحية الشعثاء. ولابأس من تقديم بعض الطقوس والجزعبلات بصورة عصرية. فمثلا الزار الذى صنعه لأمك..كل مافعله هو جلب بعض الأفارقه التعساء وإلباسهم ملابس حديثه

ليقنع زبائنه بصدق ما يفعله..لتحمد الله أنك اكتشفت أمره فى البداية، وإلا لظل يبتز أموالك حتى أخر قرش فى جيبك دون أن يفيدك.

ثم رشف بعض الشاي من كوبه وقال:

-لكن دعنا منه، ولنعد لمشكلتنا. أعتقد أن مايحدث صورة من صور الإستحواذ الشيطانى أو حالة مس كما نطلق عليها هنا فى مصر .. لكنها أكثر عنفا من المعتاد. ربما كان تلبسا مزدوجا أو ثلاثيا أو أكثر من هذا. لكن دعنا لا نستبق الأحداث. لنراها أولا ثم نصدر حكمنا.

لم يفهم عماد الجملة الأخيرة ..فسأله مستفسرا:

-ما الذى تعنيه بالتلبس الثنائى أو الثلاثى ..

رمق الدكتور محمد المدفأة المشتعلة وأخذ نفسا آخرا من غليونيه وأطلقه ببطء قبل أن يجيب:

-أعنى أمرا غير معتاد وغير مألوف..هنا يتلبس الضحية أكثر من جان فى نفس الوقت..ربما يكونوا إثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة..لا يمكنك فى حالات كهذه أن تعلم عددهم إلا بالمواجهة المباشرة ..لكنها تحمل الكثير من المخاطرة والصعوبة.. عليك أن تكون مؤهلا للتعامل مع حالة كهذه وعليك أن تتأكد من اخراج الجميع وحماية من حولك من شرهم.

-وهل يمكن شفاء أمى من حالة كهذه..

سأل عماد بقلق. تبادل الشيخ رضا والدكتور محمد النظرات للحظة، بدت لعماد غير مشجعة، وأجاب الأول بخفوت:

-علينا المحاولة دائما يابنى، والشفاء من عند الله. علينا ألا نيأس.

-أريد إجابة محددة يا مولانا..هل نجحتم من قبل فى علاج حالة مماثلة؟..

سأل عماد بشيء من العصبية.. هذه المرة أجابه الدكتور محمد:

-لأكون صادقا فالأمر عسير للغاية. قد ننجح فى إخراج الجان من جسدها بوسيلة ما..لكننا اعتدنا فى حالات كهذه أن يترك هذا خللا ما فى عقل الضحية. لا أريد أن أقول أنها ستصاب بالجنون. لكن شيئا لابد أن يتغير ويتحطم فى الضحية بعد اخراج الجان..ربما كان مشاركة عدد كبير من الجان فى جسدها وحيزها الأثيرى فى وقت واحد هو ما يتسبب فى هذا الأذى. إن الجسد البشرى فى النهاية هش ضعيف، وهذا أمر أكبر من قدرته على الصمود.

شعر عماد بالإختناق وقد أدرك أنه فقد أمه التى يعرفها للأبد. حاول التحدث فلم يقدر، لكن الشيخ رضا كان من تحدث:

-وماذا تقترح أن نفعله يادكتور؟..

-حتما لن نتركها هكذا لتؤذى نفسها أوغيرها. سوف نحاول علاجها بالطبع

قال الشيخ رضا وعيناه معلقة بعماد الذى أطرق رأسه لأسفل بيأس:

-إذا متى ترى أن نبدأ؟

-فى الغد بالطبع. علينا أن نبدأ معها بلا تأخير.

****

11

تجاوزت الساعة الواحدة والنصف صباحا حين عاد عماد لمنزله. دخله وهو يفكر، أى مفاجاة جديدة تعدها أمه له. كان المنزل ساكنا. فتساءل هل سئمت أمه المفاجاءات أم أنه سكون ما قبل العاصفة. دخل حجرتها فوجودها نائمة.

كان جائعا وأحشائه تتقلص احتجاجا. فتذكر أنه لم يتناول أى طعام منذ الصباح..تحرك نحو الثلاجة وفتحها بحثا عن شيء ما يأكله. لكنها كانت فارغة تماما من أى طعام وشراب، هل تناولت أمه كل الطعام الذي كان بها بما فيها من لحم نيء؟. أغلقها مستسلما. وغالب جوعه وقرر أن ينام بلاطعام ..

استلقى على فراشه وهو يحملق فى الظلام وأخذت الذكريات تتداعى لخياله. إختلطت الذكريات بطريقة عجيبة. كان بعضها يعود بأمه، وأخرى تعود منى. حتى وجد نفسه يرى أباه الراحل. أباه الذى لم تجمعهما سويا أى ذكري يذكرها. لقد مات وهو لم يتعد العامين من عمره ، فلم يعرفه إلا من الصور الكثيرة التى يتملئ بها البوم الصور الذى تحتفظ به امه..

رأى أبوه منهمكا فى نقب الارض. كان ينبشها ومن حين لآخر ، يلتفت اليه ويشير الى الأرض بلاصوت قبل أن يعود لعمله..إقترب منه ليرى ما يفعله..وهناك إكتشفت كم كانت الحفرة التى صنعها أبيه واسعة وعميقة. رأى فى قاعها رجل آخر يحفر هو الآخر. وبعد حين رفع رأسه لهما وأشار لباطن الحفرة المظلم تماما كما صنع أباه فرأى شخصا آخرا يحفر. وفوجى بابيه يتكلم بصوت غريب :

-أنهم آباءك.

وتعرف الصوت. كان هو الصوت المخيف الذى صار يخرج من حنجرة أمه. وحين تراجع للخلف بفزع، كان ثلاثة من أجداده قد صعدوا الحفرة وتوقفوا بجوار أبيه وراحوا يرددون في وقت واحد :

حرره لتتحرر ..حرره لتملك ..حرره لتعرف.. إنه ينتظر.

كانت أصواتهم المختلطة المزدوجة مخيفة جدا. وذكرته هى الأخرى بالأصوات التى صدرت من أمه من قبل ..تراجع وهو يصرخ فى وجوهم :

أحرر من ؟.. لا أدري ما تتحدثون عنه.. أخبروني ماذا أفعل.

هنا تحركوا نحوه وتبدلت أشكالهم..إستطالت أذرع ابيه وقدميه وتضخم وجهه وتفلطح أنفه وإتسعت عيناه..وفى لحظات صار أبيه أخطبوطا ضخما بأذرع طويلة، إمتدت نحوه حين حاول الهرب فكبلته وقيدته. راح يصرخ بجنون حين رأى كيف امتزج أجداده في كيان واحد تحول لثعبان أسود ضخم، زحف نحوه وهو يخرج لسانه المشقوق ويتكلم كالفحيح:

-ستموت يا أحمق كما مات أجدادك. ستموت قريبا.. لقد خذلت السيد.. إن أزوث لا يرحم.

راح يصرخ والاذرع اللزجة تعتصره الأن وأنفاسه تضيق..ورأى الثعبان يقفز نحو عنقه. تعالت التراتيل الغامضة. ومن الحفرة العميقة خرج الاف المسوخ تتوسطهم نافورة من الدماء. ثم اندفع كل هؤلاء نحوه. بلغ الرعب في نفسه مبلغه فصرخ بكل ما أوتي من قوة..

ثم استيقظ .. وأدرك وهو يلهث وقلبه ينتفض أنه كان يحلم ..

وفي نفس اللحظة كان هناك من يناديه في الصاله. وحين التفت نحو باب حجرته المغلق عليه رأى الضوء الأحمر المتسرب من أسفل الباب. خمن ما سيراه فى الصالة لو غادر حجرته. فزع آخر وأفعال شيطانية بلاشك. قرر أن يتجاهل النداء الذى يناديه بإسمه باصرار. لكن النداء استمر

-عماد ..أين أنت ..النجدة ياعماد ..أدركني يا بني.

أصغى السمع فإكتشف شيئا هاما. النداء كان بصوت أمه الأصلى. صوتها الذى لم يسمعه منذ تحولها وتبدلها. هل أفاقت أمه مما بها؟. غلبه حنينه فخرج..

كانت تجلس قبالة حجرته تماما على مقعد خشبى وهي ترتدى قميص نوم قصير مفتوح لم يرها به من قبل أبدا، وكانت تفعل شيئا شنيعا..كان تحمل سكينا، وراحت تمرر شفرته الحادة على جلد فخذها فتدميه، دون أن يبدو عليها ألم ما أو تعير الدم المنهمر من الجروح التي تحدثها إهتماما.

صرخ حين رأها وهو يندفع نحوها قائلا بجزع:

-كفى عن هذا الجنون..كفى بالله عليك. هذا كثير!

لكن حاجزا غير مرئي إصطدم به قبل أن يصل اليها فسقط أرضا، ورغم ألامه نهض ثانية وإتجه اليها ومازال يصرخ محاولا منعها من إيذاء نفسها هاتفا:

-كفى يأمى أرجوك ..أفيقى يا أمى وإنتبهى لما تفعلينه بنفسك ..أنت تقتلين نفسك هكذا.

ومرة أخرى إصطدم بالحاجز غير المرئى فسقط. إنتقلت السكين الى منطقة أخرى من لحم أمه لتسلخ الجلد وتفصله عن اللحم وعاد الدم ليتفجر منها ثانية وهى تقول :

-هل أخبرك بسر ما. إن أمك تشعر بكل ما أفعله الأن بجسدها. بل وتشعر بكل شيء منذ البدايه.. إنها تصرخ وتتوجع كما لم تفعل من قبل. كم تتمنى لو ينتهى الأمر بسرعة وتموت. إنها مسكينة لتعانى كل هذا الألم. مسكينه وضعيفة لأنها ستتعذب طويلا ولن تموت الأن. لن أجعلها تفعل .

راح عماد يصرخ بحنق وقد يأس من بلوغها بسبب هذا الحاجز الوهمى فألقى بجسده على الأرض وهو يقول:

-من أنت وما الذى تريده منها ومنى ؟..أخبرنى بما تريده وسأفعله مهما كان ..لكن إتركها، وكفى ما سببته لها من أذى ..أتركها أرجوك.

جاوبته ضحكة ساخرة خرجت من فمها وتوقفت السكين فى الهواء للحظة ..ثم عادت لتتكلم ببطء عجيب:

-البشرى يرجونا أن نتوقف ويعدنا بالكثير لو فعلنا ..البشرى يسألنا ماذا نريد وكأنه لايعرف ..يبدو أن البشرى قد نسى ،وربما كان يعبث بنا..

-صدقوني أنا لا أفهم لماذا يحدث هذا. من أنتم وماذا تريدون؟.

أتى الجواب عنيفا ..فقد غرست السكين حتى المقبض فى لحم فخذها الأيسر ..وسمع صوت مخيفا لإصطدام السكين بالعظم ..وبدلا من تأتى صرخة توقظ الموتى من فمها تعالت ضحكتها كأنما تستمع بما تفعله ..وعاد ليصرخ بجزع:

-كفى ..توقفوا عليكم اللعنه ..توقفوا أيها الشياطين..

أخرجت أمه السكين من فخذها وتجاهلت الدماء التى لوثت ساقها بأكمله ورفعته نحو شفتيها ولعقت الدماء منه وهى تقول بصوت كالفحيح:

-لذيذة هى الدماء البشرية بحق الجحيم .هل تعلم أن أبشع الالم هو ماتعانيه أمك الأن. إنها تستغيث وتصرخ الأن حتى الموت . أتريد أن تسمع ؟

غطى عماد أذنيه بكفيه وتكوم حول نفسه..وفى اللحظة التالية تعالت صرخات أمه. صرخات تشي بعذاب لايحتمل. خنقه عجزه فوجد نفسه ينتحب ويقول:

-سامحينى يا أمى. سامحيني

مدت أمه يدها نحوه مستغيثة به وهى ترجوه:

-الرحمة يا عماد ..أنقذنى من هذا ..أقلتنى وأرحمنى من هذا الألم

عاد عماد ليحاول الإقتراب منها..لكن الحاجز الخفى ظل موجودا فاصطدم به .. وسمعها تقول وقد عاد الصوت الغليظ:

-لاتتعجل موتك يا فتى..دورك قادم لامحالة لو لم تتذكر..أمامك سنوات لتتذكر، وإلا فالموت لك.

-إرحموها أرجوكم. سأفعل أي شيء لكن ارحموها.

جاءه الرد المفزع الذى لم يتوقعه أبدا:

-إقتل أمك!.. إقتلها وستنتهى متاعبك الحالية.

لم يشعر بنفسه الا وهو يعدو نحو باب الشقة هاربا..خرج قبل أن يصاب بالجنون وقد أدرك أنها تعاني لأنه موجود. لان شيطانها ربما يعذوبنها من أجله. لا يفهم ما جريرته وما دافعهم لهذا لكنه يشعر أنه المعني بالأمر.

هبط الى الشارع المظلم، مازال الفجر لم يبزغ بعد. بلغ الشارع الرئيسى فتحرك فيه وقد قرر ألا يذهب الى أى مكان. سيظل هائما على وجهه هكذا حتى الصباح. ربما يخفف هذا ألمه ووحشته. وبعد حين إهتز محموله فى جيبه وراح يرن..تردد قبل أن

يخرجه من جيبه ليرى من المتصل. كانت منى وعلى الشاشة راحت صورتها تومض. كانت هذه أول مرة تتصل به منذ حادثة بيته. حدثته بهدوء لم يعتده فأدرك أنه الفراق. وبالفعل أدرك كم مصيب حين قالت له في النهاية:

-أعتقد أنه لا مجال للاستمرار في حرب لا طائل منها. لقد انتهى الأمر.

حاول أن يبدو صوته طبيعيا وهو يجيب:

-أوافقك تماما هذه المرة . على كل منا أن يذهب في طريقه .

قالها وقطع الإتصال فى اللحظة التالية ثم أغلق هاتفه تماما. لم ينتظر حتى يعلم رد فعلها. لم ينتظر ليرى إن كانت ستبكى أم تتنهد إرتياحا مما قاله. لقد تهدمت معابده كلها. ليحترق العالم إذا. ولدهشته وجد نفسه يدندن بأغنية قديمة سعيده.

هل فقد عقله؟.. ربما هذا ما يحدث ..

*****

12

فرغ المصلون من صلاة العصر ،وإستعدوا لمغادرة المسجد وفى نفس اللحظة توقفت سيارة جاجور سوداء رياضيه بالقرب من المسجد، وبداخلها كان الدكتور محمد شاهين ينتظر الشيخ عبدالباسط والحاج رضا. بدت السيارة ملفتة للغاية بفخامتها، وراحت عشرات العيون تتلصص عليها بشئ من الإنبهار وهي تتسائل عن صاحبها. وبعد دقائق خرج الشيخ عبدالباسط من المسجد وضاقت عيناه التى أصابتهما الشيخوخة بالضعف ودارتا فى المكان قبل أن تتوقف عند الشيارة السوداء الفخمة فابتسم ويقول للحاج رضا:

-لقد وصل الرجل ..

اتجها نحو السيارة وجلس الشيخ عبدالباسط بجوار الدكتور محمد شاهين بينما جلس الحاج رضا في المقعد الخلفي. حجبتهم السيارة المكيفة ذات المقاعد الوثيرة المريحة الدافئة عن صقيع الشتاء الذى يرتع بالخارج، وقال الشيخ عبدالباسط:

-من أين تأتى بكل هذه النقود التى تشترى بها كل هذه الأشياء الثمينه يا رجل..هل عثرت يوما على كنز ما..

تحركت السيارة على الفور نحو الطريق العام والدكتور محمد يجيبه ببساطه:

-حدث هذا أكثر من مرة وأنت تعلم هذا. مثلما تعلم أن النقود لم تمثل لى مشكلة فى أى وقت. لقد كان داؤد باشا والدى رجلا ماهرا فى جلب النقود، وصرت أنا ماهرا فى إنفاقها والتمتع بها.

همس الحاج رضا بإنبهار وهو يبحث عن مصدر الرائحة الزكية التى تفعم المكان:

-هل كان والدك –رحمة الله عليه –باشا يادكتور.

-باشا تركي أصيل، وصدقنى ياحاج رضا لم تكن لتحبه لو رأيته..كنت لتهرب منه لو اقترب منك.

بلغا حينها منزل عماد فتوقفت السيارة جواره. هبطوا من السيارة وتحرك الدكتور محمد بخفة لاتتناسب مع عمره وأخرج من حقيبة السيارة الخلفية حقيبة جلدية ضخمة وقال له الشيخ وهو يشعر بالالام تنتشر فى مفاصل ركبتيه:

-حين أراك تتحرك بمثل الخفة وتقود سيارتك بنفسك وتحمل حقيبة ثقيلة لا أستطيع تحركيها، أشعر بالبؤس على حالى..أنت أكبر منى يارجل ومع ذلك أراك أكثر شبابا منى بكثير. أتمنى لو تخبرني كيف تفعل هذا!!

مال نحوه الدكتور محمد وهمس فى أذنه:

-أخبرتك أنها قلوب الرضع..جربها وستعود شابا

-أحيانا تجعلنى أحقد عليك يا دكتور بسخريتك هذه، ولولا أننى احبك لكرهتك حتى الموت.

-لا أصدق انك قد تكره أحد ما. أعتقد انك لو صادفت مصاص دماء يريد أن يرتوى من دمائك لتركته حتى يشبع.

-لكننى بعدها سوف أبحث عن وسيلة ما لقتله.

بلغوا شقة عماد، فقرع الحاج رضا الجرس. فتح عماد الباب وكان ممدوح صديقه بجواره. رحب بهم ودعاهم للدخول، وقال الدكتور محمد، وهو يفتح حقيبته:

-أين والدتك؟.

أشار عماد لحجرتها المغلقة وقال:

-إنها بالداخل..أعتقد أنها نائمة الأن.. بالأمس آذت نفسها بشدة ولم أستطع منعها.

سأله الشيخ عبدالباسط بإهتمام:

-لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا حدث ثانية يابنى؟

قص عليهما عماد ما حدث..تبادلوا النظرات المشفقة، ومال ممدوح على أذن عماد وهمس بصوت أقرب للبكاء:

-أنت لم تخبرنى بهذا. لقد قلت لى أنها تحسنت، وأن هؤلاء قادمون لتخليصها مما بها. لكنك أخفيت عنى أنها قد آذت نفسها. لقد خدعتنى .إننى خائف ياعماد، أرجوك دعنى أرحل الأن..

رمقه عماد بضيق فكف عن تذمره. لكنه ظل خائفا حتى تمنى لو يعدو من المكان كله.

وتعالت فجأة صرخات مخيفة من حجرة أم عماد..ارتجف الجميع، وأخرج الدكتور محمد قنينة تحوى سائلا ما يميل لونه للزرقة، وراح ينثر بعض منه فى المكان.. أمسك بعدها طبشورا أحمرا، ورسم دائرة كبيرة فى منتصف الصالة وراح يزنها برسوم غامضة..

صرخت أم عماد ثانية وتسرب الضوء الأحمر من باب حجرتها ثانية. فنظروا إليه بقلق. وبعد لحظات فتحت أم عماد الباب وتوقفت أمامه وقد تلاشى اللون الأحمر. راقبتهم بعيون لاحياة فيها. قبل أن تتوقف عيناها على الدائرة التى إنهمك الدكتور محمد فى إنهائها. وقالت بوحشية:

-أرى أنك قد جلبت محترفا هذه المرة يا عماد. لكنه مازال غير كاف لمواجهتنا. سوف يفشل كغيره.

قالتها وعادت لتطلق ضحكاتها المفزعة.لم يعيرها الدكتور محمد إهتماما وصاح فى الشيخ عبدالباسط :

-إجعلهم خلفك يا شيخ عبدالباسط ولاتتوقف أبدا عن تلاوة القران وآيات الطرد. ومهما حدث لاأريد أن يتدخل أحد منكم فى الأمر إلا لو طلبت ذلك..

وعادت لتحدث الدكتور محمد وقد تجاهلت الباقين. ومن حين لاخر يضطرب وجهها مع ما يتلوه الشيخ عبدالباسط من آيات القرآن الكريم بصوت مرتفع. لكنها وفي كل مرة سرعان ما كانت تتمالك نفسها:

-لن ينجح الامر يا دكتور. وستفشل كما فشلت من قبل. هل تذكر ذلك الصبى الذى مات بين يديك وأنت تخرج احدنا من جسده. هل أخبرتهم أنك قد فشلت وتسببت فى موت الصبي الصغير يومها.

إضطرب قلب الدكتور محمد للحظة وقد تذكر الصبى. وبينما كانت يده تنتهى مما يرسمه إستعاد عقله فى لحظة كل ما كان..

كان الفتى فى السادسة عشرة من عمره. حين حصل على أحد الكتب القديمة من أحد باعة الكتب المستعملة. كان الكتاب يتحدث عن الجان. وطرق تحضيرهم. جرب الصبي بحماقة تعويذة إستدعاء قوية. لكنه لم يجلب أحد الجان حينها. بل جلب أحد الشياطين ..وعلى الفور إستحوذ الشيطان على جسده.

طرق أبواه حينها أبواب الكثير من الدجالين والشيوخ والقساوسة بلا جدوى. وحين لجأ اليه فى النهاية كان الأمر قد إنتهى، وقد بدأ جسد الصبى فى التآكل. حتى أنه فقد بعض أصابعه. علم الدكتور محمد حينها ومنذ اللحظة الأولى أنه لن ينجح فى النجاة بالصبى. لكنه أدرك أن عليه أن يعيد الشيطان لعالمه والا انتقل الى جسد آخر وعاث فيه فسادا وشرا. يومها راح يحاول بكل قوة اخراج الشيطان من جسد الصبي حتى إشتعل جسد الصبى فجأة والشيطان يغادره الى عالمه ثانية. طالما شعر بالاسف على الصبي، لكنه أبدا لم يلوم نفسه كثيرا. لم يكن ممكنا إنقاذه، لكنه نجح في حماية الأخرين من مصير مماثل.

وأفاق من ذكرياته على صوتها وهي تقول:

-هل تذكر كيف إشتعل جسد الصبى فجأة.كم كانت زهرة النار رائعة حينها. كم كانت شهية رائحة الشواء التى تصاعدت من جلد الصبى الذى مات وهو يصرخ ويستغيث من عذاب لا يحتمل. كل هذا حدث، وأنت تقف أمامه عاجزا عن التدخل، وغير قادر على حماية الصبى أو رحمته مما يعانيه.. كم كنت مثيرا للشفقة حينها.

واقشعرت الأبدان مما تقوله. الغريب أن رائحة شواء عنيفة زكمت الأنوف حينها. بدت رائحة الشواء حقيقية تماما فى تلك اللحظة. هل استدعتها الشياطين التى تستحوذ على جسد أم عماد لترهبهم وتثير فزعهم. شم الدكتور محمد الرائحة هو الأخر، وأدرك ما تصبو اليه تلك الشياطين. كانت ترغب فى بث الهلع فى نفوسهم لتشتيت أذهانهم، أو ربما كانت تعبث بهم..فصاح بحزم:

-إنهم يكذبون فلا تستمعوا لهم . لاشئ مما يقولوه حقيقى. حتى الرائحة التى تشمونها غير موجودة. إنها بعقولكم فقط. إياكم أن تدعوهم يثيرون فزعكم، والا فشلنا جميعا ..

تحرك جسد أم عماد فى تلك اللحظة نحوه، وتوقفت عند حواف الدائرة القابع بداخلها وقالت له بصوت مخيف غليظ:

-لاتدرك أبدا مصيرك المظلم الذى نعده لك. إن ماجرى لذلك الصبى لايقارن بما سيحدث لك. الكثيرون فى عالمنا ينتظرون لحظات المرح التى ستكون معك في نهاية عمرك حين تصير عاجزا عن حماية نفسك. لا تعتقد أن تلك الظلاسم القوية التي تحيط نفسك بها ستحميك للأبد. واهم أنت لو إعتقدت هذا. لو كنت مكانك لقتلت نفسى قبل أن نصل إليك.

-لا أعتقد أننى سأفعل ذلك يوما ما. مثلما أؤمن أننى سوف ارسلكم جميعا الى الجحيم بعد قليل. لتخبروا كل المعاتيه الذين يريدون إيذائى أننى لا أعبا بهم. أخبروهم أن يذهبوا الى الجحيم لو لم يكونوا به بالفعل.

وإقترب الشيخ عبدالباسط منه ..رفع يديه فى الهواء وراح يتلو:

-" وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً. وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً"

وتقلص وجه أم عماد بشدة. وراح صوتها يتبدل بسرعة وهى تصرخ فيه:

-إصمت أيها الشيخ المأفون ..كف عن هذا ..سوف أمزقك من اجل هذا.. سوف أحطمك.

لكنه لم يصمت وهو يتقدم نحوها ويقرأ أياته، وهى تتراجع ووجها يحمل أقصى آيات الألم..

-"وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ. إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ"

والتصقت بالحائط . وهي تصرخ وتطالبه بالصمت. كان وجه الشيخ يحمل حزما لا حدود له. وصرخ فيها وهو يرفع كفه في وجهها:

- بسم الله الذي ليس منه شيء ممتنع ، وبعزة الله التي لا ترام ولاتضام.وبسلطان الله المنيع نحتجب ،وبأسمائه الحسنى كلها نعوذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الإنس والجن. ومن شر كل معلن أو مسر. ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن

بالنهار ،ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر إبليس وجنوده ،ومن شر كل دابة أنت اخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . أعوذ بما استعاذ به إبراهيم وموسي وعيسي ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ،ومن شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغي.. أسألكم باسم الله أن تغادروا البدن.. اخرجوا باسم وقوه الله أو ترجمون وتحرقون..

-لن نخرج.. لن نخرج أبدا

خرج الصوت من فمها غاضبا قويا. فعاد ليتلو القرآن ثانية..هنا التفت الى صورة قديمة معلقة في الجدار ..وفي اللحظة التالية إندفعت الصورة نحو الشيخ . رآها عماد فأراد ان يصرخ محذرا الشيخ، لكن صرخته أتت متأخرة ،فأصابت الصورة رأس الشيخ العجوز فسال خيط من الدماء من جبهته وصمت للحظة وهو يصرخ من الألم . وحين رفع رأسه كانت تقبض على عنقه بيدها وهي ترمقع بغضبه:

-أمرناك أن تصمت أيها الغبي. ستموت من أجل هذا.

أراد أن يعود ليقرأ الايات المهلكات من القران الكريم لكن لسانه إنعقد في حلقه. بدا وكان الشلل قد أصابه، وقربت وجهها منه وقالت:

-إن حنجرتك الان بيدى ولن تنطق ثانية..لقد إنتهى الأمر ..

هنا أتى دور الدكتور محمد شاهين ليتدخل. كان كل ما كان يرغب فيه هو تشتيت إنتباها ليكمل عمله. حملت تلك الدائرة التى رسمها الكثير من الخواص السحريه، أهمها قدرتها على حبس كائنات الظلام بداخلها والسيطرة علهم بصورة قوية. وما أن إنتهى منها حتى خرج منها وبدا يتلو باللاتينة تعويذة قوية:

- **URITUR TENEBRIS LUX ET SOLVITUR PER MALUM IUS VERBUM IN VIRTUTE, ET ANTIQUA MYSTERIA INCANTATIONIBUS OSTENDENTES IUBEO OBSEQUENDO; TEMPUS TACENDI, ET**

SALUS EST, ET HOC EST ULTIMUM TEMPUS VETUS ET FORTIS NON INNOXIA VERBA, UT IRRITUM FACEREM, ET QUOD MALA EST, QUI FUGIT, ET VENI: UT SERVUM, UT VENIRET SERVUM, UT VENIRET IN BELLUINUM

هنا صرخت أم عماد وراح جسدها ينتفض. تركت عنق الشيخ عبدالباسط، الذى لهث بشدة قبل أن يعاود تلاوة آيات القرأن الكريم وقد إسترد صوته. تذبذب النور فى المصابيح ، وإهتزت الجدران للحظة قبل ان تتحرك أم عماد نحو الدائرة رغما عنها. ظل الدكتور محمد يردد تعويذته القوية بلاتوقف والشيخ عبدالباسط يعاونه بتلاوة القرآن والعزائم.وفى النهاية توقفت فى منتصف الدائرة فصمت الجميع بترقب. كانت هى أول من تكلم. خرجت من حنجرتها عشرات الاصوات المختلطة تتحدث بغضب لاحدود له ومقت:

-حتى هذا لن ينجح .. سوف تفشلون في النهاية.. لا احد يتغلب علينا أبدا.

*****

12

جذب الدكتور محمد شاهين أحد المقاعد الخشبيه بالصاله وجعله ملاصقا لدائرته التى صنعها ثم جلس عليه وقال بهدوء:

-إنه وقت الإعترافات. دعيني أخبركم أنني أنتظر أن أملأ مجلدات من الاعترافاتك.. أريد ان اعلم كل شيء عنكم. ولماذا تؤذونها وتهاجموها. أنتظر أن تتحدثوا، أو أترككم للتعفن فى هذه الدائرة للأبد.

راحت أم عماد تدور بشئ من الجنون فى قلب الدائرة. عيونها إكتسبت قسوة غريبة وخلجاتها تقلصت بشده، كأنما تعانى من شئ خفى لايراه أحد. مضى وقت طويل من الصمت لم يقطعة الا الزمجرات الغاضبة التى تطلقها الكائنات التى تستحوذ على

جسد أم عماد. تململ الدكتور محمد شاهين وهو يشغل غليونه الذى أخرجه من جيبه وجذب أنفاسا سريعة منه راح يطلقها من فمه قبل أن يعاود حديثه:

-إذا فمازلتم على إصراركم بالصمت. لو كنتم تعلموننى جيدا لأدركتم ان هذا لايقلقني. أمامنا الوقت كله والملل ليس من صفاتى التى أفتخر بها. يمكننى أن أنتظركم الدهر كله..لكن ماذا عنكم. ستجوعون وستزيد الدائرة من معانتكم. ستشعرون ببرد رهيب ولو تفلح قواكم في ردعه. إنها دائرة لوسيفر. سيدكم الأثير، إنه من أنشأها للسيطرة عليكم وتأديبكم. أعلم كم تعانون الآن كما اعلم كيف يمكنني أن أرحمكم منها. والآن هل حان وقت الحديث.

-ماذا تريد ؟..

كانت هذه هى الكلمات الأولى..وإبتسم الدكتور محمد بإنتصار وقال:

-أعتقد أن السؤال الصحيح من أنتم وماذا تريدون؟..

-إننا هنا كثيرون ..كثيرون للغاية ..أكثر من أن تحصى عددنا ..

كانت الإجابة بأصوات كثيرة مختلطة..كأنما رغب كل شيطان بداخل الجسد الضعيف فى إثبات وجوده بالتحدث..إرتجف عماد وهو يرمق امه بإشفاق، والتصق به ممدوح برعب وهو يغالب رعبه، وحرك الشيخ عبدالباسط رأسه بأسف. لن تنجو المسكينة أبدا من عملية طرد كهذه. سيكون هناك أذى كبير لروحها وجسدها

وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوءه وغليونه لايفارق شفتيه:

-هذا لا يدهشنى. لكن ماذا عن سؤالى الآخر ..ماذا تريدون منها؟..

إرتفعت سبابتها اليمنى وهى تشير لعماد ومرة آخرى اجابت الاصوات جميعا:

-إسأله. إنه يعلم.

التفتت الأعين كلها الى عماد الذى أطلت منه نظرة ارتباك وحيرة حقيقة، وغمغم وهو يتلفت بينهم :

-إنني لا أعلم أي شئ ..

عادت نظرات الدكتور محمد الي أم عماد وقال:

- الفتى يخبرنا أنه لايعلم أى شئ، وربما يعلم ويريد أن يخفى علينا.. لماذا لاتخبرونا بما يعلمه ويخفيه أو بما يجهله ليعلم ماذا تريدون؟

راحت تدور بلا توقف داخل حواف الدائرة بجنون، وهي تصدر همهمات غامضة متلاحقة سريعة. وبعد لحظات تحدثت دون ان تتوقف عن الدوران :

-إذا فالإنسى قد نسى . كان عليه أن يبحث .كان عليه أن يعلم . كان عليه ان يجد السيد والا فالهلاك مصيره.

لم تكن الإجابة مفيدة أو مترابطة. لذا سألها الشيخ عبدالباسط:

-وما الذى عليه أن يبحث عنه وأن يعلمه ..ومن هو السيد الذى عليه أن يجده؟..

توقفت عن الدوران وتحركت نحوه. تشممت الهواء من حوله قبل أن ترسم ابتسامة مخيفة على شفتيها..وتقول:

-الشر بداخلك يرتع لكنك لا تشعر به. ساقاك تؤلمانك ولا تقدران على حملك. أنت تفكر أنها الشيخوخة. لكنها أمر آخر. آمر مخيف يروقنا لأنك ستعانى كثيرا. سوف تتعفن حيا أيها العجوز . سوف تتألم حتى تتمنى الموت.

توتر الشيخ عبدالباسط . لقد تعود فى جلسات طرد الجان وإستجوابهم على أكاذيب تلقى على مسامعه لإثارة فزعة. ذات مرة حدثه جنى كان يستحوذ على جسد فتاة صغيرة، عن اصابة إبنه فى نفس اللحظة فى حادث سيارة. وراح الجنى يصف له كيف مرت السيارة من فوقه، وكيف راحت تدهس جسده وما الذى جرى لعظامه. لم يكن هناك من وسيلة كى يتحقق من كلام الجنى. أنهى يومها تلك الجلسة في عجالة، وهو لا يطيق الانتظار للاطمئنان على ابنه. لكن إبنه كان سليما لم يصبه سوء.كان الجنى يكذب ليشتته ويدفعه لإنهاء الجلسة. تعلم منذ ذلك الوقت أن الجان كثيرا ما

يكذبون، وخاصة الأشرار منهم فلم يعد يكترث بما يلقونه على مسامعه من أخبار سيئة..

لكنه لا يدرى لماذا شعر أن الأمر اليوم مختلف. وغالب هواجسه وهتف:

-لاشأن لكم بى وأجيبوا سؤالى؟

-أنت لاتصدق ما نخبرك به. تظننا نخدع. لكننا لا نفعل الان لأننا سعداء. لقد حاربتنا طويلا وهاهى النهاية التى تروق لنا قد أتت . سوف نكون بجوارك دائما كى نراك تتألم فنبتهج. سوف نستمتع بعذابك حتى النهاية.

تابع الدكتور محمد مايدور بينهما بإهتمام ..وراح يتفقد جسد الشيخ عبدالباسط بعينه ..لاحظ الارتعاشة البسيطة التى تحدث فى كفيه .لاحظ هزاله ونحوله الذى يفوق ما إعتاده. لاحظ الشحوب الذى يكسو وجهه. هل كان كل هذا موجودا من قبل ولم يلحظه، أم أنه يتوهم ذلك الأن بعد ماذكره هؤلاء الشياطين. لو صدقوا فهم يعنون شيئا واحدا عليه أن يتحقق منه فور إنتهاء تلك الجلسة. شيئا مريعا بحق. ربما صدق هؤلاء الشياطين هذه المرة وقد شعروا بما لا نعلمه..

وقال مقاطعا حوارهم هذا كى لايطول وكى لايشتت إنتباهم:

-أعتقد أنك لم تمنحنا الإجابة التى نرجوها، هل يعنى هذا أن نبحث عن عقاب ما لتلك الإجابات التى نعدها خاطئة.

التفت اليه أم عماد وخرج من فمها الصوت الغليظ متحديا:

-لن تستطيع أن تؤذينا أيها الأحمق.

أخرج ببساطة قنينة بها سائل وردى الشكل من جيبه. راحت عينا أم عماد تدور فى محجريها بجنون. وضع الدكتور محمد القنينة فى فمه وتلا تعويذة، قبل ان يقذف جسد ام عماد ببعض من سائلها. فى اللحظة التالية تعالى صراخ هائل من فمها وراحت تقفز بجنون، كأنما يحرقها السائل، وقد تصاعد من جسدها بخار وردى ذو رائحة نفاذة. ومن بين آلامها هتفت :

-كفى. كفى. سوف نشويك حيا أيها العجوز الحقير. سوف نسلخك حيا قبل أن نشويك..

لم يبالى بتهديدها. والقى ثانية ببعض السائل وكما حدث فى المرة الأولى تعالت الصرخات والأبخرة من جسدها لكن الشياطين التى تسكنها لم تهدد هذه المرة وقد اكتفت بما حدث لها ورمقته بكراهية لاحد لها. ومال عماد نحو الشيخ عبدالباسط الذى عاد ليقف بجواره وقال بقلق وهو يخشى أن يؤذى هذا السائل امه:

-ماهذا السائل الذى يلقيه الدكتور محمد ولماذا يصدر هذا البخار الوردى ؟..

-إنه ماء زمزم المقدس مخلوط به بعض البخور والمواد الأخرى. إنه يؤذهم بشدة ويحرق أجسادهم؟

-وماذا عن امى؟. ألن يوذيها؟

-مطلقا. إنه مجرد ماءبالنسبة لها. لاتقلق. إننا نعلم مانفعله.

صمت بشك وتابع ما يقوم به الدكتور محمد الذي كان يقول:

-اعتقد أننى بإنتظار الإجابة الصحيحة الأن. من يكون أول من يفعل منكم؟

جاوبوه بمقت وغضب :

-لقد أخبرناك كل شئ ..الإجابة لانحملها نحن ..عليه أن يفعل هو .. عليه أن يتذكر أو يبحث عنها. عليه أن يجد السيد الذي ينتظره ويحرره..

-وماذا لو لم يفعل. ماذا ستفعلون حينها.

-سيدفع الثمن..كل عائلته سيدفعون الثمن..السيد لايرحم ..السيد لاينسى ..السيد ينتظر .

-ومن هو هذا السيد الذى يفعل كل هذا؟.. من يكون؟!.

من جديد صمتت، وبدا عليها عدم اللامبالاة. .عاد الدكتور محمد يرفع القنينة التى تحوى الماء الوردى امام بصرها فقالت الشياطين التي تسكنها:

-إفعلها ثانية وسوف نقتلها. إنه امر يسير . جرب وسوف ترى

-إنها ميتة بالفعل ..ميتة منذ اللحظة الاولى التى تكالبتم فيها على جسدها. ربما من الأفضل لها أن تموت الان بدلا من أن تعانى طوال الوقت كل هذا العذاب الذى لا يطاق وأنتم داخلها..

إرتجف وجهها قبل أن تلتفت إلى عماد لتقول بصوتها الغليظ:

-هل جلبتهم كى يقتلوا أمك..هل تعلم أنهم سيفعلون هذا؟..

إرتجف عماد حينها وهو يخشى أن ينتهى الأمر بشئ كهذا لكن الشيخ عبدالباسط همس فى أذنه:

-لاتهتم بما تسمعه . الدكتور محمد لن يؤذى امك أبدا.

لكنها عادت تتكلم مرة اخرى . هذه المرة تحدثت بصوتها الحقيقى.كانت تتأوه وتتالم وقالت بأعياء مستجدية:

-لا أريد أن اموت يا عماد. لاتدعهم يقتلوننى . أنجدنى يا بنى. إريد أن أحيا. أريد أن أعيش. أبعدهم عني وحررني.

قبض الشيخ عبدالباسط على يده المرتجفة بقوة محاولا الشد من أزره وطمأنته. كان جسد عماد حينها يرتعد وهو يبكى شاعرا بالعجز عن اتخاذ قرار ما وسمع الشيخ عبدالباسط يعاود الحديث اليه قائلا:

-لاتصدق ما تسمعه. ليست أمك التي يتحدث. إنهم الملاعين الذين يسيطرون عليها. إنهم يرغبون فى ان تتخذ قرارا أحمقا وقد شعروا بالمحاصرة. لاتنجدهم يابنى أرجوك..

-لكنها امى ..

قالها باكيا ،ورد عليه الشيخ عبدالباسط بحزم:

-ونحن نحاول مساعدتها ..ثق بنا ..

وقال الدكتور محمد فى تلك اللحظة وهو يعيد القنينة الى جيبة :

-لقد اقتنعت الان بانه لاجدوى من ايذائكم بهذا الماء. لا فائدة بالفعل من هذا

قالها وهو يتحرك وعينا ام عماد تتابعه بحذر ..واستطرد بعدها مبتسما :

-سوف نبدأ فى طقوس احراقكم وأنتم بجسدها ..أعتقد ان هذا هو القرار الحكيم للتخلص من شروركم هذه ..

صرخت حينها فى وجه:

-لن تفعل ..ستقتلها لو فعلت ..

-أخبرتكم أنها ميتة بالفعل، ولايضير الشاة سلخها بعد ذبحها ..لقد انتهت، وحان الوقت كى تنتهوا أنتم ايضا..

وبينما راحت تتحرك فى الدائرة بجنون وهى تصرخ "لن تفعل " التفت الى الشيخ عبدالباسط وقال له :

-هل انت مستعد يا شيخ عبدالباسط ؟..

تقدم الشيخ عبدالباسط نحوه وقال ببساطة:

-دائما مستعد ..دعنا نبدأ.

وضع كفه فى كف الدكتور محمد ..لكنهم قالوا فى تلك اللحظة:

-لن تنجحوا أيها الحمقى ..ربما لا نستطيع أن نمنعكم لكن هؤلاء يستطيعون

وقبل أن يسأل الدكتور محمد عن من هم ..جاءته الإجابة .. أظلمت الصالة فجاة وعاد اللون الاحمر ليكسو المكان..ومن كل مكان بجدران الصالة راحت الظلال المخيفة تتراقص وتتحرك وتتداخل..ظلال حقيقة مخيفة تملك أعينا مشتعلة..دب الرعب فى النفوس وراح الدكتور محمد يتلو في توتر تعاويذه كي يصرف هذا الجيش

الشيطاني. وأخذ الشيخ عبدالباسط يردد عزائمه وهو يتراجع في ذعر. تحرك الحاج رضا حول نفسه برعب وقد عقد لسانه فلم يتكلم بينما راح ممدوح يصرخ بلا توقف وهو يبعد بيده أعداء وهمية. لكن عماد لم يتحرك. لم يشعر بالخوف ككل مرة. لقد عاش هذا من قبل. والآن قد سئم مايحدث وتمنى لو ينتهى الامر بموته لينتهى من هذا الجحيم..

تعالت الصرخات وفى اللحظة التالية إندفع جسد ممدوح زاحفا على الارض نحو الدائرة المصنوعة من الطباشير . ومتاخرا أدرك الدكتور محمد ما حدث . لقد قطعت الدائرة السحرية التى صنعها . لقد تحررت أم عماد ومعها شيطانها ..

خرجت من الدائرة وهى ترمقهم بظفر. تحركت نحوهم وهى ترمق الدائرة التى حبستها منذ قليل بإزدراء قبل أن ترفع كفها عاليا وراحت تتلو تعويذة ما. إزدادت الظلال جنونا فى حركتها وبدات فى التجسد امام الجدران . فقد الحاج رضا وعيه وقد سبقه ممدوح. إجتاحت آلام حادة صدر الشيخ عبدالباسط وقد أعلن قلبه أن مايجرى الان يفوق إحتماله كثيرا..تلفت الدكتور محمد حوله بقلق وقد ادرك ان الامور خرجت من بين يديه وراح يفكر بيأس فى حل ما لايقاف كل هذا. بينما راح عماد يتابع مايجرى بذهول كانما لايعينيه كل مايدور امامه..

اندفعت الظلال المرعبة نحوهم. فبدا وكأنها النهاية. وصفقت ام عماد بكفها، فإشتعل ضوء مبهر فى المكان كله للحظات ثم أختفى. وحين عاد لعيني عماد قدرته على الروية مرة اخرى وجد الشقة خالية من حوله. ولا وجود للدكتور محمد شاهين او للشيخ عبدالباسط أو ممدوح او الحاج رضا. لم يسأل نفسه حينها أين ذهبوا. لم يكن ممكنا فى الواقع ان يفعل . فامامه كانت امه تستند على باب حجرتها ترمقه بهدوء. وكانت يدها اليمنى التى تستند بها على باب الحجرة مشتعلة. وشم أنفه رائحة الشياط القوية لجلد يحترق ..

****

14

ظلت عينا عماد معلقتان باليد المشتعلة لأمه ببلادة غير مفهومة لبعض الوقت. كان يرى زهرة النار المتوهجة والضباب الرمادى المتصاعد منها ورائحة الشواء الخانقة التي تنبعث منها ونظرة السخرية واللامبالاة التى ترتسم على شفتى أمه وكأنما ما يحترق ليس كفها. لكنه عاد لعقله بعد لحظات وقد شعر أنه في طريقه للجنون. تقلصت معدته وتصاعد الحمض الحارق الى حلقه وازداد إحساسه بالدوار . قبل أن يبدأ في القئ العنيف. هوى بعدها نحو الأرض في إعياء وبدأ يبكي، وسمعها من خلفه تقول :

-يالك من ضعيف بائس!

لم يجب وعادت معدته للقيء. رأى في هلع السائل الدموي الأحمر ينبثق من فمه بغزارة، فأيقن أنه الموت وواصلت أمه ضحكاتها وهى تقول:

-يبدو أنه الموت هذه المرة. لكننا سنكون بانتظارك بعدها.

لم يعبأ بما تقوله ورفع رأسه فرأى اليد المحترقة التى تآكل لحمها وبرزت أوتارها وعظامها . مازال الدخان يتصاعد منها ومازالت رائحة الجلد المحترقة قوية .. شعر بالشفقة على أمه فتمالك نفسه وصرخ:

-رباه. ما الذى فعلتموه بأمى أيها الملاعين. لقد قتلتموها.

-أنت من أردت هذا .. أنت من يتسبب فى إيذائها لانحن

-أنا لم أفعل شيئ. أنتم من فعل كل شيء

تحركت أمها نحوه. كان وجها جامدا وبدت عيناها ميتتان كما لم يرهما من قبل. هل تكون امه قد ماتت بالفعل فى تلك اللحظة وأن من يحرك جسدها هم الشياطين.

صار وجهها ملاصقا لوجه وخرج من فمها الصوت المختلط :

-حرر السيد أيها البشري تنتهى آلامك.حرره لتنتهى لعنتك.

-وكيف أحرره وأنا لا اعرفه. أخبروني عنه

هنا عاد الجنون فجأة وظهر الضوء الاحمر الرهيب. إمتلات الجدران بالظلال ..لم تتحدث أمه لكن الهمهمات والهمسات المبهمة اتت من كل مكان .. بدت الشقة وقد امتلأت بغتة بالشياطين ..وسمع أصواتا غاضبة تصرخ في أذنه دون أن يرى قائلها :

-حرر السيد تنتهى اللعنات. حرره تتحرر.

راحت أشباح مخيفة تظهر وتختفى بسرعة هائلة أمام عينيه. وراحت عشرات العيون المشتعلة تظهر في فضاء الشقة وهي ترمقه غاضبة..

حاول أن يهرب لكنه دار بعينيه في كل مكان دون أن يرى باب الشقة . لقد إختفى الباب فعلم أنه صار حبيسا مع تلك الشياطين. وبرعب رأى ما يتجسد على الجدار. رأى الراس الضخم الذى تجسد فجأة وعلى جانبيه قرنان صغيران وفى منتصف جبهته عين ضخمة مشتعلة في غضب. وبعد حين برز ثعبان من نار وصنع دائرة من اللهب حول الرأس.

ومن كل مكان حوله تعالت الهمسات المرتجفة التى تردد فى صوت رتيب :

-أزوث.. أزوث.. أزوث!!!.

راح يتلفت فى جنون وقلبه يخفق في عنف، قبل أن يبدأ الرأس الشيطاني المشتعل حديثه. إنحسرت الشفتان عن ظلام سرمدى لانهاية له وخرج صوت قادم من مغارات الجحيم الخفية. كان صوتا رهيبا مريعا بصورة لاحد لها، وسمعه يقول:

-حان الوقت لتحررنى أيها الأنسى . إن أزوث ينتظر.

واكتسحه الدوار فأغمض عينية وهو يحيطهما بكفيه كأنما لايريد أن يرى شيئا مما يدور حوله . تكوم على الارض فى وضع جنينى، وهو يبكى فزعا . وبعد لحظات إنتبه الى الصمت الذى أظل المكان، فتح عينه بحذر فعلم أن الشياطين قد غادرت وبقيت أمه. رمقها وهي مترمقه بجمود دون أن يلوح على محياها أي أثر للحياة. لكن شفتيها تحركتا بعد برهة وخرج من فمها صوت جاف يقول :

-أنت التالي أيها البشري. لا تنس هذا!!

وللمرة الأولى رأى السكين الضخم المعلق بقوى خفية في الهواء خلف عنق أمه. أدرك عماد حينها ما سوف يحدث فحاول ان يثب ليبعد أمه عن السكين، لكنه كان متأخرا. و رأي بألم كيف اندفع السكين في سرعة رهيبة نحو عنقها وكيف غاص فى عنق أمه من الخلف حتى مقبضه. راح يصرخ في يأس وهو يحتضن جسد أمه الذى راح ينتفض بعنف والدم ينهمر من عنقها المذبوح بغزارة ..

-أمى ..ليس أمى عليكم اللعنة . أمى. أمي!

ولدهشته فتحت عيناها ومن فم سال منه خيط من الدماء قالت بوهن :

-إنهم أجدادك!

***

الفصل الخامس

أزوث

1

اندفعت ابتسام بلا تردد نحو حجرة أمها. لم تبال بالضوء الأحمر المخيف المريب الذي كان ينبعث منها. لم تهتم برهبتها وفزعها من الذكريات المرتبطة بتلك الحجرة، ولم تذكر غير خشيتها على ابنها. كانت لتواجه شياطين الجحيم نفسه لو واجه ابنها مكروه ما. وحين دلفت الحجرة رأت الهول، فصرخت.

كان الطفل في منتصف الحجرة المتوهجة يقف بجمود وعيناه معلقة بالجدار الذي يواجهه في جمود. .وببطء رفعت عينها عن ابنها ونظرت للجدار. وشهقت بفزع حين رأت ما به وعادت لتصرخ.

كان هناك ثعبان من لهب يلتف حول نفسه على الجدار في صورة دائرة تعلوها رأسه، وفي منتصفه انطبعت جمجمة نارية تضطرم عينها بلهب شيطاني وعلى جانبها انتصب قرنان متوهجان..

تسمرت بمكانها أمام الرمز المخيف وقد أنساها فزعها طفلها المتصلب بجوارها هو الآخر، ثم تناهى الها صوت مألوف يأتي من خلفها. كان صوت أمها الراحلة فلم تصدق أذنها وقد تعرفته في اللحظة الأولى. وحين استدارت للخلف اصطدم بصرها بأمها وهي تستند إلى الجدار بكف مشتعل، وترمقها بنظرة زجاجية لا حياة فيها. حبست أنفاسها وقلبها يدق كالطبول. ومن بعيد لاحت غيبوبة مخيفة تسرع نحو عقلها.

توقف الزمن للحظات مرت كالدهر، وفي اللحظة التالية تبدلت عينا أمها وصارتا حمروا ين ناريتان وهي تبتسم. ولم يكن ممكنا أن تتمالك ابتسام نفسها أكثر من هذا فصرخت كما لم تفعل من قبل. وفى اللحظة التالية اندفع نحوها شبح أمها. اخترق جسدها وغاص فيه حتى اختفى. هنا بترت صرختها وتجمدت بمكانها للحظة قبل أن تهوى على الارض كقالب من الصخر بلا حراك.

وعلى باب الحجرة كان هناك عماد. جذبته صرخة اخته فهب من فراشة وهرع نحوها. جاء في نفس اللحظة التي اختفى شبح أمه فى جسد أخته. أراد أن يتحرك نحو أخته المترنحة ليحميها من السقوط، لكنه انتبه إلى الطفل المتصلب في منتصف الحجرة دون أن يبدو عليه التأثر بما يدور حوله. وارتفع بصره بقلق إلى حيث ينظر الطفل،ورأى الشعار الشيطاني المتوهج على الجدار.

هنا تحدث الصغير فجأة ومن فمه خرج صوت غليظ لا يمكن لحنجرته الضعيفة أن تخرجه:

-اقترب الوقت أيها البشري. السيد ينتظر. حرره،أو تفقدها وتموت. حرر أزوث. إنه ينتظر.

كان هذا أكثر مما يحتمل فاندفع نحو الطفل فهزه بعنف ليفيق ثم احتضنه وهو يبكى. استجاب الطفل لهزاته فافاق وقد عادت الحياة لعينيه ثانية، وتلاشت منها تلك النظرة الجامدة. دارت عيناه في الحجرة بحيرة، قبل أن يرى جسد أمه الراقد بجواره فصرخ وهو يتخلص من ذراعي خاله ليندفع إليها، وراح يناديها باكيا لكنها هذه المرة لم تجبه

****

2

-لقد مات الشيخ عبدالباسط منذ أعوام. رحمه الله لقد أصيب بسرطان البروستاتا بعد حبسك بشهور ولم تستمر معاناته مع المرض الخبيث طويلا فمات. لكن ما الذى دعاك لتذكره الان يا بنى؟

قالها الحاج رضا بدهشة، وهو يرمق عماد وممدوح بعينين محتقنتين منتفختين.. كانت أنفاسه سريعة متلاحقة كأنما يخوض سباقا عنيفا. كان كبده فى أسوأ حال فى هذه اللحظة، وكانت كليتيه فى طريقهما للنهاية مثل كبده. كان هذا الرجل الطيب يحيا أيامه الأخيرة على ظهر هذه الأرض ..

وقال له عماد متجاهلا أفكاره السوداء تلك:

- الأمر يتكرر ثانية يا حاج رضا. هذه المرة هي ابتسام.

أدرك الحاج رضا ما الذي يقصده عماد. أخبره عماد ماحدث بإيجاز. فتململ الرجل فى جلسته محاولا اتخاذ افضل وضع ممكن يريح بطنه المنتفخة بالماء والزلال وهتف بجزع:

-إذا علينا أن نفعل شيئا ما بشرعة. لن ننتظر حتى يسوء الأمر.

قالها وسعل بقوة ثم عاد ليقول بصوت ضعيف:

-لاتقلق يابنى. سوف نجد حلا ما إن شاء الله.

راقبهما ممدوح وقد تملكه الرعب وعقله لايكف عن استعادة الرعب الذى عاشه من قبل أعوام سبع ،تذكر ماحدث معه والشيخ وحيد والشيخ ميمى وكيف كاد أن يموت من الرعب حينها ..ما لايعلمانه أن الكوابيس المزعجة مازالت تأتيه من حين لآخر مذكرة إياه بتلك الحادثة العصيبة ..لم يرغب فى أن يترك صديقه يواجه أمرا كهذا بمفرده لكنه كذلك لايستطيع أن يشترك فى هذا الأمر ثانية..وخاصة بعد ما راه يحدث مع ابتسام منذ قليل..لن يشترك فى الأمر حتما..لذا قال ببط وهو يرنو بعينيه لأسفل:

-لن أشترك فى هذا الامر. أرجو ألا تغضب مني يا عماد. الأمر فوق طاقتي ولهذا أردت أن تعلم منذ البداية أنني لست معك.

أراد الحاج رضا أن يعترض عليه لكن عماد أسرع يقول وهو ينتزع من شفتيه ابتسامة فاترة:

-لا ألومك علي هذا يا ممدوح، لست مجبرا على خوض الأمر ثانية.

ران الصمت للحظات وأبعد عماد بصره عن ممدوح كى لايزيد احراجه بينما قال الحاج رضا محاولا تغير دفة الحديث :

-وكيف حال ابتسام الان ..

-مازال عقها في عالم آخر غير عالمنا. لقد عهدت برعاية الطفل لأم محسن.

-حسنا فعلت. أبعد الطفل تماما عن المكان كي لايصيبه مكروه هو الآخر.

قالها الحاج رضا وصمت الجميع ثانية قبل أن يتذكر ممدوح فجأة شخص ما قفز الى مخيلته فجأة فقال بسرعه وهو يضرب جهته بباطن يدة:

-يالهى كيف نسيته!..لقد نسينا جميعا ذلك الطبيب النفسي ..أعتقد أنه كان يدعى محمد شاهين كما أذكر .

تهلل وجه الحاج رضا، الذى قال من فوره:

-الدكتور محمد شاهين .. نعم يا ني. كيف فاتني هذا. إنه رجلنا الذي نبحث عنه!..

أظلم وجه عماد، وهتف باعتراض:

-هذا أخر من ألجأ له. لقد خذلني في المرة الأولى. لن ألجأ إليه أبدا. لقد تسبب بشهادته الكاذبة اللعينة في إدانتي.

وضاقت أنفاسة فنهض، وأولاهما ظهره، وأكمل في هياج:

-ألا تتذكران ما فعله بى ..لقد اتهمنى بالجنون فى المحكمة ..لقد تسبب في إيداعي مستشفى الأمراض العقلية بشهادته تلك..كيف يمكنني أن أثق به بعد ذلك. إنني لا أنساه أبدا وأتمنى لو ألقاه يوما لأنتقم منه على ما فعله بي. كان الأمر ليتغير كثيرا لو أخبر المحكمة بالحقيقة بدلا من اتهامي بالجنون.

حاول الحاج رضا تهدئته وقال:

-ربما اخطأ حينها، لكننا الآن فى حاجة إليه..لقد مات الشيخ عبدالباسط الذي كنا نثق فيه' وقد كان الرجل يثق فى ذلك الطبيب كثيرا كما أخبرنا. لذا أرى أن تدع حنقك منه الآن جانبا، ونسأله عن مساعدته فى الأمر. إن حياة أختك أهم بكثير من حنقك هذا.

لم يبد على عماد أنه اقتنع بما قيل له، وقال عابسا:

-وماذا فعل فى المرة الماضية..لقد فشل كالأخرين..إنه لم يساعدنا حينها بأي شيء.

-لكنه حاول واجتهد، بل وكاد أن ينجح لولا أن الأمور تطورت بسرعة. يا بني استمع إلي. اذهب لهذا الرجل واطلب مساعدته. لا تدع عنادك يعمي بصرك عن واجبك. أختك تحتاج للمساعدة وربما كان قادرا على تقديمها لها فلماذا لا نلجأ إليه إذا ولننحي حقدنا عليه جانبا.

نظر عماد الى ممدوح مستنجدا، لكنه فوجئ به يقول:

-لا تنتظر أن أخالف الحاج رضا فى رأيه، فلا وقت لدينا لنتعثر في أحد الدجالين والأفاقين ثانية. يمكنني أن أصحبك إليه لو شئت. لكن عليك أن تذهب إليه.

رمقهما عماد بحيرة وحنقه من الدكتور محمد شاهين يشتعل فى أعماقه وقد عادت جذوته للالتهاب ثانية. لكنه بالفعل لم يدرى أى حل غيره.

فى النهاية أطرق رأسه مستسلما وقال:

-حسنا. سوف ألجأ إليه.

ثم أكمل في أعماقه بحنق:

-لكن هذا لايعني أبدا أني سامحته.

****

4

جلس الدكتور محمد شاهين على أريكة خشبية في منتصف حديقة فيلته وراح يرمق شاردا الأفق بعيون ضامرة مريضة. راح يدخن بهدوء غليونه ويطلق بخواء سحابات غير منتظمة من الدخان. كان يفكر بيأس في نهايته.

عما قريب سينتهي كل هذا الصخب الذي عاشه ويموت. عما قريب ستنتهي رحلة طويلة من المغامرة والبحث والإثارة والدهشة والفضول. عما قريب ستأتي النهاية التي لاريب فيها.. إنها لمستها الأولى والأخيرة التي وهبتها له، وهديتها المخيفة التى لا تُرد. سوف يدفع ثمن مقاومته لها ورفضه إياها غاليا.. سوف يدفع عمره كله.

كانت رومية. الجثة الفاتنة التي عادت للحياة قبل أعوام. وما أدراك كم هو سحرها وحلاوتها وجاذبيتها وكذلك كم هي قسوتها ووحشيتها وتفرد انتقامها. لقد عادت لتنتقم. ومنحته لمستها الباردة محملة بلعنة الموت الذي لا فرار منه. لقد حكمت عليه بالإعدام. وصار التنفيذ حتميا.

ينتبه الى وداد مديرة منزله وهو تعدو نحوه خلال الحديقة دون أن تلتزم برصيفها' وهي تطأ بقدميها عشبها المهذب. رأى غضبها فابتسم بفتور وقد أدرك سببه. لقد عاد لتدخين غليونه بينما هي تصر على إتباع نصائح الأطباء له بالإقلاع عن التدخين.. إنها لا تريد أن تصدق أنه لا يعانى من مرض ما..إنها لعنة يا فتاتي الصغيرة..لعنة صبتها فوق رأسه فاتنة القدماء روميه..

وصلت إليه وصرخت في وجهه بعصبية تضاعفت عما اعتاده منها:

-لا أدري لماذا لا تنتحر بمسدسك مادمت ترغب في الموت سريعا هكذا. افعلها يا دكتور وأعدك ألا أمنعك. على الأقل ستموت بسرعة، ولن أتعذب طويلا برؤيتك وأنت تتحلل أمامي ببطء هكذا.

تظاهر بعدم الفهم وقال مداعبا:

-مازالت رقيقة جدا، وبارعة في اختيار كلماتك كما عهدتك يا وداد. أتحلل ببطء. أهكذا تصفين ما أعانية؟!. يا لرقتك وعذوبتك.

-ومازالت عنيدا جدا كما اعتدتك ..هلا أخبرتنى لماذا عدت للتدخين ثانية. ألم تعدني أن تقلع عنه.

-وهل توقفت يوما عنه لأعود إليه . كما أنني لا أذكر انني وعدتك. هل فعلت حقا؟.

زفرت بحنق ويأس. واشاحت بوجهها بعيدا كي تخفي عبراتها عنه، لكنه لحظها. قليلة هي المرات التي كانت تبكي أمامه. ثم قالت له بصوت واهن وهى تجلس بجواره:

-تعلم أنه من العسير أن أحتمل فراقك. هذا يفوق تفكيري وقد اعتقدت منذ زمن أننى أشيخ أسرع منك بكثير وأنني سأموت قبلك، وكان هذا يريحني كثيرا. طالما تمنيت أن أغادر العالم قبلك كي لا أكتوي يوما بفراقك. الآن تبدل الأمر .وها أنا أراك أمامي تحتضر. إن أبشع كوابيسي يتحقق الآن أمام بصري..يتحقق ولا أستطيع أن أفعل شيئا.

وتجفف أنفها بمنديل ورقي في يدها وتكمل:

-دكتور محمد.أرجوك عش من أجلي أطول وقت ممكن. توقف عن قتل نفسك بالتدخين. وأفعل أي شيء قد يطيل بقاءك معي قليلا. هذا طلب صغير للغاية يستحق أن تحققه من أجلي. إنه طلبي الأخير الذي أتمناه منك.

كان يعلم حقيقة مشاعرها نحوه.. وبعد خمس وثلاثين عاما من عملها لدية كمديرة لفيلته، مازالت تحبه وما زالت تخاف عليه كما فعلت دائما.. وهاهي الآن تخشى موته وتغالب نفسها كي لاتنهار أمامه..

المشكلة أنه لن يترك التدخين أبدا. سيموت وغليونه في فمه لو استطاع. فبعد كل تلك الأعوام الطويلة من ملازمته صار جزءا منه لايمكنه فراقه. لذا قال بهدوء وهو يربت على كتفيها بيد ضامرة سقيمة:

-ولماذا لاتصدقين يا عزيزتي أن التدخين لا شأن له أبدا بما أعانيه.إنه لن ينفعني ولن يضرني كذلك. لاتطالبيني بالإمتناع عن أمر أحبه في أيامي الأخيرة. من حقي أن أستمتع بما أحب قبل أن أموت.

-لكن الاطباء طالبوك بالكف عنه.

-أذكر أنني مازلت طبيبا أنا الآخر، ورأيي كطبيب أن التدخين لاضير منه في مرضي هذا. الأمر أعقد بكثير من سحب الدخان، وما قد تسببه من أمراض هذه المرة. إنها لعنة يا عزيزتي. لعنة !!. هل تدركين هذا؟.

ترمقه بشك قبل أن تفقد رباط جأشها ثانية ويرتفع صوتها وهي تقول بتحد:

-هل تعني بكلامك هذا أنك لن تمتنع عن التدخين؟

-أعدك ألا أفعل أمامك. هذا أكثر ما يمكنني تقديمه.

-إذا سأتركك. أنت تعلم أنني سأفعل. لو ظللت تدخن هكذا فلن أمكث بالفيلا ثانية واحدة. إنها كلمتي الأخيرة.. عجل بموتك كما تشاء لكن ليس أمام بصري. لن أكون هاهنا أبدا حين تموت.

قالتها وابتعدت بغضب، لكنها وبعد أمتار قليلة، توقفت أمام إسماعيل بواب الفيلا العجوز الذي تقدم نحوها ببطء، وقال:

-هناك شابان يرغبان في رؤية الدكتور. إنهما يلحان في التحدث إليه

-من يكونان وماذا يريدان؟.. ولماذا لم تخبرهما أن الدكتور مريض، ولا يقابل أي أحد. إذهب وأطلب منهما الانصراف.

سمع الدكتور محمد الحوار فقال وهو يلتفت إليهما:

-ألم يخبرانك ما أسمهما، ولماذا يرغبان في مقابلتي؟..

-لقد أخبرنى أحدهم أن اسمه عماد، قال إنك تعرفه منذ أعوام .

تذكر عماد على الفور. إذا مازالت ذاكرته على حالها حادة يقظة كما كانت دوما. إنها ميزته الكبرى التي لم تذهب بها لعنته هذه، وبينما همت وداد بأن تطالب البواب العجوز ثانية بإبعادهم، أسرع ليقول للبواب العجوز:

-عماد !!. إذا فقد أطلقوا سراحه. قده إلي يا إسماعيل. سوف أقابله بالطبع. من الرائع أن ألقى هذا الفتى ثانية قبل موتي.

تحرك البواب العجوز ببطء نحو الباب، بينما انتظرت وداد بجواره متحفزة وقد صمتت على مضض..وبعد دقيقتين كان عماد أمامهما مع ممدوح الذي تمالك نفسه بصعوبة، وعيناه معلقة بانبهار بالحديقة الوارفة التي يسير فيها..وما أن وقع بصر عماد على الدكتور محمد حتى اتسعت عيناه بذهول. فلم يكن هذا أبدا الرجل الذي رآه منذ أعوام سبع. بدا وكأنه إنسان آخر، رجل تقوض جسده وتهدم.. مستحيل أن تفعل سنوات سبع فى شخص ما كل هذه التغيرات.. لقد صار عجوزا بشدة وكأنما اقترب عمره من الأعوام المائة.. أيكون مريضاً هو الآخر مثل الحاج رضا؟..

وبادره الدكتور محمد مرحبا بود ودفء:

- يبدو أنه مُقدر لي أن أراك ثانية يا صديقي القديم.. صدقني يا عماد، تمنيت أن يحدث هذا قبل أن أموت. ما زالت أدين لك بتفسير أخير.

في تلك اللحظة ذهب عن عماد كل الحنق والغضب والكراهية مرة واحدة.بعد أن رآه هكذا. الآن لا يشعر في أعماقه بشيء غير الإشفاق نحوه. حك أنفه وهو يقول مرتبكا :

-كيف حالك يادكتور محمد. هل أنت بخير؟.

كان سؤالا لا معنى له، وقاطعتهما وداد وقالت بصرامة لعماد وممدوح:

-أعتقد أيها الشاب أنك لاحظت أن صحة الدكتور ليس في أفضل حالاتها ..لهذا أرجوا منكما ألا تطيلا الزيارة أو ترهقا الدكتور أو تزعجانه.

انزعج الدكتور محمد من كلماتها، وهو يرى كيف احتقن وجه ممدوح بخجل، وكيف إزداد ارتباك عماد، فقال لها محتدا:

- لايصح أبدا أن يقال هذا لضيوفي يا وداد. من فضلك اتركينا الآن بمفردنا، ولا تنسي أن تعدي لنا عصيرا طازجا.

كتمت اعتراضها وغيظها بأعماقها، ورمقت الشابين بحزم كأنما تذكرهما بماطالبتهما به، وانصرفت. هنا قال عماد ثانية ولم يجلس بعد:

-أخشى أن تكون السيدة مصيبة فيما قالته..لا مبرر أبدا أن نرهقك. أعتقد أنه علي أن أنصرف الآن .

-إجلس يارجل ولا تتحدث بهذا الهراء. إنا بخير حال كما ترى. دعك من كلام النساء وأخبرني، من هذا الوسيم الذي يرافقك؟ .

ابتسم الاثنان رغما عنهما لدعابته وقد نعت ممدوح بالوسامة التي يفتقدها بشدة، وأسرع عماد يقدم له صديقه:

-إنه صديقي ممدوح، لقد كان معنا من قبل لو كنت تذكر..يبدو أنك قد نسيته.

رفع الدكتور محمد رأسه للفضاء،محاولا التذكر قبل أن يبتسم وقد تذكره:

-نعم ..نعم ..أذكره بالطبع، ربما لم أتعرفه منذ البداية لأنه قد ازداد بدانة. كيف حالك يا ممدوح. أرى أن حديقتي قد أعجبتك..

-إنها رائعة للغاية يا دكتور. لم أرى في حياتي شيئا كهذا. لكن ماذا تدعوا تلك الزهرة الحمراء هناك.

-إنها زهرة "الأضاليا" إنها مكسيكية الموطن.. ستروقك كثيرا لو نظرت إليها عن قرب..اذهب إليها لتراها. يمكنك كذلك أن تتجول بالحديقة كما تشاء لو أردت..هناك عشرات الزهور الجميلة التي ستعجبك حتما.

وأدرك ممدوح على الفور ما يصبو إليه الدكتور محمد.. لابد أنه يرغب في تبادل حديث خاص مع عماد. لذا تنحنح بحرج وهو ينهض مرتبكا وتمتم:

-إن هذا ما أتمناه بالفعل..سوف أذهب لأرى كل زهرة في الحديقة.

راقباه حتى ابتعد، قبل أن يعاود الدكتور محمد حديثه بعد أن أطلق من فمه سحابة خفيفة من الدخان:

-والآن أنتظر أن تخبرني كم أنت حانق علي بعد شهادتي الزائفة ضدك في المحكمة.. بالطبع لا ألومك على مشاعرك تلك، لو كنت مكانك لفعلت.

-صدقني ليس الأمر الآن كما تعتقد.. ربما كان من قبل، لكنني في هذه اللحظة لا أحمل نحوك أي ضغينة. لقد انتهى الأمر.

-وهل حدث هذا لأنك أشفقت على العجوز الذى أهلكه السقم والعجز حين رأيته بعد كل هذه الأعوام..

-أقسم أنه لا شأن بمرضك بما أشعر به.. ولو كان حديثك هذا مقدمة لإعتذار تعتقد أنى بإنتظاره أو أحتاجه فلا تفعل أرجوك ..لقد إنتهى الأمر بالفعل.. ولست هنا من أجل هذا.

تراجع الدكتور محمد برأسه للخلف وعيناه لا تفارق وجه عماد، كأنما يقرأ من خلاله ما يكنه في أعماقه، وقال باسما:

-ومن أخبرك أنني أرغب في تقديم إعتذار ما .. هذا شئ لم يدور بخلدي قط.. لكنني أرى أنه من حقك أن تفهم الأن لماذا اتهمتك بالجنون ولم اخبر القضاة بالحقيقة.

هز عماد رأسه رافضا الفكرة وقال على الفور:

-ارجوك لاتفعل يادكتور .. أخبرتك أن الامر قد انتهى فلا تزعج نفسك بتبرير قد يعييك. إنني...

هنا بان الغضب على وجه الدكتور محمد وقاطعه قائلا:

-إسمعني يابني وكف عن احساسك السخيف بالشفقة نحوي.. إنني لم أمت بعد، ولست عاجزا عن تنظيف نفسي من فضلاتي لتفعل.. مازالت قادرا على العناية بنفسي والوقوف على قدمي، وحتى أفشل في هذا، لا أحب أن أرى نظرة الشفقة تلك في عين أحد ما.

ارتبك عماد وقد تصاعد الخجل في أعماقه فهرب ببصره نحو ممدوح الذى راح يتجول في الحديقة بلاهدف، بينما عاود الدكتور محمد حديثه قائلا:

-أرجوا أن تعي كلماتي هذه ..لقد كنت مظلوما حين اتهمك الجميع بقتل أمك.. أعلم جيدا أنك لم تكن لتقدم على أمر كهذا مهما حدث.. لم تكن لتفعلها قط حتى لو هاجمتك ورغبت في قتلك.. هذا أعلمه لأنني أعرفك ولأنني طبيب نفسي وظيفتي أن أقيم الظروف والدوافع النفسية لمن أمامي.. إنني أدرك هذا جيدا، لكن ماذا عن القاضي؟!.. هل تعتقد أنه كان ليصدق أي حديث أخبره فيه أن أمك كانت مسكونة بالجان، وأنني أعتقد أن الجان أو الشياطين هم من قتلها وليس أنت.. هل تعتقد أن القاضي كان ليصدق أمر كهذا؟.

عاود عماد عناده ورفضه لما حدث. عاد حنقه وغضبه القديم ليتأجج في نفسه وعاد البركان في جوفه ليثور، فهتف معترضا:

-كان عليك أن تخبرهم الحقيقة يا دكتور، كان عليك أن تساعدني بتأيد ما قلته..كما كان عليك أن تجتهد كي تثبت براءتي ما دمت تدرك أنني لم أفعل.

-وهل تعتقد أن هذا كان ليفلح.. هل كان معك شهود، رأوا ما حدث بينك وبين أمك.. بالطبع لا.. إذا ماذا تنتظر من القاضى الذى يحكم بالادلة والبراهين أن يفعل.. هل تعتقد أنه كان ليصدق شهادتي القائمة على سرد أمور عجيبة مليئة بالأحداث الخارقة، والتى ربما رفضها عقله تماما. كنت لاؤذيك لو فعلت. بل كنت لأشكك في مصداقيتي نفسها لو فعلت

-وهل تعتقد أنك لم تؤذني فعلا يادكتور بما فعلته.. لقد قضيت أعواما سبع بمستشفى الامراض العقليه.. لقد صرت مجنونا فى أعين الجميع.. لقد فقدت من أحب بسبب هذا.. ولقد ضاع مستقبلى، ولم يعد هناك من يقبلني فى عمل ما .. هل هناك إيذاء حقا اكثر من هذا؟

تأمله الدكتور محمد بهدوء. كان يدرك ما يعتمل بداخله من حنق، وارتعشت يداه للحظة قبل أن يجيبه:

-كل هذا كان ليحدث على كل حال ..لو أنني شهدت بما حدث، وأخبرت القاضى بالحقيقية، ورفض تصديقى ولم يأخذ بشهادتى، ماذا كنت تنتظر.. بالطبع كان ليحبسك' وربما كانت عقوبتك السجن المؤبد مثلا.. حينها كنت لتقبع خلف القضبان أعواما لن تحصيها بين القتلة والمجرمين لتتحلل نفسك خلالها وتتعفن روحك، وحين تغادر السجن بعدها ستكتشف أنه لا شئ قد بقى لك لتعيش من أجله. ربما ترى أنني قد أخطأت لكنني أؤمن أنني لم أفعل. لقد فعلت الصواب يابنى حين بدلت الحقيقة، فعلت هذا لأنني أردت أن أساعدك ولم يكن أمامي سبيل آخر غير هذا..

لم يبد على وجه عماد الاقتناع، وإن تعجب من نفسه حين شعر بأن حنقه راح يخفت تدريجيا في أعماقه ..وأكمل الدكتور محمد حديثه وهو يغمض عينيه وهو يستعيد من ثنايا ذاكرته ذكرى بعيدة:

-لقد واجهت أمرا مشابها لما حدث لك منذ أعوام بعيدة. حادثة تشبه كثيرا ما لاقيته.. في تلك المرة احترق منزل ومات كل فيه.. الضحايا كانوا ثمانية بينهم أطفال، والمتهمة شابة ممسوسة كنت أقوم بعلاجها..كانت في هذا الوقت قد شفيت من مسها، لتجد نفسها متهمة بالقتل.. متهمة بقتل أسرتها جميعا وهي لم تفعل، حاولت الدفاع عنها باخبار المحكمة بالحقيقية، فلم يصدقني أحد حينها، ليحكم عليها القاضي بالإعدام في البداية، ثم خُفف الحكم فى الاستئناف للسجن المؤبد. لكن هذا لم يغير من الأمر شيء. لقد ماتت الفتاة بعد أعوام فى السجن. ماتت بعد أن أصابها اكتئاب شنيع لم تشفي منه. إنني لا أبالغ لو أخبرتك أنه كان ينتظرك مصيرا كهذا. فكر قليلا بعقلك في ما أقوله ودع غضبك جانبا وستدرك أنني لم أبغ إلا مساعدتك.

وصمتا وقد عادت وداد حاملة عصير البرتقال الطازج. قدمت كوبين اليهما ثم بحثت بعينها عن ممدوح، حتى وجدته فى ركن بعيد منحنيا فوق نبتة من نباتات الحديقة يفحصه باهتمام.. وقالت بشك:

-ما الذى يفعله هذا هناك ..بل ولماذا ذهب الى هناك؟.

-ربما كان يرغب فى قضاء حاجته .

داعبها الدكتور محمد، فتقلصت ملامحها جزعا ووثبت منتفضة، وصرخت وهى تهرع نحوه حاملة كوب عصيره:

-سأؤدبه لو كان يفعل. لا يفعل هذا أبدا إلا الحيوانات.

وضحك الاثنان لبعض الوقت وهم يشاهدانها تندفع بغضب نحو ممدوح، قبل أن يرتشف الدكتور محمد بعض شرابه ويقول لعماد :

-لماذا جئتني ثانية يا عماد ؟..

ارتشف عماد ثلاثة أرباع كوبه مرة واحده كأنما يدفع بهذا بعضا من توتره، قبل أن يحكي له ما حدث مع أخته ابتسام. إستمع إليه الدكتور محمد باهتمام وقلق، وحين إنتهى عماد من كلامه، قال له بتوتر حقيقى:

-هل تعلم يا عماد..كنت أخشى أن يحدث هذا ثانية. بل لنقل أنني كنت أنتظر أن يحدث.

قال له عماد بدهشة:

-ولماذا إعتقدت هذا.. المفترض أن هذا الأمر كان مع أمي فقط، والمفترض أنه قد انتهى بموتها.

-ولماذا إصيبت به أمك من البداية.. وكيف إحتل جسدها كل هذا العدد المخيف من الجان في وقت واحد ولماذا فعلوا.. صدقنى لقد أدركت منذ الوهلة الأولى التي زرتك فيها أن أمك قد إنتهت.. كان من المستحيل أن ينجو بشري ما من استحواذ شيطاني كهذا. لقد كان الأمر كله مربك مليء بالألغاز.

-وهل لديك تفسير لما حدث؟

صمت الدكتور محمد للحظة وتطلع الى الشمس الغاربة وقد صبغت الكون بصفرتها المقبضة قبل أن يقول بهدوء:

- إنتقام شيطانى ياعماد..إنتقام ملعون يطارد عائلتك كلها.

****

6

مضى بعض الوقت من الذهول قبل أن يفيق عماد من هول الصدمة. انتقام شيطاني. كان هذا أكبر من أن يتخيل وقوعه مخنوق فهتف وهو غير مصدق:

-انتقام شيطاني! أي قول هذا يادكتور؟..

-يؤسفني أن اخبرتك أن هذا الاحتمال هو الأكثر قبولا لدي..إن تفكيري هذا ليس وليد اللحظة. لقد كان الأمر كذلك منذ واجهنا الأمر سويا فى المرة الأولى.

- وما شأن الشياطين بنا لتصب على رؤوسنا لعناتها السوداء.

هز الدكتور محمد رأسه ببطء، وفرد أصابعه التي راحت تؤلمه بشدة، فلاحظ بعض التسلخات الجلدية الحديثة بين أصابعه، كانت أصابعه تتآكل من جذورها، رمقها متوجعا، قبل أن يضمها ثانية محتملا الألم العنيف، ويقول:

-وهل يهم هنا ما تعتقده أو ما ترفضه؟ ..أنا أرى ما يحدث معك أكبر من أن يكون مجرد استحواذ شيطاني أو مس أرضي ..لو الأمر كذلك لما واجهت أمك كل هذا العنف..إن ماقامت به من أشياء فظيعة، لايستطيع فعله إلا مردة الجان وشيطانهم وبعض سحرة الجان الكبار..وهؤلاء لن يضيعوا وقتهم في مجرد استحواذ على جسد احد البشر. إنهم لايفعلون أمرا كهذا إلا لسبب قوى، وغالبا ما يكون الانتقام هو هدفهم.

-ولماذا يرغبون في الانتقام منا ..نحن لا صلة لنا بهم ولا نهتم بتلك الأمور ولا نطرق أبواب الدجالين أو السحرة أو غيرهم..فلماذا يختاروننا دون باقي البشر ليفعلوا.

لم يجبه الدكتور محمد من فوره، وراح يدخن غليونه ببطء في نفس الوقت الذى عاد فيه ممدوح، فأشار اليه ان يجلس فجلس بهدوء..ومضى بعض الوقت من الصمت قبل ان يقول الدكتور محمد:

-هناك أشياء قمت بها لاتعلمها. فبعد سجنك كان فضولي عاتيا لمعرفة حقيقة ما حدث لك..حاولت أن أتسلل إلى شقتك لكنى فشلت..جربت أن أتصل بأختك لكنها رفضت الحديث إلي، بل وأغلقت الهاتف في وجهي حين أخبرتها أنني كنت أعرفك..

وضحك بوهن كأنما راقه الأمر حينها، وأكمل:

-بالطبع تفهمت لماذا فعلت هذا..لقد كانت حانقة عليك وحملتك مسئولية موت أمكما..لكنني كنت بحاجة لأن أفهم..وقابلت الشيخ عبدالباسط حينها، وجربنا أن نستدعى أحد الجان لنستعين به في معرفة ما حدث لكنه لم يعد لنا وعلمنا أنه أختطف وقتل..علمنا هذا بعدها فكان هذا كافيا لأن نتوقف عن المحاوله. أدركنا أن الأمر أكبر من قدراتنا على تتبعه فتوقفنا.

وصمت مرة أخرى وعماد يرمقه فى ذهول، قبل أن يردد:

-أتعنى أن جنيا قد مات لمجرد أنكم طلبتم منه معرفة ماحدث.

-هذا ماحدث بالفعل وهو أمر ليس بالهين أبدا لو علمت أن الجان لايعيشون فرادى..إنهم قبائل وعشائر كثيرة وكلهم يرتبطون بأواصر قوية من القرابة والدم..ولو تم الاعتداء على جني لهبت عشيرته وأهله لنجدته من فوره والثار له، حتى لو اشتعلت الحروب من أجل هذا.. ومع هذا مات الجني ولم تثر قبيلته أو حتى تبحث عن ثأره..هذا يعنى أنها شعرت أنها أضعف من أن تنهض بثأره وأن من قام بقتله قد يبطش بهم ولاقبل لهم بهم..بالمناسبه هل تعلم كيف مات الشيخ عبدالباسط؟

-.أعتقد أنه السرطان..لقد أخبرني الحاج رضا بهذا.

-أجل. لقد مات بسرطان البروستاتا. ولو كنت قوى الذاكرة لعلمت أن تلك الكائنات التي استحوذت على جسد أمك قد علمت هذا وقد كان المرض فى بدايته. هذا يعنى قدرتهم على معرفة المرض الخفى المستتر فى الأجساد، وتلك مقدرة لايملكها كل الجان..القوى فقط منهم هو من يفعل.

تذكر عماد ماقاله الشيطان على لسان أمه للشيخ عبدالباسط..وابتلع ريقه بصعوبة ورمق الدكتور محمد الذى تجعد وجهه وتقلص وهو يدارى آلاما لاتطاق تعصف بجسده وتنهشه.. وبعد لحظات سأله عماد :

-ولماذ قد يرغب هؤلاء فى الإنتقام منا ؟..ألديك إقتراح ما؟.

-ماذا تعرف عن أسرتك ياعماد..أجدادك من الناحتين..ماذا كانوا يفعلون وهل اشتغل احدهم بالسحر مثلا، أو حاول يوما الاتصال بعالم الجان؟

-إنني لا أعلم الكثير عن أجدادي من ناحية أبى، فجدي لأبي مات حين كان أبى طفلا، وكذلك فعل أبى..لقد مات وأنا فى الثانية من عمري. أما جدي لأمى فقد كان عاملا بأحد مصانع الغزل والنسيج، وأبوه كما أذكر كان فلاحا. لا أعتقد أن هناك مايريب فيهم أبدا.

-مازلت أعتقد أن هذا الانتقام يتعلق بأحد الأجداد..هذه ديدن الأمور هنا.. يتصل الجد بالقوى الشريرة..ثم تكون لعنة تلزم أبنائه بعدها..لذا أرى أن عليك أن تبحث وتفتش جيدا عن أسرتك، وأن تعلم كل ما يمكنك معرفته عن حياتهم. ربما يقودنا هذا للوصول لشيء ما.

ومرة واحدة طفا على سطح عقل عماد أمر ما قد نسيه طويلا. وتذكر ما قالته أمه وهي تحتضر.هل كان الحل أمامه طوال الوقت وهو لايدري..راحت كلماتها الأخيرة قبل أن تفارق الحياة تدوي في أذنه. "انهم أجدادك".

رباه !!. لماذا نسى هذا كل هذا الوقت ،والتفت الى الدكتور محمد وأخبره بما تذكره..إنتبه الدكتور محمد لكلماته وغمغم باهتمام:

-هذا يؤكد ظنوني ويحسم الامر، علينا التنقيب في تاريخ عائلتك. هل تعلم منشأ أجدادك

-أعتقد أنها قسط اللبن. إنها إحدى قرى محافظة القليوبية، وقد أخبرتني أمي يوما أن أجدادي أتوا منها. هل تعتقد ان نبدأ البحث من هناك؟

-لا بأس أن نبدأ من هناك

صمت عماد للحظة مفكرا في الأمر قبل أن يتحدث ممدوح الذي عاد في أمر قد نسيه الجميع:

-وماذا عن ابتسام..ماذا تنوى أن تفعلوا معها..هل ستذهبوا الى تلك القرية وتتركوها هنا بمفردها.

لكن الدكتور محمد ابتسم وقال على الفور :

-سوف أتولى أنا امرها ..لقد أتيت تسألني المساعدة من أجلها والآن سوف أفعل .

تذكر عماد وممدوح المواجهة السابقة العنيفة التى كانت مع أم عماد ونظرا الى جسد الدكتور محمد الضعيف، وتبادلا النظرات الصامتة التى تصرخ بما يدور في أعماقهم

"أيستطيع الدكتور وهو في مرضه هذا مواجهة أمر كهذا؟". لكن الدكتور محمد صاح فيهم بغضب حقيقي:

-أخبرتك ياعماد ألا تجهد عقلك بالتفكير بشأني..أنا لم أصبح عاجزا بعد، ومازلت قادرا على القيام بالأمر..كف عن نظراتك السخيفة تلك ولا تقلق بشأني..هذه المرة أدرك جيدا ما أواجهه، وأعتقد أنني أستطيع حماية نفسي وحمايتكم بصورة كبيره. فقط ثقا بي هذه المرة.

قال عماد على الفور كأنه يعتذر:

-إننى أثق بك بالفعل يا دكتور

-هذا ما أنتظر أن أسمعه. والآن دعوني أحضر أولا بعض الأغراض اللازمة. قبل أن نذهب سويا الى بيتك لنرى ما يمكننا عمله..بالمناسبة هل يتقن أحدكم القيادة أم أطلب السائق.

أجابه ممدوح:

-إنني أستطيع القيادة ، أحمل رخصة قيادة منذ أعوام.

-حسنا. انتظراني هاهنا، لن أتأخر.

وتحرك بحماس كأنما عادت لجسده حيويته كلها، وما أن غاب عن بصرهما، حتى قال ممدوح بتوتر:

-إنني لا أشعر بالراحة..ألا ترى كيف يبدو الرجل..إنه ميت تقريبا .

-ليس أمامنا إلا أن نتبعه. ألم نأت إلى هنا من أجل هذا؟.

وقبل أن يعقب ممدوح، ارتفع فجأة الرنين المميز لهاتف عماد المحمول .. أخرجه من جيبه ونظر فيه.. كانت منى من تتصل. كانت المرة الأولى التى تفعلها منذ طالبته بالابتعاد عنها. وأتاه صوتها باكيا:

-النجدة يا عماد. إفعل شيئا ما أرجوك. لم أعد أحتمل تلك الحياة. لم أعد أحتمل المزيد.

تناسى كل ما يمر به، وتذكر حبيبته، فهتف بقلق:

-ماذا هناك يا منى؟. هل آذاك ثانية؟

-إنه يحبسني ويعذبني. تعال لترى مافعله بجسدي. إنه يحرقني بالنار. إنه يقتلني ببطء. افعل بالله عليك أي شيء وإلا قتلت نفسي.إنني أفكر في الانتحار طوال الوقت.

-إياك أن تفعلي. سوف أقتله لو حدث مكروه لك.

-دعنا نهرب سويا من كل هذا الجحيم..دعنا نبدأ من جديد فى مكان بعيد.

ذُهل من كلماتها وقبل أن يرد عليها، رأى الدكتور محمد يتقدم نحوهم حاملا حقيبة صغيرة وخلفه مديرة بيته تعدو خلفه وتصرخ في جنون معترضة على مايفعله..هنا قال لها منهيا اتصاله:

-سأفكر في الأمر يا حبيبتي..أعدك أن أفعل ما ترغبين فيه فاطمئني. أنا مضطر للذهاب الآن وسوف أحدثك فيما بعد. إلى اللقاء

قالها وأنهى الإتصال وقد صار الدكتور محمد أمامه وابتسم قائلا كانما يستمتع بالأمر أو كأنما هو موشك على القيام برحلة خلوية:

-إنني مستعد يا شباب، دعونا نبدأ المرح.

وبينما يتحركون نحو السيارة كانت وداد تصرخ من خلفهم:

-لقد فقدت عقلك حتما..حين تعود لن أكون هنا. سوف أرحل الأن قبل أن أجن..سوف أفعل وسترى

****

7

راح عماد الصغير يلهو في الصالة، ومن داخل حجرتها راحت سوسن تطل على الطفل من حين لآخر لتطمئن عليه كما أوصتها امها. راقها الأمركثيرا، فالطفل قد صار وسيلة اتصال جديدة بعماد، وقد صار لقائها به صعبا بعد أن أتت أخته لتقيم معه. ما الذى أتى بتلك الأخت الباردة الصارمة لتعيش الأن معه؟. طالما فكرت بحنق..

كانت على وشك ان الحصل علي مأربها منه، لولا مجئ تلك الاخت المعقدة. لاتعلم لماذا انجذبت نحوه هكذا، ولاتدرى لماذا تثور مشاعرها هكذا حين تراه. لم تكن أبدا سهلة المنال رغم جرأتها، وقد تودد اليها العشرات من قبل، فلم تلتفت اليهم أو تلقى اليهم بالا. ربما لأنها ترى أغلبهم مراهقين أو أطفالا لايحركون شعرة بمشاعرها ولا يثيرونها..

لكن عماد كان مختلفا..عماد الذى طالما داعبها وهي طفلة. لكن الصغيرة قد كبرت، وصارت أنثى جميلة، تنتظر فارسها. لاتدرى لماذا جذبتها صلعته الخفيفة وذقنه الطويلة الشعثاء وجسده النحيل..كانت احيانا تقارن بين هيئته الرثة وهيئة معجبيها من الشباب المتأنقين، فتتساءل هل هى طبيعية، أم أن بسلوكها هذا شذوذا كما أخبرتها منال صديقتها المقربة، حين حكت لها مكنون نفسها..

لكنها لاتبالى ولا تهتم إن كانت شاذة أم كانت طبيعيه. إن عماد هو الرجل الكامل الأن في حياتها ولن تدعه أبدا. تتبعت اخباره القديمة وعلمت بعلاقته مع منى من قبل . منى الجميلة التى تزوجها محمد عصام البلطجي . وكثيرا ما تقف أمام مرآتها لتقارن بين ملاحتها وفتنتها وجمال منى. وتسأل نفسها هل يشعر بها يوما، أم أن باله مازال معلقا بامرأة من ماضيه تأبى أن تفارقه..

تعلمت أن الرجل تحركه مشاعرة وغرائزه، وقد تأتى الغرائز بالمشاعر فيما بعد. وصارت تتعمد مغازلته وإثارته بمفاتنه. لكنه راح يقاوم وهو يحاول أن يصرفها عنه محاولا التجلد. لكن عيناه المتأججتان بالشهوة كانتا تفضحه. وعلمت إنها مسألة وقت لا أكثر وستهاوى مقاومته وسيستسلم لها ليركع بين قدميها،حينها تدرك جيدا كيف ستجذبه من عنقه ليخطبها من أمها ويتزوجها..

يدور عماد الصغير حول طاولة تتوسط الصالة مقلدا صوت القطار، ومعه ابتسمت وهى تتذكر ما جرى بينها وبين عماد فى المرة الأخيرة منذ أيام.. تلك المرة التى أكدت لها أنها قد شارفت النجاح وأن أميرها فى طريقه للخضوع لسلطانها. راقبت أخته حتى خرجت فى ذلك اليوم بعد صلاة المغرب حاملة طفلها. وخمنت من ملابسها الكاملة وتأنقها أنها ستتأخر بالخارج. كانت هذه هى فرصتها التى تحينتها لأسابيع. بدلت ملابسها وارتدت بيبى دول وردى إشترته منذ شهور وارتدت فوقه روبا طويلا مفتوح لا يخفي ما أسفله. طرقت بابه. ففتح لها الباب فتسربت للداخل على الفور دون ان تمنحه وقتا للإعتراض. وتوقف هو امام الباب بتوتر ليجعله مفتوحا وهتف بها متحاشيا النظر إليها:

-سوسن بالله عليك لا تفعلى. أنا بمفردى وابتسام بالخارج، ولايليق أبدا ان تكونى بشقتي بملابس كهذه.

لكنها اقتربت منها كعادتها وهى تتأود فى مشيتها فشم عبيرها المثير وقالت هامسة وهى تدفع بقدمها العارية الباب المفتوح:

-أردت الاطمئنان عليك وقد صرت تهرب مني..

-إننى بخير حال كما ترين. هلا ذهبتى إذا؟.

لكنها التصقت به بشده ولاحظت عيناه المشتعلتان اللتين راحتا تبتعدان عن جسدهاالملتهب بصعوبة، وقد تهدجت انفاسه، وقالت له:

-ما رايك فى ما أرتديه..هل يروقك ؟..

-إنه جميل. جميل جدا. والان هل يمكنك أن تغادرى وتتركينى ..أخشى ان تأتى ابتسام فتجدك هكذا؟. لا أعتقد أن رد فعلها حينها سيسرك.

-لايهمنى ما تفعله..لتأتى الأن لتدرك كم أحبك ..لكنها لن تاتى. أعلم أنها لن تفعل قبل ساعات من الآن..

شعرت بمحاولته الفاشلة ليكون حازما، ويداه تحاولان ابعاد جسدها الملتصق به في محاولات ضعيفة في الواقع، فتبتسم بداخلها وهو يقول:

-سوف اخبر أمك لو لم تغادريني الأن

-لايهمنى ..أخبرها وسأقول لها أننى احبك .

-من فضلك هذا يكفى يا سوسن ..أتركينى

لكنها واصلت اقترابها رغما عنه حتى قبلته ..فلم يبعد رأسه ..وبعد لحظات كان هو من يمارس الجنون مع شفتيها ..مضى الوقت سريعا ثم يبعد رأسه منها وقد احتقن وجهه بشده وتلاحقت أنفاسه وقال بصوت مخنوق مثار:

- هذا يكفى.عودى لمنزلك الان ..هيا إذهبى

كان هذا يكفيها بالفعل..قرات في قبلته الكثير والكثير وقد تهاوت حصونه.. في المرة القادمه لن تكون هناك حواجز وسوف يهرع إلى امها.

لم تكن تعرف الذى حدث لابتسام..لكن امها قبل ان تترك البيت طالبتها الا تذهب الى شقة عماد والا تدع الطفل يفعل..اشتعل فضولها فنادت الطفل وداعبته واعطته بعض الحلوى وهى تسأله عن أمه . وتكلم الطفل مسحورا بالحلوى.

-ماما مريضه. الطبيب قال هذا. هل أخبرك بسر يا طانط. هناك أمراة عجوز مخيفة هاجمتها وضربتها. إننى اخاف من تلك المرأة العجوز يا طانط. إننى لا احبها وخالو عماد أخبرني أنه سوف يقتلها .

كلماته العجيبه لم تطفأ فضولها. هنا قررت ان تفعل شيئا مجنونا .. سوف تدخل الشقة لترى ماهنالك..أمها لن تاتى الأن، وعماد بالخارج والطفل يمرح في الشقة..لتفعل هذا، ولن يشعر بها احد ..

جلبت مفتاح الشقة الذى مازال بحوزة امها وذهبت الى هناك..فتحت الشقة فطالعها الظلام. جربت ان تشعل أضوائها فلم يشتعل المصباح الكهربائي. ظنت أنه

مس كهربائي. اخرجت محمولها من جيبها وأضاءت مصباحه وعلى ضوئه رأت الصالة الساكنه. تحركت بحذر نحو حجرة ابتسام المفتوحه وما ان صوبت ضوء المحمول نحو الفراش حتى واجهها وجه ابتسام المتصلب وعيناها الجامدتان المحملقتان في الفراغ.

كادت ان تصرخ لولا أن تمالكت نفسها بصعوبة. كان عليها أن تتراجع لكنها أحجمت وقد غلبها فضولها. وعادت بحذر لتدخل الحجرة وصوبت الضوء نحو الفراش الذي رقدت عليه ابتسام بسكون. بعيون مفتوحة ترمق الفراغ في خواء. أنفاسها الضعيفة وصدرها الذى يعلو ويهبط أنبأها أنها مازالت حية. لكن لماذا تنام هكذا ولماذا لاتتحرك؟. هل يكون مرض ما قد ألم بها. من يدرى؟.

تراجعت للخلف بحذر وكادت أن تغادر الشقة لولا ان لاحظت الضوء الأحمر الذى ينبعث من حجرة عماد. تحركت نحوها لترى من اين ينبعث وفى اعماقها تصاعد نذير يأمرها بالتوقف وأن تهرب من المكان. لكن عنادها وأد هذا الصوت المحذر، وتقدمت للحجرة غير عابئة بوساوسها. دلفت الحجرة المضاءة بالضوء الشيطانى الذى ذاب ضوء محمولها فيه. كانت عيناها تبحث فى المكان عن مصدر الضوء المجهول حين فؤجئت بباب الحجرة يغلق من خلفها..

هنا كانت نهاية عنادها ورباط جأشها وبدايه هلعها. اندفعت نحو الباب محاولة فتحه لكنه ابى أن يستجيب لها. راحت تدقه بعنف وهى تصرخ مستنجدة وقد تضاعف هلعها حد الموت. ومن الفراغ انبعثت الهمسات. وأمام بصرها الزائغ برزت الظلال من الجدران. ظلال مخيفة مقبضة أثارت هلعها لاقصى حد، فراحت تصرخ وقد عجزت قدماها عن حملها فهوت أرضاً.

وتجسدت الظلال امام عينيها البندقيتين الحلوتين. وكان أكثر ما يفزعها عيونهم الحمراء الصغيرة. كانوا شياطين بلا شك. وتقدموا نحوها من خلفهم برزت أم عماد وهي ترمقها بعيون جامدة. مازالت تذكرها ومازالت تذكر كيف تبدو ..

لكن لماذا تتوهج عيناها هكذا وما هذا الشى المشتعل الذى تحمله فى كفها..وصرخت فى عنف وفزع صرختها الأخيرة حين رأت سوطا ناريا من الجحيم تحمله يشق الفراغ ويهوى عليها. كانت هذه هى صرختها الاخيرة وكان السوط المشتعل هو اخر ما انطبع على شبكية عينها البندقيتين اللتين طالما حيرت الشباب وأججت أشواقهم.

وحين هوى رأسها ارضا وتدحرج بعيدا عن جسدها الذي راح ينتفض بعنف، ظل السوط مرسوم على مقلتيها لزمن طويل.كان يكفى ان ترى عيناها حينها لترى السوط رابضا فيهما.

لكن احد لم يكن هناك ليفعل .

***

8

لاحظ عماد ان باب الشقة كان مواربا حين دلف الشقه. أضاء المصباح الكهربائى فرأى أن كل شئ فى مكانه. حجرته مغلقة وحجرة اخته فى آخر الممر مفتوحة كما هى وغرفة امه خلفه مغلقة هى الاخرى .لم يعر الامر اهتماما وتوقع انه ربما نسي التأكد من إحكام إغلاقه حين خرج ..

دخل الدكتور محمد شاهين خلفه وهو يسعيد ذكرياته السابقه فى المكان وفى النهاية دلف ممدوح باب الشقة بتوتر متوقعا كارثة ما ..هذا ماحدث من قبل وهذا ماسوف يحدث الان..إن الكوارث في هذا البيت لا تتوقف أبدا..

وتحرك عماد نحو حجرة أخته وقاد الدكتور محمد إليها قائلا:

-من هنا يا دكتور.

تبعه الدكتور محمد بمفرده. مازالت كما هى فى سباتها أو غيبوتها العميقة لاتتحرك بالرغم من عيونها المفتوحة على اتساعهما محدقة فى الفراغ .. إقترب منها الدكتور محمد وأمسك كفها ليتفد نبضها ثم أخرج كشافا صغيرا من جيبه تفحص به مقلتيها قبل أن يغمغم :

-مازالت فى البداية..أعتقد أن الإستحواذ لم يكتمل بعد..هذا يعني أن نسرع فما زال هناك أمل.

رفع بعدها حقيبته من الأرض وفتحها وأخرج محقنا به سائل شفاف ودفعه فى أوردتها ..نظر اليه عماد متساءلا فأجابه:

-لاتقلق .إنه مهدئ..لاأرغب فى أن أراها بيننا فجأة لتثير المزيد من الفوضى ونحن نفحص المكان.

هز عماد رأسه بتفهم وقال وهو يتحرك خلفه خارج الحجرة :

-والآن ماذا سوف نفعل؟..

-كما اتفقنا ..سنفحص المكان جيدا..سنفتش كل جزء فى الشقة وأثاثها .. سننتزع حشية الارائك والأسرة ..سنتفقد الجدران..علينا أن نتأكد أنه لاشئ فى المكان مخبأ، ربما قادنا هذا لشيء ما .

وغمغم ممدوح وهو يتلفت فى المكان المزمع تدميره وقال :

-وأين تقترح أن نبدأ يا دكتور ؟.

-حجرة أم عماد بالطبع. لقد بدأ كل هذا بها منذ البداية.

وتحركوا نحو الحجرة ودلفوها. وأضاء عماد مصابيحها الكهربائية قبل أن يتوقف ثلاثتهم فى منتصفها. كان الفراش أمامهم وعلى يمينهم خزانة خشبية قديمة لها اربعة ابواب ترتفع عن الارض قليلا، وقد زينتها نقوش وزخارف فقدت الكثير من أجزائها، وعلى يسارهم كانت هناك أريكة للجلوس ..

وقال الدكتور محمد لهم :

-ابحث أنت يا ممدوح فى هذه الاريكه..اقلبها وابحث فى خشبها واخرج حشوتها لو احتجت. تأكد أنها لاتحوى أى شئ. وتول أنت ياعماد أمر الفراش وسأهتم أنا بالخزانة..

اتجه الى الخزانه. والتي كان سطحها مغطى بأكمله بالغبار الكثيف، وحين فتحها لاحظ خيوط العنكوب المنتشرة بين الملابس المكومة بلاترتيب بداخلها..بدا جليا أنها ظلت مغلقة هكذا لاعوام طوال دون أن يقربها أحد. بدا فى إخراج الملابس منها وراح يلقيها، فى أحد الاركان الفارغة. سيتفقدها لاحقا ربما إحتوت على ما يريب. أخرج كل شئ بالخزانة وراح يتامل الأرفف الخشبية الفارغة.كان الخشب قديما تآكلت بعض حوافه وإن ظل محتفظا بقوته..وبظهر يده راح يطرقه طرقات خفيفة بحثا عن فجوة ما قد تكون أسفله أو خزانة ما خفيه..

لكن الخشب كان مصمتا تماما ..فابتعد عنه وجلب كرسى خشبى موجود بجوار الاريكة وضعة بجوار الخزانة ثم صعد فوقه لتفتيش سطحها. كان هناك الكثير من الغبار والاتربة وبعض الملابس القديمة وكتابين قديمين. أمسكهما ومسح غلافهما المغبر وقرأ عناوينهما. الأول كان رواية قديمة لنجيب محفوظ بعنوان السكريه والكتاب الأخر كان غريبا . كان كتاب سحر يعوفه جيدا. تأمل غلافه الجلدى السميك وقرأ عنوانه "مرشد الإنسان الى رؤية الجان".

الكتاب قديم وطبعته الوحيدة قديمة تعود لعشرينات القرن الماضي .. قرأه من قبل بالطبع ويعلم انه ليس بالكتاب المفيد كثيرا .لكن لماذا إقتناه والدي عماد ومن فعل فيهما؟..ولماذ قد يرغبون فى رؤية الجان..أمسك الكتاب بكفه الايسر وبالأيمن راح يطرق سطح الخزانة بحثا عن شئ بداخلها..كان سطحها رقيقا وبدا انه لايحوى شئ ما .

أما ممدوح فلم يجد أى شئ بالأريكة وأخرج من جيبة مطواة صغيرة يحملها للدفاع عن نفسه لو هاجمه أحد، وقام بشق باطن حشية الأريكه وراح يبعثر القطن الخارج منها. وكانت الأريكة بريئة تماما مما نسب لها من شكوك فتوقف عن عمله، وهو ينظر اليها وعلى شفتيه إبتسامة رضا عن النفس..لقد أنهى عمله ..

بينما انهمك عماد فى تفتيش الفراش النحاسى العتيق. رفع مرتبته القطنية وفحص اسفلها. كان هناك الكثير من الاوراق المغلفة بأكياس بلاستيكيه على ارفف السرير

الخشبيه. فض الكيس الاول. لم يكن يحوى غير بعض فواتير الكهرباء والمياه. ابتسم بمرارة وهو يعيد تلك الاوراق لمكانها وقد تذكر كيف كانت امه حريصة على الإحتفاظ بتلك الفواتير. فتح كيسا ورديا آخرا ..وجد به بعد الوثائق والعقود. عقد إيجار البيت ووعقد زواج أخته وفى نهايته وجد عقد زواج أمه بأبيه. أعاد تلك الأوراق الاخرى كسابقتها ثم جذب الكيس الأخير وأخرج الأوراق التى به. فى البداية كانت شهادة وفاة أبيه. لم يرها من قبل. طالعها فعلم أن أباه كان فى الثانية والثلاثين من عمره حين مات. رأى سبب الوفاة فشعر بالذهول . كان سبب الوفاة: الإنتحار شنقا" ..

والده مات منتحرا !.. لم يعلم هذا من قبل أبدا..

لماذا إنتحر أباه ولماذا اخفت امه هذا عنه ؟. وباعياء ألقى الاوراق وهتف فى الدكتور محمد بصوت قريب من البكاء

-دكتور محمد هل يمكنك أن ترى هذا ؟..

9

وإلتقط الدكتور محمد الاوراق التى ناولها إياه عماد.. طالعها بسرعة، وأدرك لماذ إمتقع وجه عماد هكذا..

كانت باسم "سالم محمد سليم" وكان مدونا بها أن سبب الوفاة الانتحار شنقا.. ومما يراه مرتسما من ذهول ودهشة واستنكار على وجه عماد أدرك انه لم يكن يعلم شئ كهذا. إنها مفاجأة حزينة قاسية. وقلب الاوراق..الورقة التى تلتها كانت شهادة وفاة هى الأخرى. الاسم كان محمد سليم عبدالتواب . وكان قد مات فى عام 1957. ولدهشته لاحظ أنه قد مات فى الثانية والثلاثين من عمره هو الآخر. وحين انتقلت عيناه للخانة المدون فيها سبب الوفاة تضاعفت دهشته. كان قد مات بالحرق إنتحارا. ودون ان يعقب انتقل الى الورقة التالية. شهادة وفاة أخرى، أكثر قدما واصفرارا، كانت باسم سليم عبدالتواب المنياوي . لكن المخيف فيها إن المتوفى كان هو الآخر مات فى الثانية والثلاثين من عمره بالإنتحار غرقا.

انتهت شهادات الوفاة. إذا فوالد عماد وجده وجد والده ماتوا جميعا منتحرين. كما ماتوا جميعا فى الثانية والثلاتين من عمرهم. من المستحيل ان يكون كل هذا مصادفة

إنها لعنه بلا شك .. وتحول بصره الى عماد. مازال واجما في ذهوله..فقال بوهن وهو يحرك أصابعه وقد عادت تؤلمه:

-إذا فلم تكن تعلم !

-أخبرتنى أمى مراراً أنه مات فى حادثة سير ..الغريب أننى لم أسأل نفسي يوما لماذا ترفض اعطائى شهادة وفاة والدي، ولم اهتم بالأمر حينها.

مد الدكتور محمد يده الممسكة بالاوراق نحو عماد وأكمل :

-وحتما لم تكن تعلم أن أجدادك قد ماتوا بطريقة مماثلة فى نفس عمر ابيك.. لقد ماتوا جميعا في الثانية والثلاثين من عمرهم.

قرأ عماد شهادات الوفاة الثلاث بسرعة ثم رفع رأسه عن وجه أكثر إمتقاعا وقال غير مصدق لما قرأه:

-هذا مستحيل .. كلهم ماتوا انتحارا.. ما الذي يحدث بالضبط.

-كم عمرك ياعماد الأن؟..

-ساكمل الثانية والثلاثين بعد أسبوع من الأن .

- هذا يعنى أنه لم يعد امامنا الكثير من الوقت ..علينا أن نتحرك بسرعة .

-ماذا تقول يادكتور ؟..لست افهمك

-ما الذى لاتفهمه ياعماد ..إنها لعنة تسرى فى عائلتك يارجل ..لعنة سوداء رهيبة تجرى فى دمائك ودماء اجدادك وقد دفعتهم للإنتحار فى الثانية والثلاثين من عمرهم ..انت التالى يارجل بعد أسبوع من الان.. لقد حان دورك.. هل فهمت.

ارتجف عماد وتجمد فى مكانه برعب وذهول ..بينما رمقهممدوح فى خوف لكن الدكتور محمد هتف بهم لينتزعهم من جمودهم:

-بالله عليكما كفا عن هذا الفزع ودعونا نواصل عملنا ..هل وجدتم شيئا آخر؟

أجاب ممدوح وعماد بالنفي فتأمل الفراش وقال

-وماذا عن قوائم الفراش المعدنيه هل فتشتها؟

-كلا ..مالذى يمكنه ان يكون بداخلها ؟..

-الكثير يارجل ..إنها مجوفة من الداخل والكثيرون فيما مضى كانوا يخبئون أغراضهم الثمينة بها ..هيا إنزعها لنرى مابها.

تعاون عماد وممدوح على خلع القوائم النحاسية ..ووجدوا بداخل القائم الثانى لفافة صفراء مطوية بعناية، ومفتاحا نحاسيا ضخما به نقوش عجيبة..إلتقط الدكتور محمد تلك الاشياء وتفحص المفتاح ثم ناوله لعماد وأخبره ان يحتفظ به في جيبه، ثم تفحص الورقة التى لوثت بالدم وفتحها بحرص قبل ان يخرج دبوسا مطوى بداخلها وطالع ما بها من خطوط وطلاسم وقد أدرك كنه الان ما حدث. فتهالك على الكرسى الخشبى وقد شعر بالاعياء بغتة فراح يلهث. هدأ صدره بعدها فقال موجها كلامه لهما وهويلوح أمام بصرهما بالورقة الصفراء والضرس البشرى :

- إنها تلك التعويذة اللعينة منذ البداية..لقد فهمت لماذا اصابت اللعنة أمك فى البداية.

وتبادل ممدوح وعماد النظرات الحيرى ولم يعقبا وأكمل الدكتور حديثه:

-فى الغالب كانت هناك اللعنة التي أصابت اجدادك..كانوا يموتون انتحارا حين يبلغون الثانية والثلاثين من عمرهم. حتما أدرك احدهم مايواجهه، وراح يبحث عن حل يحميه ويحمى اسرته..لكنه كما يلوح لي أدرك صعوبة تغير مصيره فعمل على البحث عما يحمى به اسرته وابنائه من شر تلك اللعنة. ويبدو أنه صادف حينها ساحرا

حقيقيا من حسن حظه فصنع له هذه التعويذة . إنها تعويذة حمايه تبعد الشياطين والمردة عن الأسرة وتحميهم. تعويذة قوية لا لايبطلها إلا الدم..

واغمض عينيه وهو يرى بعين الخيال ما جرى، وغمغم:

-أستطيع الآن ان اتخيل ما حدث.لقد عثرت أمك على هذه التعويذة بطريقة ما. ورقة مطوية غريبة ومريبة داخل القائم. تمسكها لتفتحها ولا تعلم شيئا عن الدبوس المطوى بداخلها. إنه قواعد لعبة السحر. الحياة والموت معا. الخير والشر فى ورقة واحدة. التعويذه قوية تصلح للحماية وبداخلها مايفسدها. هنا يثقب الدبوس انامل والدتك. يدميها ويسيل منها الدم فتتشربة التعويذه بنهم ليبطل تأثيرها. وتنطلق شياطين الجحيم التى حجبتهم التعويذة عنكم للإنتقام فلاتجد غير امك فتتلبسها. كان من المفترض ألا يحدث هذا لولا انها قد عثرت على التعويذة وحاولت فتحها.إنه قدرها. قدرها وقدرك يا عماد.

بدت الدموع فى الانهمار من مقلتى عماد وقد تذكر أمه وعقله يتخيل ماحدث ..هل عانت امه طويلا من جراء لعنة لا شأن لها بها..لقد فقدت حياتها جراء ذنب لم ترتكبه أو حتى تعلم وجوده، كم هي مخيفة تلك اللعنة التى ذهبت بآبائه وأجداده وأمه وفى طريقها للفتك به واخته..اى لعنة سوداء هذه وأى شر يستتر خلفها ومن من أجداده قد اتى بها؟..

هنا كانت اخته على باب الحجرة تنظر إليهم، وهى تبتسم ابتسامة شيطانية، وقد عقدت ذراعيها على صدرها. إلتفتوا إليها بقلق، وغمغم ممدوح برعب ومثانته تتقلص أسفل بطنه توتراً:

-لقد استيقظت..ألم تحقنوها بمنوم

-لا شئ يوقفنا أيها الأحمق ..ألم تخبرهم بهذا يا دكتور محمد ؟..

-لا حاجة بى كى اخبرهم ..فها انت هنا لتخبرينا بنفسك عن قدراتك.

- هذه المرة نحن سعداء بلقاءك..وهل يمكننا ألا نفعل ونحن نراك تتحلل أمامنا هكذا. أنت تعانى وتحاول التماسك يارجل.لكن شيطان الجحيم كلها ترقص ابتهاجا لآلامك هذه. صدقنى لن يتخلف أحدنا عن لحظة مماتك يا دكتو ..ستزانا حتما وسترى كيف سنحتفل بك.

ابتسم الدكتور محمد بلا مبالاة، وقال ببساطة:

-من يدري،ربما شهدت انا نهايتك قبلها ،فحتى أموت لن أتوقف عن تتعبكم وإهلاككم.

أطلقت الشياطين من فم ابتسام ضحكة ساخرة صاخبة ارتجفت لها الجدران قبل أن تقول بسخرية:

-لن تعيش طويلا لتفهم من انا . ولو أدركت من نحن لعلمت انه لاقبل لك بنا . أعلم انك قد رسمت على كتفى عماد وذلك البدين تعويذة وطلسما لتحميهم من شرورى. لكن تاثيرها لن يدوم للأبد .

وتصلبت ملامحها وتحجرت عيناها وخرجت منها جملة واحدة :

-أخبره أن يحرر السيد أو يهلك كأبآه !

-ومن هو السيد وكيف نحرره

-عليه ان يعثر على الإجابات بنفسه ..عليه أن يعلم سر أجداده..عليه أن يعثر على كتاب الدم ..

وتأملها الجميع فى دهشة .. كتاب الدم؟!!!!

لم يسمع أيهم بشئ من هذا من قبل..حتى الدكتور محمد لا يعرفه .. وألقى الدكتور محمد عليها تساؤله:

-كتاب الدم..أى كتاب هذا؟

تجاهلت سؤاله وقالت لعماد بصوتها الغليظ الجديد:

-هناك مفاجأة تنتظرك بحجرتك يا عماد؟!. إذهب لتراها.

وتبادل الجميع النظرات وبدا القلق على وجه الدكتور محمد وقد توقع الكارثة المقبلين عليها حتى انه ردد فى اعماقه:

-ربنا يستر !!

اندفعوا نحو حجرة عماد.وكان أول ما صادفهم رائحة الدماء المعدنية المريعة..وحين أضاء عماد ضوءها، رأوا جميعا أبشع كوابيسهم حتى ان ممدوح لم يتمالك نفسه فسقط مغشى عليه..

فعلى الجدار وفي مواجهة الباب كان رأس سوسن المقطوع ملتصقا به وعلى وجهها حفرت أبشع آيات الفزع والألم. وعلى الجدار الاخر التصق جسدها عاريا تماما وقد إمتلأ عن آخره بطلاسم شيطانية حفرت فيه بالنار، وحول جسدها رسمت الدماء الرمز المخيف. ثعبان يصنع دائرة بجسده ورأسه منتصب وفي المنتصف جمجمة نارية بقرنين على جانبي الرأس ..

ومن خلف الجميع قالت الشيطان على لسان ابتسام:

-أتمنى ان تروقكم هديتى هذه

10

كان عليهم أن يتحركوا بسرعة. لو إكتشفت جريمة القتل هذه، فسينتهى كل شيء.. سيوف يقبض على عماد مرة آخرى، ومهما قدموا حينها من أدلة تنفي تورطه في الجريمة، فلن يصدقه أحد..إنها الجريمة الثانية التى تتم فى بيته بل وفى حجرته هذه المرة..حقنوا ابتسام جرعة آخرى من المخدر فهمدت حركتها وراحت في سبات عميق حملها ممدوح وهبط الى الشارع حيث ارقدها فى المقعد الخلفى لسيارة الدكتور محمد شاهين السوداء. بينما كان على عماد مهمة ثقيلة للغاية. عليه أن يأتي بالطفل من عند أم محسن. لايدرى كيف ستتلاقى العينان وهو يعلم أن جثة إبنتها التى كانت تملأ العالم صخبا وحياة قبل ساعات ترقد الأن داخل حجرتة وقد إنفصل رأسها عن

جسدها في ميتة بشعة..لكنه لم يكن ليترك الطفل خلفه أبداً وهو لا يدري ما هو مقدم عليه..وطرق الباب فخرجت اليه يسبقها عماد الصغير الذى ما أن رآه حتى أسرع نحوه ليحتضن ساقه في سعادة

رفعه عماد نحوه وقبله ودعته أم محسن للدخول ،لكنه إعتذر بلطف وهو يهم بالإنصراف كى لايطول حديثه معها وهو بالكاد يمسك نفسه..لكنها سألته السؤال الذى تمنى ألا يسمعه منها :

-هل رأيت سوسن اليوم ياعماد..لقد عدت ولم أجدها..هل قابلتك اليوم.

أجابها باقتضاب وهو يتحاشى عينيها:

-ربما ذهبت للقاء احدى صديقاتها.

ثم هرول مبتعدا بصورة أدهشتها . لكنها تناست على الفور أمره وهى تفكر فى ابنتها التي لا تعلم أين ذهبت وهي تتوعدها في أعماقها بالعقاب هذه المرة .

وفي السيارة قال الدكتور محمد لهم:

-سنبيت الليل فى عيادتى.. إنها فى مصر الجديدة. وفى الصباح سنتجة للبحث عن قرية "سفط اللبن " ربما وجدنا الإجابات هناك..

وفى الصباح عاد الدكتور محمد ليحقن ابتسام بحقنه أخرى مهدئة،قبل أن يتجهوا نحو محافظة القليوبية فى رحلة بحثهم عن القرية المطلوبة..تطلب الأمر بعض الاتصالات ليعلم الدكتور محمد مكان القرية تقريبا وراح يرشد ممدوح الذى يقود السيارة إلى مكان القرية..

و في الطريق إلى القريم صمت الجميع ولم يكف عقل عماد عن التفكير في حاله. يدرك أن أمره هذه المرة قد انتهى. إنه لم يقتل أمه في المرة الأولى. ومع هذا قضى سبع سنوات من عمره حبيس مستشفى الأمراض العقلية. هذه المرة لن يكون هناك مصحه عقليه. ولن يصدقه أحد أبدا لو ظل يصرخ طوال الوقت أنه لم يقتل سوسن. من سيصدقه لو اتهم الجان أو الشياطين بارتكاب الجريمة. لقد انتهى أمره بالفعل. بل

سينتهى الأمر قبل هذا بكثير. فلو كانت اللعنة صحيحة كما قال الدكتور محمد فسوف يقضى نحبه بعد أيام..

سوف ينتحر!!! لايدرى أي قوة تلك التي ستدفعه لقتل نفسه ليموت كافرا. لكن أباه وأجداده قد فعلوها من قبل ،فما الذى يمنع أن يفعل؟..

فكر فى نوع الانتحار الذى قد يقوم به..لقد مات جده الاكبر غرقا والثانى حرقا وأبوه شنقا..كل مرة تتغير الطريقة.فما الذى يخبئه هؤلاء السياطين له؟..

وارتجف جسده وهو يتخيل أن يقوم بذبح نفسه..أبشع ميتة تخيلها طوال عمره.. لا مهرب أمامه إلا أن ينهى اللعنة التى لايعرفها ولايدرى سببها ولا من بدأها؟..هل ينجح فى هذا؟..وهل يصل للحل في الوقت المناسب؟. كان يشك بقوة. فحتى لو أفلح الأمر وزالت اللعنة، فلن يجدى الأمر .. ستقبض عليه الشرطة ولو بعد حين وسيساق هذه المرة لحبل المشنقة.

لقد فقد طوق نجاته للأبد. لكن ماذا أخته وإبنها، عليه ألا يستسلم لمصيره المظلم هذا.وعليه أن يبحث عن أمل ما لهما .ووجد نفسه بدهشة يفكر فى فعل أشياء لايتخيلها. لقد انتهى أمره والإعدام مصيره هذه المرة بلاشك، فلماذا لايساعد من أحبهم؟.. لماذا لايتخلص من ابن زوج ابتسام الذى سرق مالها ومال ابنها وحرمهم من ميراثهم. لماذا لايقتل محمد عصام زوج منى حبيبته ليهبها حريتها.لماذا لا يقتل ذلك حكيم ،المرض السادي الذى تسبب فى اذلاله مع المرضى وقتل عم مدبولي.

انه رجل ميت!. فلماذا لايصرف كرجل ميت؟!. ماذا يخشاه كي لا يفعل؟

ووصلوا القرية.كان آذان الظهر يرتفع فى تلك اللحظة. طالبهم الدكتور محمد بالبقاء فى السيارة ذات الزجاج الفاميه الأسود والذى يحجبهم عن الخارج وخرج منها ليسأل أهل القريه. أوقف رجلا يرتدى جلبابا، وسأله مباشرة عن عائلة المنياوى. رفع الرجل رأسه نحو السماء وفكر للحظة قبل أن يخبره أنه لاتوجد عائلة فى القرية بأكملها بإسم المنياوى..

تركه ليجرب حظه مع آخر إختاره عجوزا هذه المرة. سأله عن عائلة المنياوى فرفع الرجل رأسه بتوتر ، وردد بدهشة وحذر:

-عائلة المنياوى. لم يعد بالبلدة أحد منهم منذ زمن بعيد. لماذا تسأل عنهم الآن؟

-أجمع بعض المعلومات عنهم، وقد علمت أنهم قد سكنوا البلدة من قبل؟.

وسعل العجوز وهو يعتدل في وقفته، ثم قال بشيء من الضيق:

-لن تجد الكثير هاهنا ممن يتذكرهم..لقد غادروا البلدة منذ زمن بعيد.. أنا نفسى لم أشهدهم.لكننى سمعت عنهم..لم يبق منهم بالقرية الا بيت كبير مهجور لم يعد أحد يقربه، يقولون أنه مسكون بالعفاريت..كلام يقال منذ دهور، ولايدري أحد إن كان صحيحا أم إنها اشاعات.

وبرقت عينا الدكتور محمد وهو يشعر أنه قد أقترب .إذا فقد كان هناك عائلة بالقرية تدعى المنياوى ومازال لهم بيت مهجور تحوم حوله الخرافات.. أيكون هذا البيت هو البداية؟. دارت هذه الأفكار في رأسه بسرعة. قبل أن يسأل العجوز بحماس:

-وما الذى تعرفه ياحاج عن عائلة المنياوى.

-لم أعد أتذكر !. ولا أريد أن أتذكر.

قالها الشيخ بحدة، وهو يشيح بكفه في الهواء، قبل أن يهم بالحركة مبتعدا..كان رد فعله هذا مفاجئة للدكتور محمد، لكنه تمالك نفسه وأسرع يسأله وهو يتحرك بجواره:

-إذا من يمكنه أن يدلنا ويخبرنا بعض الأشياء عن تلك العائلة؟. أعتذر لإلحاحي، لكن الامر هام وخطير.

-وما ادرانى ؟..لقد غادروا القرية منذ عهود بعيدة.. لقد كانوا ملعونين. لو كنت مصرا فاذهب إلى العمدة . سوف يخبرك بكل شيء.

عاد الدكتور محمد بحماس للسيارة وما أن دخلها حتى قال لهم باسما:

-يبدو أننا نقترب. لقد كانت هنا عائلة تدعى المنياوي رحلت منذ قرن عن المكان وقد دارت حولهم الإشاعات. سوف نذهب الآن لعمده القرية، ربما أخبرنا بالمزيد.

10

بعد دقائق بلغوا دوار العمدة. توقفت السيارة أمامه فى باحة واسعة، فترجلوا منها بعد أن قرروا ترك ابتسام فيها وعدم اصطحابها معهم، كى لاتثير الشكوك حولهم.

كان الدوار عتيقا قديما باعمدته الدائرية المرتفعة المطلية بلون ابيض ذهب الزمن ببريقه والحوائط التي زال عن اغلب سطحها طلائها، كان هناك من يجلس فى باحة البيت الأماميه.كان رجلا فى العقد السادس من عمره يرتدى جلبابا بلديا وقد غزا الصلع رأسه فلم يترك فيه إلابعض الشعير ات على جانبيه. ونهض الرجل حين رآهم وما أن افتربوا منه حتى صاح بهم مرحبا:

-أهلا وسهلا بكم. أنا الحاج محمود عبدربه عمدة القرية. أهلا بكم في منزلي المتواضع.

حياه الدكتور محمد وقدم له الجميع ثم قال:

-أعدك ألا نعطلك كثيرا.إنها بضع أسئلة فقط حول شأن ما، ثم نرحل على الفور.

-مرحبا بكم.

جلسوا قبل أن يلحق بهم من خارج البيت شابا فى مقتبل عمره وسيم المحيا، يبدو على وجهه الود والطيبة، يصحبه شيخ عجوز .. وقدمهما العمدة لهم قائلا:

-المهندس شريف..زوج إبنتى ..والحاج غنيم ..شيخ البلدة .

تبادلوا التحيات، وتكلم الدكتور محمد شاهين:

-اننا هنا لنسأل عن عائلة غادرت البلدة منذ عهد بعيد..لكننا نأمل أنكم مازلتم تذكرونها

ضيق الحاج محمود عينيه وقال:

أى عائلة تقصد يادكتور.

-إنها عائلة المنياوى .

بدا التوتر فجأة على وجه العمدة وشيخ البلد وهما يتبادلان النظرات المترقبة. بينما إنتبه شريف لهم وقد شاب وجهه هو الأخر بعض الإنفعال ، وقال الحاج غنيم:

-ولماذا تسألون عنهم؟..لقد تركوا البلد منذ عهد بعيد وقد نسيهم الجميع.

-حتما هناك سبب قوى يا حاج غنيم لسؤالنا..ألا تعتقد هذا؟

أجابه الدكتور محمد مبتسما ..فقال الحاج محمود له:

-بالطبع يادكتور ..بالطبع ..لاتؤاخدنا على دهشتنا من السؤال..فما تسألنا عنه شئ لا أحد يذكره الأن أو يحب حتى تذكره . لقد كانت عائلة المنياوى احدى عائلات القرية بالفعل . لم تكن كبيرة لأنها ليست من أهالى القرية فى الأساس بل نزح المنياوى الكبير للقرية تاركا الصعيد قبلها بعقود. وحين مات ترك سبعة أبناء كونوا عائلة المنياوى بالقرية ..

كان عماد يصغى لكل حرف باهتمام وهو ينتظر أن يعرف كل شئ عن تاريخ عائلته التى جهلها طوال عمره..بينما غمغم الدكتور محمد بحذر :

-وحتما غادروا القرية لأمر خطير قد حدث.

مرة آخرى تبادل الحاج محمود والحاج مدبولى النظرات التى تحمل الكثير وأجاب شريف هذه المرة باسما وعيناه من حين لآخر تتفحص عماد جلياً:

-هذا صحيح يا دكتور..لقد كانت هذه رغبة القرية أجمعها حينها.. فماجرى من أهوال فى القرية سببها أحد أفراد تلك العائلة أصاب الجميع فى القرية فى ذلك الوقت بالفزع والجنون. وكان أقل تلك الأفعال جنونا هو إجبار افراد العائلة على ترك القرية..ما يقال أن الكثيرون كادوا أن يفتكوا بكل فرد فى تلك العائلة ويقتلونهم شر قتلة. لكن

بعض الحكماء حالوا دون حدوث هذا فى الوقت المناسب. واكتفوا باخراجهم من القرية

خيم الصمت بعدها للحظة، قبل أن يسأله عماد بتوتر:

-معذرة يا أستاذ شريف. ولكن كيف عرفت هذا وقد مضى على الامر قرن كامل كما اخبرتمونا.

احتفظ شريف بابتسامته الودود وقال وهو يرمقه بنظرة نافذة:

-إنني أعيش في هذه القرية واعلم عنها الكثير بالطبع. لا أعتقد أن معرفتى بالأمر تستحق الكثير من الدهشة.

هنا تدخل الدكتور محمد فى الحديث قائلا:

-هذا صحيح يا بنى ..لكن ما تلك الأحداث التى حدثت بالقرية والتى أدت لطرد العائلة من القرية؟..

وقال الحاج محمود :

-أعتقد أنني خير من يقص عليكم ما حدث. لقد كان جدي الاكبر عمدة القرية حينها وأشرف حينها على التحقيق في الامر. وأخبر ابناءه وأحفاده بتفاصيل ما جرى، وقد علمت القصة من جد ي. لذا دعوني أخبركم بما أعرفه.

****

12

كان ذهول عبدالتواب في القطار لا حد له، وهو لا يدري هل مازال في منامه يحلم، أم أن من يجلس بجواره هو بغيته حقا.. أيكون ذلك الشاب العصري الذى يجلس بجواره الأن هو الشيخ الاسود حقا؟..

رمق هيئته وملابسه الإفرنجية التي لاتنتمي أبدا لعالم الشيوخ، ونظر بحيرة إلى بشرته البيضاء التي لايشوبها السواد. أيكون الشيخ الأسود ليس شيخا ولا أسودا؟!

تركه الشيخ الأسود قليلا لتأملاته ودهشته وهو يراقب حيرة عبدالتواب ونفسه ممزقة بين رغبته في التصديق، وخوفه من خداع قد يقع فريسة له، وما زال الشيخ عبدالله المنياوي يلاحقه حتما، ولن يعدم وسيلة يخدعه بها ليصل إليه.

وبعد حين يتحدث الشيخ الأسود ويقول هادئا:

-لست من أتباع الشيخ عبدالله المنياوي، لن نلتقي أنا وهو أبدا. إننا ضدان فاطمئن.



قل له عبدالتواب متشككاً:

-أراك صغيرا، ولا تبدو كالشيوخ.

-إنه لقب لا أكثر. كما أنني لست صغيرا كما تعتقد. يمكنني أن أبدو في عمر جدك لوشئت. ويمكنني ان أصيرا طفلا يحبو.

- أنت أيضا لست أسودا.

-وهل أخبرك أحد ما أن الشيخ الأسود زنجي مثلا؟..إن لوني لم يكن أبدا أسودا في يوم من الأيام..لكن ما أقوم به، يكون أحيانا أكثر سوادا من الظلام نفسه .

لم تكن تلك هي الإجابات التي ينتظرها، ظل قلبه يضطرب. تأكد أن الكتاب مازال مخفيا بين طيات ملابسه.. وقال بعدها بلوم:

-وأين كنت كل هذا؟. لقد بحثت عنك شهورا طوالا فلماذا لم أجدك؟. إن كل بقعة في ثرى هذا البلد شاهد على بحثي الذى لم ينقطع عنك.

-أنا من كان عليه أن يجدك، لا أنت.

-ولماذا لم تفعل؟.. ولماذا تركتني أبحث طوال الوقت ما دام عليك أن تعثر علي؟.

-كان عليك أن تبحث..كان عليك أن نرى مصابرتك، وتؤكد لنا اصرارك على الأمر..كان عليك أن تثبت أنك تستحق الجائزة الكبرى.

نظر عبدالتواب من نافذة القطار الى الموجودات التى تنسحب بسرعة البرق بجوار القطار .مازال لايصدق ولايدرى ماذا بعد. و ويقول له الشيخ الأسود دون أن يبتسم:

-أغمض عينيك .

يرمقه بدهشة لطلبه العجيب، ويضع كفه على الكتاب المتوارى في طيات ملابسة ويقبض عليه، وأمام النظرة الصارمة يغمض عينيه.

شعر بالسكون الذى يحيط به..تلاشت هزات القطار واختفت أصوت إحتكاك عجلاته بالقضبان، وصمتت الضوضاء. كل هذا تبدد فجأة ففتح عينيه. وبذهول نظر إلى المكان الذي انتقل إليه في لحظة واحدة. كان في حجرة بسيطة بها فراش وحيد صغير، ووسائد وبسط تنتشر على الأرض وفى منتصف الحجرة كانت هناك بلورة ضخمة وموقد يرتفع منه البخور والدخان..ومن خلف الموقد المشتعل رأى الشيخ الأسود وقد تبدل شكله. لم يعد شابا كما كان بالقطار، بل صار عجوزا بلحية بيضاء ناصعة من غير سوء. كان يرتدي جلبابا رمادى واسع الأكمام لكن عينيه النافذتين ظلتا كما هما. وشعر عبدالتواب بالرعب وتلفت حوله وهو يفكر هل تم إختطافه. وخاطبه الشيخ الاسود ولم يدعه لأفكاره:

-دع خوفك يا عبدالتواب واجلس. أنا بالفعل الشيخ الأسود ولست أخدعك. لقد بحثت عنا طويلا وبذلت فى طلبنا الجهد، فإستحققت أن نجدك لننهي ضلالك.

جلس عبدالتواب. وتصاعد البخور كثيفا وعاد الشيخ الأسود لحديثه وهو يمد يده نحوه:

-أعطنى الكتاب.

أخرج عبدالتواب الكتاب من طيات ملابسه بتردد قبل أن يسلمه إياه. وبيد متلهفة قبض الشيخ على الكتاب. يرمقه بعيون جاحظة، وأنفاس متلاحقة، كعشيق وجد معشوقته بعد فراق طويل. ثم راح ينشد ترانيم غامضة وقد برزت على الجدران من حوله عشرات الظلال، كشياطين أتت لتشهد مايدور..ومضى زمن ثقيل طويل، لم

يجسر فيه عبدالتواب على التفوه. وهو يراقب. ثم رفع الشيخ الأسود الكتاب وابتسم وهو يقول:

-مازلت لا تدرى ماذا تملك. ماذا تظن هذا الكتاب يا عبد التواب ؟.

-إنه كتاب سحر وتعاويذ وطلاسم.

-مخطئ أنت كالآخرين يا عبد التواب..كتب الدم لم تكن أبدا كتب سحر وشعوذة ،إنها حتى لا تحوي إلا تعويذة واحدة، إنها تلك التي جربتها..لابد أن تكون قد قمت بها وإلا ما كنت لتصل إلي، هل قدمت قربانا بشريا للكتاب؟

-قدمت قربانين، أفلح أولهما ولم أحظى من الثاني بشيء.

ابتسم الشيخ الأسود قبل أن يقول وهو يطعم وحش النار الراقدة أمامه المزيد من البخور فجاوبته النيران بالمزيد من الدخان والرائحة الذكية:

-وماذا كانت التعويذة الأولى.

-صرت قادرا على رؤية أهلي..

-لكنها لا تقوم بهذا فقط، لقد كانت ليراك سيد الظلام ويرشدك في مسعاك.

تذكر الشيخ الرحالة، هل يعنى بقوله هذا أن من زاره كان الشيطان نفسه، ارتجف جسده وبعد حين عاد ليسأل:

-إذاً ماذا يكون هذا الكتاب؟.. وما سره الذي أجهله؟

يتأمل الشيخ الأسود الكتاب الذي بين يديه مرة آخري ،ويتنهد طويلا قبل أن يقول:

- إنه كتاب العهود..ميثاق بين الكتاب وبين سادته من الشياطين وفى مقدمتهم أزوث المبجل. هذا الكتاب لم يكتبه بشرى، لقد كتبه سيد الظلام بنفسه منذ الأزل، إن من يحوزه ويعرف سره ويقوم بعهده يحوز على قوة الشياطين نفسها. لن تبيع روحك للشيطان ولن يكون ميثاقا مؤقتا بينك وبين الشيطان يعطيك فيه بعض النعم، قبل أن يأتى بعد حين ليطالبك بالثمن .هذا لن يحدث هنا. إن الميثاق دائم وسيظل قائما

بينك وبين أزوث وأعوانه طوال عمرك قبل أن يورث الميثاق لأبنائك واحفادك. ولن ينقض الميثاق إلا فقدناك للكتاب، أو عدم وفائك بالعهد .

-ومن يكون أزوث.

-سيد الكتاب وسيدك. إنه أحد الشياطين القدماء. أحد أتباع بعلزبول الاب المخلصين. إنه سلاحه البتار في وجه أعدائه. إنه من سيمنحك القوة.

وتمتلئ عينا عبدالتواب بجشع القوة، ويقول بصوت مفعم بالإثارة :

-وماذا على أن أقدم في مقابل كل هذا؟..ما الثمن الذى على أن أدفعه.

-ما قدمته من قبل. الطاعة والقرابين البشرية والدم. هذا ما يرضيه بشدة.

تواثب قلبه طربا، لايعنيه القرابين البشرية، ولا يهمه أن يقتل البشر أجمع، من أجل شهواته..لقد فعلها من قبل ،وسيفعلها مرارا لو تطلب الأمر..لو كان هذا هو ثمن القوة له ولأحفاده فسوف يفعله..وقال بصوت كالفحيح :

-وكيف يتم العهد؟..أخبرنى بما علي أن أفعله.

يبتسم الشيخ الأسود ويتمتم :

-أيعنى هذا أنك مستعد للوفاء به.

-وهل يمكن للمرء أن يرفض أمرا كهذا. إننى مستعد للقيام بما هو أكثر من هذا كى يتم الميثاق.

-إنها صفقة رابحة أيها الشاب لو شئت رأيي. قليلون من حظوا بتلك الفرصة عبر هذا الزمن الطويل وأنت آخرهم. إقترب منى وأعطنى كفك الأيسر وأغمض عينيك ولا تفتحهما أبدا حتى أنتهى.

مد عبدالتواب يده اليسرى له فتقبض عليها أصابع خشنة قوية، أغمض عينيه ودون أن يصدر الشيخ الأسود صوتا من فمه سمع عبدالتواب ورأى فى شئ أقرب للحلم ماعليه أن يفعله. رأى كل شيء وحفظ التعاويذ التى عليه أن يرددها، قبل أن يشعر

بالصمت والظلام مرة آخرى..هل إنتهى الشيخ الاسود. تذكر تحذيره ألا يفتح عينيه أبدا فنادى عليه بصوت خافت:

-هل انتهى الأمر.

لا إجابه. فتح عينيه ببطء ليعود الضياء وتعود الضوضاء. تلفت حوله بدهشة وقد أدرك أنه عاد للقطار مرة آخرى، لكن الشيخ الأسود لم يكن بجواره هذه المرة. كانت هناك إمرأة متشحة بالسواد يبدو عليها الهرم تجلس إلى جواره، وقد مال رأسها على صدرها نائمة. تحسس الكتاب بين ثنايا ملابسه فشعر بوجوده ففكر "هل كان ما رآه حلما؟. رفع كفه اليسرى وهنا تأكد أن ما رآه لم يكن حلما..لقد إلتقى بالشيخ حقا ..ولقد ترك له الشيخ تلك العلامة المحترقة بكف يده فوق إصبعه الأكبر ..

ثعبان ناري يلتف حول نفسه ورأسه مرتفع لأعلى، وفي منتصفه جمجمة يعلوها قرنان.

ولوقت طويل ظل يرمق هذا الرمز المنقوش على جلده ولا يصدق ما حدث.

****

13

دخل القريه مستترا بالظلام، وتوجه الى داره وقد أدرك مقصده وغايته ،سيقدم القرابين وسيقيم العهد مع (أزوث) ..رمق السماء فإلتمعت النجوم أمام بصره وبرقت كأنما تبارك مسعاه. تحرك في الشوارع الخالية وقد جاوز الوقت منتصف الليل ولاحظ بدهشة الذعر الذى يبدو على الكلاب الضالة حين يقترب منها. لماذا ترمقه بكل هذا الذعر ولماذا تفر هاربة من أمامه. هل شعرت هى الأخرى بخطره الأن، وهل أدركت بغريزتها القوة التى يحملها الأن بين جنباته..واصل طريقه وانتبه لقط أصابه الذعر حين إقترب منه، فتقوس ظهره وراح يطلق فى وجهه مواءا غامضا غريبا ثم فر من أمامه مبتعدا، بينما انحرف هو نحو الشارع الذى به بيته. ومن الوهلة الأولى

اضطرب قلبه وقد شعر بأنه ليس وحده الأن، لقد تعكر صفو وحدته. كان هناك من ينتظره. بل كان هناك الكثير ون منهم..

لا يراهم لكنه شعر بهم. نظر إلى شجرة التوت المقابلة داره ورأى بين الأغصان المتشابكة المظلمة العيون التى تبرق بلا ضوء ينعكس عليها .. عيون ينبعث بريقها من عالم غير عالمنا. ليست هذه عيون بشرية ولا حتى عيون حيوانات أو طيور يعرفها. هذه عيون لاتنتمى أبدا لعالم البشر. رمقها بوجل وتوقف على مقربة من داره وفكر في التراجع والهرب. لكن الى أين يذهب وكيف يمكنه الهرب من اشياء كهذه وقد رأته وحتما ستدركه لو حاول الابتعاد. علم انهم فى الغالب من اتباع الشيخ عبدالله. إنهم بلاشك بعض الجان من أعوانه ولابد أنهم هنا بانتظاره. تلفت حوله فى حيرة وعقله يفكر بلاتوقف عن حل ما وهو يخشى أن يفقد الكتاب الأن وقد شارف على بلوغ مأربه ومبتغاه ..

ثم تحرك بحذر وبطء نحو داره محاولا تجاهلهم. رأى القط المتصب فوق سور الدار وعيناه تتوهجان بلون أحمر مخيف. رفع رأسه نحو السقف فرأى الثعبان الذى يزحف على الجدار ورأسه يرمقه بثبات. اقترب من الدار فتتضاعفت العيون المتوهجة داخل اغصان الشجرة فجأة وكأنما يستدعى بعضها البعض فى انتظار المعركة التالية.. يتحسس الكتاب ثانية ملتمسا منه العون وهو يخترق الباب الخشبى الصغير الذى يحيط بحديقة داره. هنا تعالت همسات غريبة مخيفة وصفير حاد من كل مكان وتحرك القط نحوه. تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله بجنون وقد صار كالفأر الواقع فى مصيدة لافكاك منها. كان كل ما يهمه الأن ألا يفقد الكتاب..وبعيون مذعورة، يرى ما يحدث..

واستطال القط فجأة وتضخم جسده..وبرز من بين أغصان شجرة التوت عشرات الكيانات المخيفة. اهتز الأرض تحت قدميه مرتجفة هى الاخرى كأنما تشاركه ذعره. وفكر بالتراجع محاولا الهرب وهو يتلفت بذعر بحثا عن مهرب ما. لكن القط تحرك نحو الباب الذى دلفه منذ قليل ليسد عليه طريق الهرب. نظر الى السور المنخفض

الحجرى لكن كيانات لايدرك كنهها صارت تعلوه الأن. تحرك نحو باب الدار ليرى أن ذلك الثعبان قد صار أمامه وسد طريقه للأمام. . وتلتقط أذنه صوتا غير بشري من العدم:

-الثار من الإنسى.. الثار من من اللص القاتل..

تصاعد الذعر فى نفسه، وترنحت قدماه وهو يبحث بلاجدوى عن مخرج لمأزقه هذا. وبينما تقترب منه الكائنات المخيفة بثبات وعيونها تتوهج بغضب انكمش حول نفسه وقبض على كتابه بقوة وهو لا يصدق أن تنتهى رحلته الان بالفشل وهو على أبواب النجاح. هما بسط القط نحوه وقد تحول لهيئة بشرية يدا مخلبية، وهو يقول بصوت لم تنفرج شفتاه لتخرجه:

الكتاب أيها الإنسى ..أعطني كتاب الدم.

تشبث بكتابه بذعر وقد قرر أن يموت قبل أن يعطهم إياه . وهو يمد يده فى جيوبه كي يقبض على الكتاب. هنا تعثرت أنامله باللفافة التى أعطتها جواهر العرافة له فتذكرها..وبأمل جديد فى النجاة واصرار لاحد له أخرجها بسرعة وهو يصرخ فى وجوه الكائنات التى تقترب منه بشجاعة لا يعلم مصدرها:

-إبتعدوا عنى!! ..لن تحصلوا على الكتاب أبدا. ابتعدوا من هنا.

وبسرعة فض الخيط حول اللفافة وبعثر محتوياتها التى تشبه الغبار فى وجوه الجان من حوله. هنا تعالت الصرخات وحلت الفوضى. شاهد كيف تمزق جسد القط فجاة مخلفا خلفه خيطا من دخان تبدد فى نسيم الليل. وبينما حاول الثعبان الهرب اشتعلت النار بجسده فجأة، فراح يطلق صفيرا مخيفا قبل ان تهمد حركته ويتلاشى. أما تلك الكائنات التى إعتلت الشجرة فقد راحت تلاحقها كائنات اخرى مخيفة كالدخان ومن حين لاخر كان ضوء احمر كاللهب يتوهج فجأة ويتلاشى معه إحد الكائنات. كانت معركة لايعرف جنودها لكنها إنتهت بانتصاره.. لقد أنقذته جواهر

بسحرها كما وعدته. ثم دخل الدار المظلمة وأغلق الباب خلفه وقال محدثا ظلام البيت وسكونه:

-لقد عدت.

وأطلق ضحكة صاخبة.

****

14

كانت القرابين هى ما يحتاجه الأن وقد اعد العدة الان فى قبو داره. فخرج من بيته وهو يعرف مبتغاه. أسرة من أب وأم وطفل ورضيع. هذا قربانه الأول لاستدعاء شياطين الظلام ليقوموا هم بالباقى.

وكان هناك رجب. ذلك الغريب الفقير الذى اتى للقرية منذ اعوام فتزوج بها وسكن فى بيت طينى يشبة الكوخ على أطرافها. علم أن لديه طفل صغير وآخر رضيع. ولا صعوبة هناك فى ان يدعوه لداره بحجة اطعامه.. وتلقى رجب الدعوة بترحاب وسار وزوجته وطفليه خلف عبدالتواب. دخلوا البيت فأشار اليهم عبدالتواب بترحاب نحو الطعام المصفوف على الطاولة الخشبية. كان هناك الكثير من اللحم والدجاج الذى لايتذوقه رجب وأهله الا فى الأعياد والمناسبات .وأصر عبدالتواب أن يتناولوا منه كما يشاءون وهو يلح عليهم الايتركوا شيئا من الطعام. راح الأب يطعم الابن الذى يرتدى أسمالا مبقعة باليه بعض الدجاج وبيده الاخرى يقذف للزوجة البدينة قطعا من اللحم وهو يطالبها ان تاكل. لم يلحظوا العينين اللتين تراقبهم بنشوة وتبرقان كلما أكثرا من الطعام ..ولم يلتفوا للرائحة اللاذعة الغريبة التى يعبق بها الطعام. كان مخدرا قويا وكانوا ليتعرفونه لو لم يذهب الطعام بعقولهم.

وبعد قليل غلبهم النعاس للمرة الاخيره وظل الرضيع يقظا يصرخ. وحملهم عبدالتواب نحو القبو. كانت الشموع السوداء فى كل مكان ترسل لهبا وظلالا شيطانية. والطلاسم والدوائر والنجوم الخماسية تغمر كل شبر فى المكان. أخرج

الكتاب ووضعه فى منتصف نجمة خماسية تتوسط القبو وفى كل ذراع من اذرعها أشتعل شمعة سوداء مطلقة دخانا نافذ الرائحة.. وضع الاسرة كاملة داخل النجمة ثم رفع الرضيع الذى يصرخ بلا تردد فوق الكتاب وأغمض عينيه وهو يردد تعاويذ شيطانية لقنه إياه الشيخ الاسود. وحين انتهى ودون أن يبالى بالرضيع الذى يصرخ، هوى على عنقه بخنجر مطلسم. لم يصرخ الطفل وجسده الضئيل ينتفض فى يد عبدالتواب الذى برقت عيناه فى نشوة والدم الغزير ينهمر نحو الكتاب. وصرخ بجنون والكتاب يتشرب كل نقطة من الدماء كمصاص دماء نهم:

-أزوث ..أزوث ..حان وقتك سيدى فإنهض..أزوث المبجل. إن عبدك ينتظر!

ألقى جسد الطفل وقد فرغ جسده من الدماء واندفع نحو الاجساد الناعسة للأبد. وقام الخنجر بعمله فى الأعناق. وفاضت الدماء واختلطت بالتعاويذ الشيطانية وارتجف الجدران وهى تردد معه بلا إنقطاع من حناجر ظلال خفية:

أزوث ..أزوث ..أزوث.

ابتعد عن الاجساد المذبوحة المنتفضة فى احتاج صامت وراقب الشياطين التى ملأت المكان. رأى المارد الذى رآه من قبل وحوله الكثير ممن يشهونه تماما من المردة. وراح الكل يردد بلاتوقف فردد هو الآخر معهم فى نشوة:

-أزوث ..أزوث ..

تداخلت الظلال ولهب الشموع السوداء فى رقصة رعب مميتة وارتج الجدران حتى أوشك على السقوط قبل ان تنطلق الشياطين لتقوم بعملها.

وأمام الترعة تحركت صابحه ومفيده حاملتين جرار الماء الممتلئة عائدتين لبيتهما، وهما تطلقان ضحكات خافتة من حين لآخر. ويراقبان بلا مبالاة أشعة الفجر الأولى التى تولد فى الأفق. لكن أشعة الفجر الوليد أتت ومعها شيء. لم يلحظاه فى البداية لكنهما حين شعرا به فوقهما ارتجفا فسقطت الجرار الفخارية على الاض مهشمة وانسكب الماء منها ..وهما تصرخان صرخات توقظ الموتى وقبل أن يندفع نحوهما كائن

الغامض المخيف ذو أجنحة ضخمة ثم حملهما بمخالب قدميه وطار بهما مختفيا فى الفضاء والظلام.

ومن مكان خفى بين أعواد الذرة السامقة يبلل فرج نفسه رعبا، وهو يرتجف بذعر وقد رأى ما حدث قبل ان يهرول نحو القرية صارخا طلبا للنجدة ..

وفوق سطح بيت الحاج داؤد عبدالمؤمن وأمام الفرن الطينى جلست زوجته جمالات وهي تطرح أقراص العجين داخل الأتون الملتهب، ومن خلفها جلست أبنتها، تعد العجين وتشكله، قبل أن تناولها إياه، بينما راح ياسر الصغير يمرح على مقربة منهما ممتطيا عود ذرة جاف كأنه حصان. وبينما ترتفع الشمس في الأفق رويدا رويداء راح عامود الخبز هو الأخر يرتفع وعينا جمالات ترمقه برضا وهي تحث ابنتها على الاسراع. لكنها وحين تعود بعينها نحو الفرن وهى تهم بإلقاء قرص آخر من العجين داخله ترى الوجه النارى الذى يبرز من فتحة الأتون وهو يتجه نحوها.. تصرخ برعب وتجاوبها ابنتها في جنون لكن دخانا أسودا يحيط بهم فجأة للحظات قبل أن ينقشع بغتة والمكان خال منهم. هنا يبرز رأس الحاج داود وهو يصعد السطح ليرى لماذا تستغيث زوجته وابنته. وهو يحمل فى يده عصا غليظة ليدافع بها عنهما. لكنه لايرى الا الخبز الذى راح يحترق داخل الفرن وعامود الخبز الناضج وحلة العجين النصف ممتلئة ولا شئ آخر. ويصرخ وهو يكتشف ان زوجته وابنته وابنه قد إختفوا فجاة فيتجمع الجيران..

في نفس الوقت تحرك اسماعيل عبدالهادى فى الطريق الترابى وهو يفرك عينيه بكسل بكفة الخشن وهو يحمل على ذراعة الاخرى فأسه. بينما سار خلفه محمد رزق، وعبدالفتاح البسيوني، ورضا البسيونى تتبعهم جميعا مواشيهم وبعض الماعز التى تمرح حولهم. إنه الصباح حيث العمل مبكرا فى الأرض قبل صهد الظهيره. كانوا يسيرون بصمت قبل ان يروا ما يعترض طريقهم. كانوا ثلاثة مردة سود ضخام الجسد، يربوا الواحد منهم على المترين طولا وقد تسربلوا بالظلام . هل هؤلاء غيلان أم وحوش. فكروا جميعا وقد اضطرب الحيوانات وراحت تعدو الماعز هاربة. فكر

الاربعة فى الجري، لكن المردة كانوا اسرع واندفعوا نحوهم وبلغوهم في لمح البصر والتقط كل منهم أحدهمثم اختفى به وبصراخاته البائسة اليائسة. في جوف الأرض .لم ينجو إلا رضا الذي ظل يعدو ويصرخ حتى وصل الى القرية المذعورة، ليخبرهم بعقل ذهب به الذعر ما حدث..

وخلف احد الدور كان سلامه ينتظر جميلة. التي أتت إليه متدسرة بالظلام فضمها فى نشوة لترفع ثوبها لينال من جسدها المزيد .لكن عيون قطط نارية برزت بغته أمامها فارعبتها لتصرخ وهي تلقي ثوبها، وحين خرج سكان البيوت التي تحيطهم، لتتبع الصرخات الفزعة ونجدة أصحابها، شاهد الكل كيف اختفى سلامه وجميلة فجأة أمام بصرهم.

وفى مقابر القرية لم يكن هناك الا الشيخ عبدالواحد الحانوتى.. كما كان هناك الرعب والهول. راحت عشرات الأشباح تدور بلا إنقطاع حول القبور وصفير رفيع وصرخات مخيفة تدوي في باحات القبور، قبل أن يرى الشيخ عبدالواحد بعينيه ما يخرج من فتحات القبور المغلقة. أجساد ميتة بالية تتشح بأكفانها يعرف اصحابها وقد عادت لحركتها بعد سكون الموت، وظلال وكيانات شيطانية تدور حولها وهى تردد انشودتها الشيطانيه. كانوا خمسة موتى من احصاهم قبل أن ينكمش فى حجرته برعب ويغلق الباب والنافذة على نفسه، ولسانه لايكف عن قراءة القران. لقد اتت الساعة بلاشك وهاهم الموتى يخرجون من قبورهم ..

كانت القرية فى رعب والفجر لم يغادرها بعد والمشاعل فى كل ايد والخوف فى القلوب قد بلغ الحلقوم، ولا احد يدرى كيف صارت القرية مرتعا للشياطين فجأة. وبلا هدى راح الموكب الضخم من أهالي القرية الخائفين يتحرك فى الشوارع بحثا عمن فقدوا، والشائعات والاحاديث لاتنتهى وهم فى ضلالهم يعمهون ..

من يبدد حيرتهم ومن يفسر لهم ما خفى عنهم ومن يقودهم فى بحثهم؟. هذا ماراحوا يفكرون فيه حتى برز شيخ جليل اعترض موكبهم فجاة وأشار لهم أن يتوقفوا. أطاعوه بعجب وهم لايعرفونه فقال لهم بصوت غاضب:

-من اراد ان يعرف من أخرج الشياطين من جحيمها، ومن إختطف ابنائكم فليتبعنى.

صرخ صوت من بين الجموع :

-ومن أنت. وكيف تعرف من فعل كل هذا؟.

-أدعى الشيخ عبدالله المنياوى..لا أحد منكم قد سمع عني لكنى اعرف عدوكم واعلم لماذا فعل هذا. لكن لا وقت لهذا الجدال، ودعونا ننقذ الابناء قبل أن يتخلص منهم ويطلق شيطانه الاكبر .

ثم تحرك أمامهم فتبعونه وهم يرون بعجب كيف إتجه الى بيت عبدالتواب المنياوى قبل أن يشير اليه ويصيح فيهم :

-إنظروا ..هل ترون الشياطين ..هل ترونهم .

وراى الجميع الشياطين التى تحيط بالدار وتحوم حوله واضحة مع ضوء الصباح الاول .. كان منهم يخترق الجدران ومن يخرج منها، فتوقف الجمع فى رعب ولا أحد يدري ماذا يفعلون ..

وبالداخل كان القبو الأن يعج بالجنون، وقد حضرت شياطين الجحيم لتشهد ما يدور. إن فجر أزوث موشك على البزوغ ثانية. وكانت الرائحة لاتطاق.

اصطف جثث خمس فى قلب كل ذراع من أذرع النجمة الخماسية الكبرى. وفى النجمة الخامسية التى بداخلها خمسة أحياء مقيدون كل فى ذراع من أذرع النجمة يرقبون ما يدور حولهم فى فزع مميت وفى النجمة الخماسية الاخيرة خمسة احياء آخرين مقيدون أيضا، وفى منتصف كل هؤلاء يرقد الكتاب مفتوحا من منتصفه وتتراقص فوقه الظلال المخيفة..

كانت الطقوس الان قد إكتملت..خمسة موتى وعشرة احياء وردد عبدالتواب التعاويذ الشيطانية ترددها خلفه الشياطين في إيقاع مميت:

أزوث ..أزوث ..أزوث.

ثم اندفع نحو الاحياء وعمل خنجره المطلسم فى أعناقهم. ولم يبال بالنظرات المذعورة المستغيثة التي تسأله النجدة والرحمة. وانهمرت الدماء من اعناق عشر. واندفعت بقوي شيطانية نحو الكتاب الذي تشربها كاملة في نهم رهيب وراح عبدالتواب يردد :

-عد ثانية أزوث المبجل .. لقد قدمت قرابينك وذبحت عبيدك كي تبعث ثانية. إن عبدك الضعيف بانتظارك كي يتم العهد.

ومن بين صفحات الكتاب خرج الظل الرهيب الذى لم يجسر على التطلع اليه..

وفي الخارج لم يجسر احد على التقدم نحو البيت وهو يرى كل هؤلاء الشياطين. لكن الشيخ عبدالله لم يعبا بما يراه، وهو يردد عزائم مبهمة ويضم كفيه ثم يفتحهما ليقذف أشياء خفية في وجه الشياطين لتختفى على الفور. رأوه يتقدم داخل الدار فتشجع بعضهم وتبعه. سار نحو القبو مباشرة كأنما يعرف هدفه ثم فتح بابه. كان القبو الأن فى جنون وأزوث يقيم العهد في تلك اللحظة مع عبدالتواب. كان ماراه الجميع حينها كابوسا لا يحتمل ودون ان يشعر احدهم بنفسه ألقى بالمشعل الذى بيده نحو القبو. هنا جاء الجنون فالقى الجميع بمشاعلهم نحو القبو فى فزع. واشتعل غضب الشياطين فراحت تتخطف عشرات الارواح. بينما اشتعلت النيران فجأة فى جسد عبدالتواب وقد اصابته أحدى المشاعل. راح جسده يحترق وهو يتخبط ويمد يده نحو أزوث ملتمسا منه النجدة بينما تابع الشيطان ما يجرى بغضب لاحدود له. لقد هلك البشرى قبل ان يحوز هو على حريته كاملة. المشكله في هذا انه صار مقيدا بالجسد المحترق المتفحم وصار عليه ان ينتظر لاعوام لاحصر لها كى يتحرر من ربقة الجسد الميت المتفحم الجامد. عليه ان ينتظر اعواما لا حصر لها حتى يحرره أحد الأبناء والاحفاد. وزأر في غضب لا حد له. وردد الأتباع صرخاته

***

تفجرت الدهشة على وجوه الجميع مما يسمعونه، وتابع شريف هذه المرة، وهو يكمل مايرويه الحاج محمود عمدة القرية :

-لاتتخيلون أبدا ما أحدثه فى النفوس، إختطاف أهالى القرية بصورة شيطانية من هلع لاحد له. لا تسأل أحد حينها عن التعقل قبل الإقدام على رد فعل ما.. لذا وحين هاجم أهالي القرية بيت عبدالتواب قاموا باحراقه بلاتفكير. لكنهم لم يكتفوا بهذا بل هاجموا بيوت عائلة المنياوى الأخرى ولولا بعض التعقل لأهلكوا العائلة بأكملها..لكنهم إكتفوا ولحسن الحظ بطرد العائلة أجمعها من القرية فى ذلك الحين.

شعر عماد بالجزع وهو لايصدق أن أحد أجداده تسبب فى مايسمعه الأن من أهوال، ولولا ماجرى معه من غرائب لما صدق مايقال..بينما إنتبه الدكتور محمد شاهين الى أمر آخر ..الشيخ الذى قاد الجموع نحو دار عبدالتواب من أين أتى وكيف علم أن عبدالتواب هو المتسبب فى تلك الأهوال ،لذا قال متشككا:

-وماذا عن الشيخ الذى أرشد الجموع إلى عبدالتواب؟..لقد ذكرتم أنه كان غريبا عن القرية ولم يتعرفه أحد..ماذا حدث له بعد ذلك وهل تعرف أحد ما على هويته؟.

تبادل العمده والحاج مدبولى النظرات وصمت شريف،قبل أن يقول الحاج مدبولى :

-لا يعلم أحد عنه أي شيء ..لقد إختفى الرجل هو الآخر فور انتهاء الأمر ، أعتقد أنه ما من أحد اهتم في ذلك الوقت بالسؤال عنه،فالكل كان في ذهول مما جرى..وقد جرت الأحداث بسرعة مخيفة.

تذكر عماد البيت المتبقى كأثر وحيد من أسرته بالقرية، تمنى لو كان هذا البيت هو بيت جده وليس منزل أحدا آخرا غيره . ربما مازال محتفظا ببعض الإجابات عما جرى من قبل ،لذا قال بحذر:

-وماذا عن البيت المتبقى من تلك العائلة ،أمازال قائما أم تهدم؟. وهل سكنه أحد ما بعد ذلك .

هتف الحاج غنيم على الفور بجزع :

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..بالطبع لم يسكنه أحد، إنه بيت ملعون يا بني ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه.

انتبه الدكتور محمد لما يقال عن البيت الملعون! إنه بغيتهم بلا شك. وقبل أن يسألهم عن البيت عاد شريف ليتكلم :

-إنه منزل عبدالتواب نفسه وهو الشيء الوحيد المتبقى كأثر من آثار عائلة المنياوى كلها. وكما قال الحاج غنيم فبالبيت ملعون بحق.. فلا أحد يجسر على الإقتراب منه ومن فعل وجرب أن يدخله لم يعد أبدا ليخبرنا ما رآه بداخله. تكرر هذا الامر بضع مرات، فتعلم الجميع ألا يقربوا البيت . ليس هذا كل شيء، فهناك الاصوات المخيفة، والصرخات المفزعة التى تصدر من داخله من حين لآخر وهناك الاشباح التى تتراى من نوافذه فى بعض الليالى المظلمة. كل هذه أمور جعلت من البيت لعنة لا يقربها أحد.

وصمت للحظة وعيناه تنظر أثر كلماته على وجوه الجميع قبل أن تتوقف على وجه عماد المضطرب ،فأكمل دون أن يرفع عينيه عن وجه عماد :

-لقد حاول البعض احراق البيت بضع مرات. لكن لم يفلح أحد فى هذا أبدا. فالنار وبصورة عجيبة لاتنتشر أبدا فى جنبات البيت وكأنما هناك قوى خفية تطفئها على الفور وتمنعها من إلتهام البيت. شخصيا أعتقد أن هناك من يحرص على سلامة البيت والمحافظة على أسراره من المتطفلين .

كان هذا كافيا للدكتور محمد. هذا البيت هو مقصدهم حتما. فكر للحظة هل يسمح لهم البيت بدخلوه أم يمارس معهم ألاعيبه؟. لكن عماد بينهم. حتما لن يرفض البيت دخول عماد وهو سيده الحقيقي الأن .لو كان بالبيت أسرار فالبيت لن يفصح عنها إلا لعماد. لذا نهض قائلا :

-لا أدرى كيف أشكركم. لقد ساعدتمونا كثيرا. لكن تبقى مساعدة أخيرة نرجوها منكم. هل يخبرنا أحدكم أين يكون هذا البيت؟.

رمقه العمدة بإستنكار قبل أن يهتف :

-لا تخبرنى أنكم ترغب فى رؤيته أو دخوله ..أرجوا يا دكتور ألا تفكر فى هذا ..الأمر ليس مزحة ولم يدخل البيت أحد من قبل وعاد ..كلهم دخلوه ولم يغادوره قط

-يؤسفنى أن أخبرك أننا مضطرون لفعل هذا ..لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نقوم بهذا

-ولماذا عليكم أن تفعلوا أمرا كهذا؟ .. لا شيء أبدا قد يدفع المرء لأن يلقى بنفسه في التهلكة.

هنا قال عماد هذه المره لينهى هذا الجدل بشئ من التوتر والحدة:

-وهل هناك ما يمنعنا من أن ندخل البيت؟

رمقه الجميع بتعجب من حدته وتوتره وفكر الدكتور محمد فى قول شئ ما يخفف من وقع كلماته وخاصة ان الجميع يظهرون لهم ودا حقيقيا .لكن شريف قال بسرعة مجيبا ببساطة وعيناه مثبتته على وجهه:

-يمكنك أن تدخل البيت يا أستاذ عماد متى شئت مادمت ترغب فى هذا. البيت مهجور منذ قرن كامل، ولم يعد ملكا لأحد كى يمنعك، وطالما هذه رغبتكم فهذا شأنكم .

-إذا هل تخبرنا كيف نصل إلي البيت إذا ؟..

-سوف أقودكم بنفسى له لأثبت لك أنه لا أحد يعترض على هذا. لكنى لن أدخله معكم بالطبع ..

هنا قال الدكتور محمد شاهين بامتنان حقيقي:

-سيكون هذا كرما حقيقيا منك يا بني.

****

7

كان البيت كئيبا بحق..وحتى مع ضوء النهار الذى بدد الضلالات والأوهام بدا البيت مخيفا. يبعث فى النفوس احساسا مبهما بالانقباض وعدم الراحة.كلهم شعر بهذا حين لاح لأعينهم من بعيد وهم يتجهون إليه بوجوم. ومن خلفهم تبعتهم السيارة الجاجور السوداء الفخمه يقودها ممدوح ببطء. وهي تخفى جسد ابتسام التى مازالت فى غيبوتها فى جوفها وقد رقد بجوارها ابنها عماد نائما هو الآخر..

حمد الدكتور محمد. الله فى سره أن الوقت مازال نهارا. فلايدرى كيف يمكن ان يدخل بيتا كهذا فى ظلام الليل. ورغم أنه قد فعل هذا كثيرا من قبل مع عشرات المنازل المسكونة. لكن هذا البيت كان مختلفا. هناك شئ شيطانى يحيط البيت.أخفى مخاوفه فى أعماقه وسار ببطء مفكرا فى ما يمكن أن يجده بالداخل ..ووجد نفسه يتمني ألا يكون الموت بانتظارهم داخله

أما عماد فقد تباينت مشاعره التى تشتعل فى جوفه. شعر بالإثارة لأنه يعود لبيت تربى فيه أجداده. بيت لم يعرف ووجوده قبل الأن. لكنه يحمل بين جنباته مصيرا لايعرفه أعد له منذ دهور بعيدة. حدثته نفسه أنه يقترب من نهاية الحكاية والكابوس الذى عاشه لأعوام سبع ..ولاح لعقله إحساسا مبهما بأن هناك مفاجأة كبرى مازالت بانتظاره ..

وصلوا للسور الحجرى القصير الذى يحيط بالبيت وقد تهدم أغلبه فتوقف شريف وقال ومازال محتفظا بابتسامته الودودة على شفتيه:

-هنا تنتهى رحلتى أنا وتبدأ رحلتكم..لن أتقدم أكثر من هذا. كما أتمنى لو تفعلون مثلى وتقلعوا عما انتويتم فعله. وتعودون أدراجكم سالمين.

إلتفت إليه عماد ومد يده نحو مصافحا وغمغم بشرود والبيت عالق فى ذهنه:

-إننى أشكرك على كل ماقمت به من أجلنا يا شريف. أتمنى أن نلتقى ثانية لنتحدث مرة أخرى.

-هذا ما أتمناه وأدعو الله بِه. أتمنى أن اراكم ثانية بالفعل. سوف انتظركم هنا فربما، احتجتم لشئ ما.

اعترض الدكتور محمد على اقتراحه قائلا:

-لا داعى لهذا يابنى ..قد نتأخر بالداخل ولا نريد أن نعطلك أكثر من هذا.. إذهب لبيتك، وكفى ماقدمته لنا.

قالها ثم أردف فى أعماقه بقلق حقيقى بثه البيت فى نفسه:

-ما جدوى الانتظار وقد لانعود ثانية أبدا. فمن يدرى ما الذى ينتظرنا بالداخل.

هز شريف رأسه محييا قبل أن يتحرك ليتوقف تحت ظل شجرة التوت التى تنتصب فى مواجهة البيت مراقبا اياهم للحظات ..رأى ممدوح الذى غادر السيارة على عجل وهو يتقدم نحوهم لاهثا ليتبعهم..

توغل الثلاثة فى الحديقة الجرداء القاحلة ولاحظوا أكوام القمامة التي تنتشر فى جوانبها. اقتربوا من مدخل البيت ورأوا كيف صار تالفا بشدة وقد تحطمت نوافذه تماما وإختفى أغلبها مخلفة ورآها فجوات مظلمة تثير الكثير من الخيالات والهواجس.. كان السقف الخشبي متهدم فى غير موضع وعلى الجدارن ظلت آثار حريق ودخان أسود تشي بما جرى من أحداث مخيفة فى زمن بعيد مضى. تحركوا بحذر وصمت نحو باب البيت. كان مواربا .دفعه عماد بيده فتحرك للداخل مصدرا صريرا صاخبا مرعبا. تمنى حينها ممدوح لو كان قد انتظرهم بالسيارة .لماذا يندفع بحماقة فى كل مرة في ليقوم بأشياء لا قبل له بها. إن البيت مخيف كالحجيم ولايدرى لماذا يشعر أن هناك من ينتظرهم بالداخل. كم تمنى لو يفر من المكان كله، لكنه لم يجسر على البوح برغبته هذه لهم فاكتفى بالسير خلفهم واسنانه تصطك ببعضها فى خوف. وبداخل البيت كان آثر الحريق في كل مكان. كانت هناك قطع خشبية محروق واثاث محطم وستائر ممزقة واحجار متساقطة. كما بدت جدران البيت نفسه متداعية

توشك أن تنقض فوق رءسهم. إنها لمعجزة أن البيت لم يسقط حتى الأن ومازال قائما ..

وفى منتصف صالة البيت المظلم بالرغم من ضوء النهار المتسرب من مواضع شتى من الجدران،شاهدوا هيكلا عظميا ملقىً على الأرض ولا يغطيه إلا أسمال بالية مهترئة. توتروا جميعا وعيونهم تتسع وهى تحدق فيه بحذر وغمغم ممدوح بهلع، وقد جف حلقه:

-هل هذا هيكل بشرى حقيقي؟.

بدا السؤال غبيا لامعنى له فلم يهتم أيهما بإجابته وانحنى الدكتور محمد نحو الهيكل الذى بدا راقدا على وجهه. رفع أحد الذراعين العظمين فتفككت الأصابع والسلميات منه، ونظر الى حواف العظام فلاحظ أنها متآكلة بالية فى غير موضع ..أزاح الملابس البالية فتمزقت بين أصابعه بسهولة مخلفة وراها عظام نظيفة تماما بلا أنسجة يغلفها بعض الثرى ..هنا انتصب ثانية وهو يقول :

- لقد مات منذ زمن بعيد للغاية. العظام مفككة لايربطها شئ ما ببعضها البعض كما أن حوافها تالفة وبالية متحلله . إن عمر هذا الهيكل عشرات الأعوام كما أعتقد .

تأمل عماد الهيكل باضطراب وغمغم وهو يفكر فى صاحبه:

-أتعتقد أن هذا الهيكل العظمى هو ماتبقى من جدى؟..

-لا أظن أنه جدك. فعمره لن يصل أبدا لقرن كامل مع عوامل التعرية تلك التى تحلل جسده فيها. أعتقد أنه يخص أحد المتطفلين الذين قيل أنهم دخلوا البيت ولم يخرجوا منه ..يبدو أنه قضى نحبه هنا لسبب ما ولم يشعر به أحد ليهتم بدفنه.

-وما الذى قد يكون قد قتله؟

رمقه الدكتور محمد بعيون هادئة قبل أن يجيب ببساطة :

-لافكره لدي على الإطلاق ،العظام سليمة كما ترى لا أثر لكسور بها ..من الممكن أن تكون ميتة طبيعية ومن المحتمل أن يكون قد مات رعبا مثلا..أنت تفهم ما أقصده بالطبع.

فهم عماد مايقصده فصمت ،ثم تحركوا ثانية بين الأثاث المحطم والمتراكم بلا انتظام ودخلوا حجرات المنزل ليروا مافيها ..لم يعثروا الا على الاثاث المهشم والغبار واعشاش العناكب الكثيفه .. وفى المطبخ وجدوا هيكلا عظميا آخر..هيكل يرقد على ظهره وقد تبعثرت عظامه فى دائرة قطرها متر كامل .. وفى احدى حجرات النوم رقد على الفراش هيكل عظمى ثالث لجثة ثالثة ..

كلهم كانوا يشبهون الهيكل الأول وكلهم كان قديما يعود لسنوات بعيدة وكلهم يحمل معه أسرار غامضة مخيفة بلا أجابات..

لماذا مات هؤلاء؟..

فى النهاية لم يعثروا على شيء آخر ذا بال، فتوقفوا فى منتصف الصالة وعيونهم تدور فى المكان الموحش الرهيب وهتف عماد بحيرة محدثا الدكتور محمد الذى احتشد بعض العرق على جبهته وبدا مرهقا مريضا فى هذه اللحظة:

-والأن ماذا تقترح أن نفعل؟..لاشيء في البيت ملفت غير الجثث الثلاث.

-علينا أن نعثر على القبو ..لقد حدث كل شئ به كما أخبرنا عمدة القرية ،ولهذا أتوقع أن نعثر على الإجابات به.

-لكننى لا أجد أثرا له حولى. أين تعتقد أنه موجود.

تحول بصر الدكتور محمد الى ركن مغطى بالاحجار والاثاث المهشم والتراب فاشار اليه باصبعه قائلا:

-أعتقد أن علينا أن نزيل الاحجار تلك لنرى ماتخفيه خلفها.

نظر ممدوح وعماد الى كومة الاحجار التى أشار اليها وتمتم ممدوح بحيرة:

-وهل تعتقد أن القبو مخفي خلفها؟.

-أعتقد أن علينا الانضيع المزيد من الوقت فى طرح الاسئلة التى لامعنى لها وأن نبدأ العمل على الفور فى ازاحة تلك الاحجار ..لقد اقترب الظلام ولا أحب أن ابقى داخل هذا البيت حين يغيب الضوء.

تحركا على الفور وبدءا فى إزاحة الأحجار والاثاث القديم جانبا بينما جلس الدكتور محمد ليستريح على مقعد خشبى بلا حشية. عربد الألم فى جسده كوحش برى ينهش فى أوصاله بنهم، وراح بصعوبة يغالب دوارا عنيفا يجتاح عقله. أدرك الأن أنه بالفعل لم يعد قادرا على تحمل الإثارة كما قالت مديرة منزله وداد حين إعترضت على رغبته فى الإشتراك بالامر..كان عليه أن يستمع إلىها ليتجنب تلك الألآم التى يقاسيها الأن. مضى الوقت بطئيا وعماد وممدوح يعملان بهمة فى ازاحة الاحجار وغمر المكان الكثير من الغبار قبل أن يهتف ممدوح بحماس وهو يشير لشئ مخفى خلف الغبار الذى غمر الناحية كلها:

-رباه.. هناك باب بالفعل يارجال. هل تراه ياعماد ..إنظر هناك. إن الغبار يخفيه .

بالفعل رأى عماد الباب المخفي، فزاد من نشاطة هو الآخر،وبعد قليل كانوا قد صنعوا فجوة سمحت لهم بالوصول للباب الخشبى ذو الطلاء المتآكل. دفعه عماد بذراعه للداخل فلم يستجب له. تقدم نحوه ممدوح ليساعده وراح يدفع الباب معه بكل قوته فقاومهما الباب قليلا قبل أن يستسلم أمامهما ويبدأ فى التحرك وينزاح للداخل رويدا رويدا.

وحمل اليهم الباب من داخل القبو رائحة عفنة، أشد شناعة من رائحة القبور. كانت رائحة عضوية قوية تقلصت أحشاء الثلاثة لها، وقد شعروا بغثيان شديد ورغبة فى القئ جاهدوها بصعوبة. إنتظروا حتى خفتت حدة الرائحة قليلا ثم دلفوا القبو المظلم. اضاء عماد ضوء الكشاف الذى جلبه معه وتقدمهم، ثم تبعه الدكتور محمد وممدوح الذى غطى أنفه بمنديل قماشي ليجنبه الرائحة الخانقه. هبطوا الدرجات الحجرية التى انتهت الى أرض فسيحة، وراح ضوء المصباح يظهر محتواها الرهيب.

طالعتهم الأجساد الهامدة المتحللة التى بلا رؤس وقد تكومت فى رأحد الأركان الجماجم المقطوعه فى مشهد رهيب. وامتلات الارض والجدران بالكثير من النقوش والنجوم الخماسية والطلاسم التى أدرك الدكتور محمد من اللحظة الأولى أنها طلاسم حقيقية للسحر الأسود. لقد مورس فى هذا المكان سحر شيطانى رهيب.. لم يرى من قبل طقوسا دموية كهذه .كما يدرك من خبرته أن الغاية من ممارستها فى الغالب قد تكون استحضار الشيطان نفسه.

لم يكن ضوء المصباح كافيا ليبدد الظلام الدامس فأشار الى مشاعل خشبية معلقة على الجدران وهتف فى عماد وهو يناوله علبة ثقاب أخرجها من جيبه :

-حاول أن تشعل تلك المشاعل يا عماد ..

قرب عماد السنة اللهب الصغيره من المشاكل فاشتعلت على الفور .. كان عددها على الجدران خمس ككل شئ آخر فى المكان.. انارت المشاعل القبو كله، وعلى ضوء اللهب بدا المكان رهيبا بشدة .. رأوا كيف اصطفت الجثث المقطوعة الرؤس بانتظام داخل اذرع النجمات الخماسية المتداخله.. وشاهدوا فى أحد الاركان الجسد البشري المنتصب والذي تفحم تماما وقد بسط في الفراغ ذراعاً عظمية. تبادل الجميع النظرات المرتجفة وهم يرمقون الوجة المسود الذي ذابت ملامحه، وهز الدكتور محمد رأسه ببطء وهو يلاحظ نظرات عماد المتساءلة وقال بإقتضاب:

-أعتقد أنه جدك.

أطال عماد النظر الى الجسد المتفحم ومشاعر شتى تتنازعه..ميتة بشعة تلك التى نالها الرجل. لكنه وأمام مايراه حوله من أهوال لم يشعر بالشفقة نحوه، إنه يستحق ماحدث له بلا ريب، لو كان هو من فعل تلك الممارسات البشعة.

تحرك الدكتور محمد نحو احد الجثث التى غطت منتصف النجمة الداخلية وقد لمح شيئا يبرز من أسفلها أسفلها. حرك الجثة التى تحولت لمومياء جافة الأن،فرأى الكتاب المغطى بالغبار أسفلها. رمق النقوش الغريبة التى حفرت على غلافه الجلدى

للحظة. ومد ذراعه بعدها ليرفعه من على الأرض.. لكنه وقبل أن تلمس كفه الممتدة الكتاب، سمع ذلك الصوت من خلفه والذى هتف به محذرا :

-حذار أن تفعل يا دكتور ..لو لمسته سأقتلك على الفور .

انتفض الثلاثة فجأة فزعا والتفتوا بحدة نحو مصدر ذلك الصوت، وعلى ضوء المشاعل رأوا المشهد المخيف الغريب ..

شريف واقف على الدرج الحجرى خلف باب القبو ينظر اليهم بصرامة وحزم وفى يده مسدس صغير يصوبه اليهم. ومن نظرات عينيه أدركوا أنه لايمزح أبدا فى تهديده.

****

15

طال الصمت والترقب لوقت طويل وهم يتبادلون النظرات المذهولة مع شريف الذي ظل بمكانه ينظر إليهم بحذر ومسدسه بيده متحفزا لأي شيئ طارئ، فى النهاية هتف عماد بحده واستنكار:

-ماهذا الذى تفعله يا شريف؟. ولماذا تهددنا بهذا المسدس؟.

-أصحح خطأ فعله جدك منذ أكثر من قرن. إن عبدالتواب المنياوى هو جدك يا عماد. أليس كذلك؟

رمقه عماد بدهشة متساءلا كيف عرف بينما قال الدكتور محمد بهدوء وقد رسم على شفتيه ابتسامة غريبة:

-إنه حفيده بالفعل. ولايدهشنى أبدا أنك أدركت هذا. لكن الفضول ينهشني لأعلم من أنت؟. وما الذي مازلت تخفيه فى جعبتك.

رمقه شريف بحزم وقد اضطرب وجهه من تلك الابتسامة التى يراها على وجه الدكتور محمد ثم قال:

-إننى حفيد رجل آخر ..رجل خانه هذا الرجل المتفحم منذ قرن وسرق من بيته شيئا خطيرا للغاية .

-لنقل أنك حفيد ذلك الرجل الذى أرشد القرية فيما مضى لهذا البيت. أليس كذلك؟..

تحرك شريف نحوهم بحذر وهو يشير إليهم بالمسدس أن يتجمعوا سويا ويتراجعوا نحو احد الأركان ثم اتجه مباشرة نحو الكتاب دون ان تفارقهم عيناه وانحنى نحوه وحمله بيده الحرة وهو يقول:

-هذا هو كتاب الدم يا دكتور . أعلم أنك لم تسمع به من قبل لا انت ولا غيرك. إنه أحد الأسرار التي لا ينبغي أن يعلمها احد. لقد كان إرثا، عُهد به إلى اجدادى منذ الأزل للحفاظ عليه وإخفائه عن الأعين. ولقد نجح أجدادى فى هذا حتى جاء جد عماد إلى جدى الشيخ عبدالله المنياوى. لا أدرى كيف خدعه حينها، لكنه فى النهاية سرق الكتاب وهرب به ليتسبب فى كل هذه المجازر الوحشية التى ترون آثارها حولكم.

شعر الدكتور محمد بالحيرة الشديدة لأنه لم يسمع عن هذا الكتاب من قبل أبدا. رغم أنه يعلم كل كتب السحر والخوارق والجان التى خطها البشر. هنا قال بفضول وعيناه معلقة بالكتاب الذى يحمله شريف ويقبض عليه بقوة:

-وماذا يكون هذا الكتاب. هل يكون كتاب سحر أم هو من اجل استحضار الشياطين والجان .

نظر اليه شريف بحيرة وظهر التردد على وجه للحظة وهو يفكر. هل يخبره بسر الكتاب ام يصمت ..فى النهاية قرر التحدث :

-إنه كتاب ازوث يا دكتور. هل سمعت به من قبل .

لكن الدكتور محمد أجابه هذه المرة مبتسما:

-سيدهشك أننى اعلم أزوث هذا. إنه أحد الشياطين القديمه. أحد أعوان ابليس نفسه واحد امراء الشياطين العظام. ربما لم أسمع عن كتاب الدم من قبل. لكننى قرأت مرارا عن أزوث. شيطان النار والحرب..

-يدهشى بالفعل أنك تعلم بشأنه يا دكتور. أجل. إن أزوث هو شيطان النار والحرب..الشيطان الذى كاد ان يحترق ويُقتل فى احد المعارك القديمة فصنع إبليس من أجله هذا الكتاب وزوده بالطلاسم التى تحمى أزوث وأعوانه من التلاشى. ان كل قوى ازوث وأعوانه صارت حبيسة هذا الكتاب. إنها قوى مخيفة لاقبل لأحد بها أبدا. قوي خطيرة بالغاية فى انتظار من ياتى ليحررها.

-وقد حاول جد عماد تحريرها كما اعتقد .

-للاسف هذا ماحدث ..لقد كان الكتاب كما اخبرتك بحوزة اجدادى دوما بعد ان إنتهى إلى يد ساحر غجرى يمارس السحر الأسود كان قد عثر عليه فى احد المغارات. حدث هذا فى العصر الأيوبى. ولقد نجح أحد أسلافي فى الظفر بالكتاب منه وقد ادرك خطره فزوده بالطلاسم التى تحميه وتخفيه عن اعين الشياطين كى لاتصل اليه أبدا حتى إنتهى الى جدى عبدالله لياتى عبدالتواب المتفحم امامكم، ليسرقه من جدى .

إنكمش ممدوح حول نفسه فى رعب وقد التصق بالجدار وهو لايعنيه مايدور الان بينهم..لقد فهم ان شريف يريد الكتاب وهاهو قد حصل عليه. ليرحل إذا عنهم وليذهب بالكتاب الى الجحيم فهذا لايعنيه. أما عماد فراح يتابع مايقوله شريف عن الكتاب وعن جده وهو يحاول ان يدرك الرابط بين ماحدث فى الماضى ومع حدث مع امه وأخته وما شأنه به. وفى النهاية قال بوهن

-هل تعلم ياشريف أن ابى وجدى وجد أبى قد ماتوا جميعا فى الثانية والثلاثين من عمرهم ..هل تعلم ان أمى قد اصابها استحواذ شيطانى قتلها فى النهايه، ولاشك انك لاتعلم ان اختى الوحيده قد أصابها بالامس نفس الاستحواذ الشيطانى اللعين. هل تعلم لماذا حدث كل هذا؟.

تراجع شريف للخلف قليلا بظهره قبل ان يقول :

-اعتقد أن اعوان أزوث هم من فعل هذا. ذنب آخر من ذنوب جدك الكثيرة..لقد ظن انه يجلب القوة له ولذريته فاذا به يحمل الموت والهلاك لهم. لقد حرر جدك ازوث من الكتاب واعوانه.لكنه مات قبل ان يتم العهد معه. إن أزوث رغم قواه الرهيبه لايمكنه العودة لهذا العالم الا من خلال بشرى يقيم العهد مع الكتاب، ويورث العهد لذريته من بعده. لقد مات جدك قبل ان يفعل فصار ازوث حبيس الجسد المتفحم فى انتظار ان ياتى احد من ذريته ليحرره ثانية. لابد ان اعوانه قد وصولوا الى اجدادك وأهلك ولابد انهم طالبوهم بتحرير سيدهم ولما لم يفعلوا لجهلهم بالأمر قتلوهم .

نظر عماد نحو جده المنتصب متفحما وهو يحس بغضب ومقت لا حد له . إذا فهو من تسبب فى كل هذا. لقد كان جده لعنة بحق على اسرته. ليته لم ينتمى لهذا الجد..بل ليته مات قبل ان يشهد كل هذا .

وسمع الدكتور محمد يقول لشريف :

-لكن اليس غريبا ان تعلم مكان الكتاب ولاتاتى للحصول عليه ..ألم تخشى ان يعثر على الكتاب احد ما مصادفة وقد يقيم حينها العهد مع ذلك الشيطان كما تقول .

ابتسم شريف وهو يجيب:

-لم يكن ممكنا ان أقترب انا او غيرى من البيت وقد تحررت اعوان ازوث وراحت تحميه. إنهم اقوياء يا دكتور كما اخبرتك ولاقبل لى أو بغيرى بهم. لقد قتلوا كل من سولت له نفسه دخول البيت..أعتقد أنك قد رأيت الهياكل العظمية لبعض هؤلاء بالخارج.

-ولماذا لم يفعلوا معنا هذا الآن؟..

-لان عماد بينكم. ظننت هذا واضحا. إنهم بانتظاره منذ قرن وهاهو قد اتى ،فلا مجال إذا للتعرض لكم..

هز الدكتور محمد رأسه متفهما وقال ببطء:

-إذا لم يكن الشياطين فقط هم من ينتظر عماد او أحد آباءه . لقد كنت واجدادك ايضا فى انتظار ان ياتى احدهم لتظفروا بالكتاب منه. ولقد كنت انت سعيد الحظ الذى شهد هذا واستعاد الكتاب ثانية .

-هذا تحليل دقيق للغاية. أنت مصيب.

هنا تقدم ممدوح بعصبية وقد شعر بأعصابه تتوتر بشدة وقال:

-وهاقد حصلت على الكتاب ..هلا غادرت المكان وتركتنا نغادره نحن أيضا.

إبتسم شريف هذه المرة بمرارة وهويرقب ممدوح الذى يقترب منه وقال:

-للأسف هذا غير ممكن الان..لاينبغى ان يعلم بالكتاب اى احد، ولهذا فأنا مضطر فى هذه اللحظة للتخلص منكم جميعا قبل ان اختفى بالكتاب ثانية.

هنا قال الدكتور محمد ببطء وقد ايقن ان شريف لايمزح فيما قاله:

-حتما لن تفعل يا شريف. لامبرر أبدا لجريمة جديدة. خذ الكتاب واذهب به حيث شئت و نعدك أن نلتزم الصمت.

نظر نحوه شريف ليعقب وفى اللحظة التالية حدث مالم يتوقعه احد ..كان ممدوح قد فقد كل تعقله فى هذا الوقت وقد ايقن هو الاخر بهلاكه..لم يكن يرغب حتما فى الموت لذا قرر ان يجازف ويفعل محاولة ما وحين التفت شريف نحو الدكتور محمد وهو يحدثه، أندفع نحوه مرة واحدة محاولا القبض على يده التى تصوب المسدس نحوهم. لكن شريف إنتبه إليه فى اللحظة الاخيرة وتراجع للخلف بسرعة بسرعة قبل ان يطلق نحوه رصاصة استقرت فى صدره..

صرخ عماد وهو يندفع نحو صديقه الذى تكوم على الأرض محتضرا وجسده ينتفض بشدة، وخيط من الدماء يتسلل من جانب فمه للخارج. وإنحنى نحوه الدكتور محمد هو الآخر بأسى وقد أيقن ان إصابته مميتة. وقال شريف باسف حقيقى:

-أرجوا ألا تحقدوا علي. كنت مضطر لهذا. إنه ذنب جدك ياعماد فى النهاية، وهو من تسبب فى تلك الفوضى. إنه من يستحق حنقى وحنقكم جميعا. والان من فضلك أغمضوا اعينكم واستعدوا للموت. لا أحب أن أطلق رصاصي نحوكم وانتم تنظرون إلي.

لم يفعل الإثنان وارتفعت اعينهم نحوه فى حقد وتحد وتحرك إصبعه نحو الزناد وضغطه بلاتردد .

***

16

لم تنطلق الرصاصة حين ضغط شريف الزناد. بل ولم يتحرك الزناد من مكانه. وقبل ان يفكر شريف ويبحث عن تفسير ما لما حدث سمع تلك الضحكة الصاخبة التى اتت من خلفه. التفت على الفور ليرى ابتسام الذى لم يرها من قبل. كانت تتقدم نحوه وعلى وجهها تلك الابتسامة الساخرة وفى يدها سار عماد الصغير بخطوات آليه كأنما يحركه شئ ما.

وهتف عماد بقلق وقد خشى ان يطلق شريف عليها نار مسدسه:

-إحذرى يا ابتسام. إبتعدي بالطفل فقد يؤذيك.

لكنها واصلت التقدم نحو شريف الذى تراجع امامها فى خوف حقيقى وهو يحاول بلاجدوى الضغط على الزناد الذى تحجر فى مكانه وأبى ان يستجيب له ..فى النهاية اصطدم ظهره بالحائط ومازالت يده تحاول بلا جدوى اطلاق الرصاص نحو ابتسام التى تتقدم نحوه، ويده الاخرى تقبض على كتاب الدم بقوة .

وصلت إليه ومدت أصابعها نحوه . هنا صرخ بألم رهيب وهو يلحظ القوة الخارقة الخفية التى احاطت بمعصمه فحررت الكتاب من يده ليطير فى الهواء نحو عماد الذى تلقفه بدهشة، وفى نفس الوقت سقط المسدس من اليد الاخرى التى تقبض عليه ودوى معه صوت شنيع لعظام يده التي هشمتها قوى خفية فراح يصرخ.

هنا راحت عشرات الظلال تتحرك في الحائط وراحت الهمسات تدوى في المكان من كل مكان، وقالت الشياطين بصوت غليظ خرج من فم ابتسام وهى تنظر الى عماد ..

-حان الوقت لتحرر أزوث. أطلق سراح السيد. إنه بانتظارك. حرر أزوث أيها البشري.

راقب الدكتور محمد الذى مازال منحنيا حول جسد ممدوح المحتضر، بتوتر عماد الذى تجمد فجأة وهو ينظر للكتاب..وشعر بالصراع الخفي الذي يدور في عقل عماد في هذه اللحظة. هل يتلقى اتصالا ما من قوى خفية في هذه اللحظة.

الحقيقة أنه كان محقا في اعتقاده..ففى تلك اللحظة كان عماد مع جده ..كانا في مكان آخر وزمن اخر إنتقل اليه بعقله، وراح جده يحدثه بحماس عن كتاب الدم. حدثه عن اسراره. حدثه عن القوة التى تنتظره لو حرر سيده. وذكره بما ينتظره لو لم يفعل. سيقتله أعوان ازوث كما فعلوا مع ابوه واجداده. وإن لم يفعلوا فهناك جثة سوسن التى ستعثر عليها الشرطة حتما وسيتهمونه بقتلها وقد يعدم من اجل هذا. رأى عماد منى ورأي زوجها الذى أذلها طويلا. رأى المرض حكيم وتداعت لذاكرته مافعله معه ومع الآخرين. ثم رأى اخته الذى ظلمها ابن زوجها وحرمها من حقها وأموالها. هنا كره ضعفه الذى منعه من الأخذ بثاره ممن ظلمه وظلم احباءه من قبل .. إنه لايرغب في الموت كما لايرغب في ان يظل ضعيفا. وحين افاق كان يدرك ما عليه ان يفعله..

رآة الدكتور محمد يتحرك بثبات نحو منتصف النجمة الخماسية التى تتوسط المكان وفى يده الكتاب فأدرك ما ينتويه. نهض على الفور وتحرك نحوه وهو يهتف محذرا:

-إياك ان تفعل يا عماد ..لا تقدم على أي حماقة الآن .

لكن قوى خفيه أوقفته بغتة ورفعت جسده في الهواء ثم دفعته نحو الجدار المقابل للجدار المثبت به شريف، الذى مازال يصرخ برعب وألم. شعر الدكتور محمد بالقيود الخفية التى تقيده للجدار، فتضاعف الألم فى جسده ولم يعد قادرا على الكلام ..

وفى منتصف النجمة الخماسية توقف عماد ورفع عنقه لأعلى ثم رفع الكتاب عاليا في الفراغ، وهتف بصوت غريب :

ANTIQUUM JUS DEMONES INFERNI

OSSA PRINCIPIBUS TENEBRARUM .

IUS BEELZEBUB ET SACERDOTES OZMIDEUS MAGICENQUE ET MAGOS ANTONINUM SEPULCHRA

O VENI IN AUXÍLIUM NIGRA REVERSUS AZOT ..

OZOT VAMRHAWWA REVERSUS ..

COMPUTATIS OZOT FATTABEK SALVATOR EXSPECTA

وارتجفت الجدران وتراقص لهب المشاعل في توحش واشتعلت الشموع السوداء التى تملا أركان المكان فجأة. تراقصت عشرات الظلال المتوهجة على الجدران قبل ان تتجسد فى شكل كيانات مخيفة بعيون نارية ووجه مطموسة سوداء. وراحت الشياطين الخفية تردد ترانيمها الوحشية فى صوت مخيف:

أزوث . أزوث . أزوث.

رفع عماد يده نحو شريف، فطار جسده ليقبع فى منتصف الدائرة راقداعلى ظهره وقد بسط كل من ذراعيه وكفيه على إتساعهما. وبينما راح شريف يصرخ فى رعب، شق الفراغ من مكان خفى خنجر قديم مطلسم إلتقتطه عماد الأيسر. ثم أنحنى نحو شريف وأغمض عينيه وهو يصرخ بنشوة:

-المجد لأزوث..

وبلا تردد هوى بالخنجر على صدر شريف واخترقة. فتفجر الدم ، وارتفع الخنجر ثانية فى الهواء قبل أن يهوى هذه المرة على عنقه.

سالت انهار الدم من الجسد المنتفض فالتقط عماد بعضها بكفة. وسكبها على الكتاب. فارتجت الجدران وتزلزلت.

وعلى جدار ن القبو تجسد الثعبان النارى وهو يلتف حول نفسه ويرفع رأسه عاليا وفى منتصفه ظهرت جمجمة شيطانية بعيون مشتعلة وقرنين ناريين على جانبيها..

و من وسط الثعبان برز ازوث وتجسد. غادر الجدار المشتعل ونظر إلى عماد ثم أشار بكفه نحوه. كان بشعا مخيفا، فلم يجسر الدكتور محمد على النظر اليه وأغمض عينيه في خوف حقيقي.

لم يرى عماد الذى ركع امام أزوث ..لم يرى الخاتم النارى الذى خرج من إصبع ازوث ليلتف حول إصبع عماد ..وحين كفت الهمسات المخيفة عن التردد وإختفت الاصوات الشيطانية فتح الدكتور محمد عينيه ثانية ..

كان بمفرده هذه المرة ولا اثر لعماد او اخته أو الطفل الصغير ولا كتاب الدم. مازال جسد ممدوح كما هو وقد فارق الحياة ومازال جثمان شريف الممزق على حاله في منتصف النجمة الخماسية . وقد أظل المكان صمت ثقيل. كانت القيود الخفية التي قيدته للجدار قد تلاشت هي الأخرى فتحرك فى وهن نحو باب القبو فغادره ثم سار مترنحا الى سيارته وقد غابت الشمس خلف الأفق وحل الظلام . تحرك بالسيارة وهو بالكاد لايرى أمامه ولايدرى هل يستطيع الوصول بها الى فيلته بالمقطم ام لا . تحركت السيارة، وعقله يأبى أن يصدق كل ما جرى الآن من أهوال، حتى أنه تمنى لو كان يحلم. لكن الواقع المخيف الذي ما زال يترای لبصره أعلمه أنه ولسوء حظه لا يحلم.

الخاتمة

" من صفحة الحوادث لجريدة الأخبار المصرية"

"جريمتا قتل غامضتين في يوم واحد بالمطرية"

كتب:محمود عبدالعليم:

تجرى نيابة المطرية تحقيقاتها في جريمتي قتل غامضتين، حدثتا في حي المطرية بالقاهرة..

ففي الحادثة الأولى، عثر الأهالي جثة فتاة كانت مفقودة تدعي سوسن.م.ع. في شقة جارها عارية تماما وقد تم ذبحها وقد وصم جسدها بالنار. وفي التحقيقات اتهمت الام الجار ، ويدعى"عماد.س.م"بفعل هذا، وأكد الشهود أن ذلك الجار قد خرج لتوه من مستشفي الأمراض العقلية بعد إيداعه فيها بتهمة قتل أمة قبل سنوات بصورة قريبة مما حدث مع الفتاه، وتواصل النيابة تحقيقاتها في انتظار تقرير الطب الشرعي، ليؤكد هل اعتدى ذلك الشاب ا عليها قبل قتلها أم لا..علما بأن الشاب قد اختفى قبل اكتشاف الجريمة مع أخته وطفلها..

كما تحقق النيابة في جريمة مماثلة في نفس الشارع راح ضحيتها احد تجار المخدرات ويدعى"محمد.ع" .. كان القتيل قد وجد مقتولا في فراشه محترقا وقد تفحم جسده تماما. الغريب في الامر انه لا اثار حريق ظهرت بالجوار، هذا وتواصل الشرطة تحرياتاها عن الحادث لمعرفة ملابساته كما تبحث عن زوجة القتيل وتدعي "منى.م.أ" التي اختفت هي الأخرى في ظروف غامضة ولا يعلم احد مكانها"

***

قصاصة من صفحة الحوادث لجريدة المصري اليوم

"مقتل ممرض يعمل بمصحة نفسية بطريقة بشعة"

كتب: عماد رشاد.

تواصل مباحث السيدة زينب تحرياتها لكشف غموض مقتل ممرض يعمل بمستشفي الامراض العقلية بالعباسية يدعى"حكيم .ع. م" 34 عام..

كانت زوجته قد اتصلت بقسم شرطة السيدة زينب وهي في حالة انهيار تام لتبلغهم بعثورها على جثة زوجها مصلوبة بالحائط وقد تم سلخ جلده عن لحمه تماما وشاهدت على الحائط المثبت به، الكثير من الرموز الغريبة مرسومة بالدم.

وأضافت الزوجة أنها كانت وقت ارتكاب الجريمة في منزل أمها لزيارتها وحين عادت وجدت زوجها مقتولا هكذا. وقد دلت تحريات المباحث أن القتيل لا أعداء له ولم تتهم زوجته احد ما بفعل هذا"

****

من صفحة الحوادث بجريدة المصري اليوم

"العثور على جثة شاب مشنوقا في بيته"

كتبت: داليا فؤاد.

تحقق مباحث قصر النيل تحقيقاتها في جريمة قتل راح ضحيتها شاب يدعي"أدهم.س". كانت زوجته قد عثرت على جثته معلقة من رقبتها في سقف حجرة نومه ويداه مقيدتان للخلف.. هذا ولم تتهم الزوجة أحد ما بفعل هذا كما نفت أن يكون الحادث من أجل السرقة حيث أكدت أنها لم تفقد شيئا من شقتها..كما دلت تحريات المباحث أنه لا أثار عنف بالشقة ومازالت تواصل تحرياتها للوصول لغموض هذا الحادث.

***

وعلى فراشه رقد الدكتور محمد شاهين بيأس في انتظار النهاية السرمدية. صار الألم لايطاق ولم تعد تجدي المسكنات والأدوية المخدرة التي يتناولها في تخفيف حدته.

كانت هي النهاية. أدرك هذا مستسلما وهو يرى عجز من حوله عن أيجاد حل لتلك اللعنة الرهيبة التي عصفت به..

زاره الكثيرون. كائنات خفية لاتنتمي للبشر. حكماء من الجان، بل وأيضا بعض سحرتهم العظام. ومع هذا فشل الجميع رغم قواهم الرهيبة في إزالة اللعنة عنه أو تأخير النهاية. بل وفشلوا حتى في تخفيف تأثيرها وآلامها.

لقد آن للدكتور محمد شاهين ان يموت.. ومع أنفاسه اللاهثة المتسارعة، والدوار العنيف الذي يختطف وعيه، أدرك أن الأمر أقرب مما يتخيل. ربما تكون هذه الساعات هي الأخيرة له في هذا العالم.

قبض على غليونه بأصابع مرتعشة واهنه وقربه من فمه وبالكاد سحب نفسا ضعيفا أخرجه على الفور من فمه قبل أن يصل لصدره. لم تعارضه وداد ولم تعد تسأله أن يكف عن التدخين، وقد حاصر عقلها حزن لا ينقطع عليه..

شعر بحركتها وهي تقترب من الحجرة، تلفت نحو الباب ولدهشته كانت تحمل في يدها صندوقا مغلقا لا يدري عنه شيئا..

وضعته بجواره وأخرجت منه خطابا وهمست:

-لا أدرى إن كان صوابا أن ترى هذا الآن أم لا.. لقد وجدنا هذا الصندوق في صندوق البريد..إنه لا يحمل اسما ولا يحوي غير هذا الخطاب المذكور فيه اسمك وقنينة زجاجية سوداء لا أدرى كنهها. لم أدرى وأنا أرى على الخطاب كلمة"هام للغاية" إن كان من الصواب أن تقرأه أم لا..لكنني أحضرته في النهاية لتقرر ما عليك أن تفعله.

مد يده نحو الخطاب المغلق والتقطه من يدها.. ثم فضه ببطء وبدأ في مطالعة ما به وما زالت وداد بجواره في انتظار أن ينتهي منه.

"مرحبا يا دكتور.

أتمنى أن تكون في خير حال حين يصلك خطابي هذا، وإن كنت أخشى أن هذا غير ممكن.. لقد أعلمني أزوث بأمر اللعنة التي أصابتك..أخبرني أنها أكبر منه وأنه لا احد بقادر على إنهائها غير صاحبتها.

بالطبع تعلم من أنا. نعم .

أنا عماد..

أردت فقط أن أخبرك أنني في خير حال. كما أنني لست بمفردي، فهناك ابتسام وعماد الصغير وهناك حبيبتي منى وطفلتها الجميله. كل هؤلاء يشاركونني حياتي الجديدة. إنني لم أغادر مصر كما تظن. بل مازلت أعيش بها. لكن الأمر تبدل الآن. لم يعد هناك ما يمكنني أن أخشاه وقد حزت القوة. لقد أدركت الآن لماذا فعل جدي ما فعله..

أرجوا أن صدقني حين أخبرك أن الأمر يستحق..يستحق أكثر مما تتخيل..

إن أزوث قوي. قوي وسخي للغاية مع أعوانه. كما أنه لا يطلب المستحيل. لا داعي لأن أخبرك ما يحتاجه، فأنت تعلم حتما ماذا يتم في تلك الأمور..

لقد حققت انتقامي من الجميع.. في الواقع لم يعد هناك من أعداء لي على قيد الحياة..سترى قصاصات للصحف في نفس الخطاب..إنها لأشخاص ماتوا في وقت واحد بطريقة رهيبة غامضة. يمكنك ببعض الخيال أن تخمن من فعل..

تعتقد أني قد تبدلت. أنت طبيب نفسي ويمكنك أن تدرك لماذا حدث هذا، وهل كان أمامي سبيل أخر غير هذا أم لا.

جميلة هي الحياة الآن. جميلة هي الحياة التي تتمتع بكل لحظة فيها ولا ينقصك شيء من مباهجها. هناك الأخت التي عادت لتحبني وهناك الحبيبة التي عادت لأحضاني، وهناك القوة، وهناك المال، وهناك الأعداء المتعفنين الآن في قبورهم..

وهل هناك ما هو أكثر إبهاجا من هذا؟..

بالمناسبة هناك قنينة في نفس الصندوق. إن بها ترياقا صنعه أزوث بنفسه من أجلك.. لن يزيل اللعنة بالتأكيد، فكما أخبرتك من قبل، هذا أكبر منه.. لكن الترياق سيؤخرها لبعض الوقت، ويزيل في الوقت نفسه آلامك . إنها هديتي لك.

هذه هي المرة الأخيرة التي تسمع فيها عني..لقد انتهي عماد الذي تعرفته وأتى بدلا منه رجل سعيد آخر..

رجل لن تلقاه أبدا.

المخلص

عماد."

انتهي الخطاب فاخرج القصاصات وقرأها..وشعر بالنفور مما يقرأه فألقاها جانبا، ثم طلب من وداد أن تأتيه بقنينة الترياق. ناولته إياها ففتحها وتجرع ما بها بلا تردد. كان السائل مرا للغاية.لكنه احتمل. وأغمض عينينه بعدها وتسلل النوم إلى عقله..

وحين استيقظ كانت أشياء كثيرة بجسده قد تبدلت.. زالت آلامه تماما، وشعر بالقوة تسرى في دماءه. نهض من فراشه فطاوعته أطرافه ببساطة ونشاط. فراح يتقافز على الأرض مستمتعا بالصحة التي يشعر بها الآن..

وحين نظر إلى وجهه في المرآة رأى كيف اختفت الكثير من التجاعيد عن وجهه وكيف عاد العمر به للخلف سنوات كثيرة..

أراد ان يصرخ فرحا..أن يرقص طربا..

وحين دخلت وداد حجرته ووجدته صحيحا هكذا لم تصدق بصرها وصرخت في ذهول:

-يا إلهي.. لقد عنك مرضك؟..كيف حدث هذا؟. إن الشياطين ترعاك بلاشك!. لقد صرت أخافك يا دكتور. صرت أخافك حتى الموت..

وفرت من أمامه مسرعة كأنما تفر من الجحيم، وضحك

ضحك كما لم يفعل في عمره كله.

ثم تحرك بنشاط نحو حديقته ليقرأ جريدة الصباح..

تمت